غريغوار دولاكور

مكتبة | 194

لم أكن أرى إلا السعادة

رواية

المركز الثقافي العربي

غريغوار دولاكور

لم أكن أرى إلّا السعادة

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

غريغوار دولاكور

لم أكن أرى إلّا السعادة

رواية

ترجمة: معن عاقل

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد

المركز الثقافي العربي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

العنوان الأصلي للرواية:
On ne voyait que le bonheur
Grégoire Delacourt
© 2014 by Editions JC Lattès
All rights reserved

الكتاب
لم أكن أرى إلّا السعادة
تأليف
غريغوار دولاكور
ترجمة
معن عاقل
الطبعة
الأولى، 2015
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-793-3
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

«لا تهزّني، فأنا مليء بالدموع».

هنري كاليه، جلد دب.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أنا في وضع يمكِّنني من أن أعرف أن قيمة حياةٍ ما هي ما بين ثلاثين وأربعين ألف يورو.

حياة؛ إنها في النهاية عبارة عن اجتياز مضيق ضيق طوله عشرة سنتيمترات، ضيقٌ في التنفس، ولادة، دم ودموع، فرحٌ وألمٌ، أول استحمام، بدايات بزوغ الأسنان، الحبو؛ المناغاة، السقوط عن الدراجة، عضاضة الأسنان، الخوف من الكزاز، المزحات، أبناء العم، العطل الصيفية، الحساسية من شعر القطط، النزوات، الحلويات، تسوس الأسنان، ومن ثم الأكاذيب، النظرات المواربة، الضحك، الانبهار، الحمى القرمزية، تشوهات جسد ينمو بلا اتساق، أذنان تظلان أكبر ممّا ينبغي لزمن طويل، خشونة الصوت عند البلوغ، انتصاب القضيب، الأصدقاء، البلهاء، كل البلهاء، الوجوه المتخشبة، وطحالب لا بد من إزالتها، لوعة الحب، الحب، الرغبة بالموت، الشهادة الثانوية، الكلية، راديكيه(*)، الستون(**)،

(*) رايموند راديكيه: كاتب فرنسي (1903-1923) كتب روايتين حظيتا بنجاح شعبي كبير.

(**) الستون: مجموعة روك تأسست في لندن عام 1962 جاء اسمهم من أغنية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

موسيقى الروك، ثلاثي الكلور، الفضول، أول وظيفة، أول راتب، المجون في الاحتفال، الخطوبة، الزفاف، أول خديعة، الحب من جديد، الحاجة إلى الحب، الرقة المستثارة، أفيون الحنان، الذكريات المنصرمة، ويتسارع الزمن فجأة، بقعة على الرئة اليمنى، ألم عند التبول صباحاً، مداعبات جديدة، البشرة، تقرن البشرة، الشامة المشبوهة، الرعشات، التقتير، التماس الدفء، مشاريع المستقبل، حين سنصبح كبيرين، عندما سنغدو مرة أخرى اثنين، الأسفار، المحيطات الزرقاء، دماء ورمال(*) في حانة فندق يصعب التلفظ باسمه، في المكسيك أو في مكان آخر، ابتسامة، أغطية جديدة، عطور نظافة، التئام الشمل، قضيب متين مقدود من الصخر؛ حياة.

ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف أورو في طائرة تحطمت بك.

عشرون، خمسة وعشرون ألفاً إن كنت طفلاً.

أكثر من مئة ألف إن كنتَ في طائرة تحطمت بك مع مئتين وسبع وعشرين حياة أخرى.

تُرى بكم تقدَّر حياتنا؟

(*) دماء ورمال: فيلم عرض في عام 1941.

القسم الأول

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خمسون ألف دولار

تناول برنامج **ملفات الشاشة** على التلفاز قضية لاندبرغ مطولاً وتحدّثنا عنها في المدرسة. كنتُ في التاسعة من عمري عندها. رووا لنا قصة اختطاف رضيع عمره عشرون شهراً، ممتلئ يُزيِّن الحلق أذنيه، وقد طلبَ الخاطفون فدية؛ خمسون ألف دولار، وهي ثروة في عام 1932. ساد الرعب. ودُفِعَتْ النقود، غير أنهم عثروا على شارل أوغسطس وقد تحلَّلت جثته، وفي جمجمته كسر كبير. ألقي القبض على المجرم وأعدم صعقاً بالكهرباء، ونحن أيضاً شعرنا بخوف جارف عندما غادرنا المدرسة ذلك اليوم. عاد الكثيرون منا جرياً؛ وأنا بدوري مشيت مهرولاً، أنظر بلا انقطاع خلفي، ووصلتُ شاحباً، مرتعشاً ومبللاً؛ سخرتْ أختاي مني: وقع في الماء، وقع في الماء، يا له من أحمق. لم تكادا تبلغان سن الخامسة. اعتبرتْ والدتي أن حالتي مزرية، فسحقت سيجارتها بنكهة النعناع، بهدوء وحتى بتلذُّذ. ألقيتُ نفسي في حضنها فجفلتْ أو فوجئتْ. لسنا عائلة غنج ودلال وليست من شيمنا حركات الملاطفة والكلمات الحنونة والممتلئة. تبقى المشاعر في منزلنا في مكانها؛ في الداخل. سألتها وأنا أرتعش، هل ستدفعان أنت وأبي أموالكما فدية لي إن اختطفني أحدهم؟ هل ستنقذانني؟ عيناها، كرتان مرتابتان التمعتا فجأة،

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

اتسعتا ثم ابتسمت، وبما أنها نادراً ما تبتسم، فقد زادتها ابتسامتها جمالاً رفعتْ غرتي بأصابعها. كانت جبهتي باردة وشفتاي زرقاوين.

تمتمتْ: بالتأكيد يا أنطوان. سندفع حياتنا لأجلك. كل حياتنا. هدأ قلبي.

لم أتعرض للخطف قط. لذلك لم يهبا حياتيهما لأجلي. ولم ينقذانني.

ثمانون أورو

أقول لك مذبحة. موجودة على الإنترنت. خفتُ في البداية، نوع من البارانويا. نوع يصورني ليبتزّني. يهمشني، يسلب نقودي وساعتي، يكسر أسناني. خوف فظيع. مع ذلك، أقترب يا أنطوان مثلك من سن الأربعين، وأعرف توجيه اللكمات، الآن، إن كنتَ تدرك ما أعنيه، لكن الأمر كان مختلفاً آنذاك. حين وصلتُ، كنتُ فزعاً بحق. وضعتُ رمز فتح الباب ودلفتُ إلى مدخلٍ أخضر غامق صغير. رائحة شواء في الساعة الحادية عشرة صباحاً، ودرجٌ رطبٌ كما في فيلم **الرصاصتين**. إنها في الطابق الرابع. كان قلبي يخفق. أشعر أن ياقوتاتي الثمانية والثلاثين تصل راكضة. يجب أن أبدأ بممارسة الرياضة، على الأقل رياضة ركوب الدراجة. يبدو أنها ملائمة للأنابيب. يكاد قلبي ينفجر. تَخَيَّلْ رأس فابيان أمام جثتي! ماذا تفعل جثتي هناك؟ بل ماذا كان يفعل زوجي هناك في الساعة الحادية عشرة صباحاً، تباً! في عمارة تقطنها عاهرة في الطابق الرابع. تمهلتُ قليلاً. استعدتُ أنفاسي في ردهة درج الطابق الثالث. برفق. مثل كلب عجوز يستريح بين كرتي تنس ترميهما بعيداً، بعيداً جداً، ليتغوّط. لا أحب الكلاب، تصبح نتنة عندما تمطر. ثم إن الكلب يهرم بسرعة، وينقل الأمراض، ويجب تلقيحه.

باختصار، ثمة أربعة أبواب في الطابق الرابع، ولا أعرف أي باب بابها، لكن أحدها مفتوح، وبالأحرى منفرج قليلاً. أتقدم بهدوء وحذر، لم أزل فزعاً. أقول في سري إنه لا يمكن لقضيبي أن ينتصب البتة. إنها خلف الباب. عاهرة، فتية، لا تشبه إلا صورة على الإنترنت. مع ذلك ابتسامتها جميلة. والمكان ليس استديو، بل حجرة نوم غارقة في الظلام وسرير، وهذا كل شيء. حاسوب وعلبة مناديل ورقية. أنقدها الثمانين أورو، فتعدّها، وفجأة تخفيها. ثم تقترب، وتفتح بنطالي مباشرة. أنظر حولي. لا شيء. ليس ثمة بصيص ضوء كاميرا أحمر. لا شيء. مجرد بؤس دبق. في الحقيقة، من حسن الحظ أن فابيان لا تحب القيام بمثل هذه الألاعيب. (صمت).

لأنني لا أحب أن أطلب أكثر مما ينبغي، وأجد أن هذا يبدو مبتذلاً اجعليني غليوناً. هذه ليست كلمات حب. مص القضيب أيضاً. حتى حين يكون مضحكاً، مثل صنارة صيد. بلى يا أنطوان، «صنارة الصيد» مضحكة، لكن هذه ليست كلمات حب. أحب زوجتي، لكن ليس لأقول لها حماقات. لذلك، تفي الصغيرة بهذا الغرض، إنها من أجل الكلمات التي أحصرها. من أجل أن أخفي هيئتي الجبانة. فنحن الرجال، كما تعلم، طرق مسدودة. ومقابل ثمانين أورو، تجعلني غليون الجحيم، دون أن أهين فابيان.

ازدَرَد ف.ف.ف. الجرعة الأخيرة من البيرة، وتلذذ بمتعتها الصغيرة جداً، ووضع قدحه بلطف، ثم نظر إليّ. رفع حاجبيه، تبسَّمت عيناه ونهض.

قلتُ حين وضع ف ف ف يده في جيبه، دع أمر الحساب لي.

شكراً يا أنطوان. إلى اللقاء غداً.

وبقيتُ وحيداً.

أشعلتُ لفافة تبغ أخرى، وسحبتُ بعمق. أحرق الدخان فمي وصدري؛ وشعرتُ بدوار لذيذ. اقتربتْ النادلة، وأخذت قدحينا الفارغين. طلبتُ منها قدحاً آخر. لم أكن أرغب بالمغادرة ومواجهة فراغ حياتي. كان لديها وجه جميل، فم جميل، جسد جميل. وهي في مثل نصف عمري أيضاً. لكنني لم أجرؤ.

خمسة فرنكات

رغب أبواي بطفل ليصبحا عائلة بسرعة، أي زوجين لا يطرح عليهما الناس أية أسئلة؛ طفل ليخلقا مسافة بينهما وبين العالم. وقد حدث.

عند عودتها من دار التوليد، ذهبت أمي مباشرة إلى حجرتها وانزوت فيها لتدخن المنثول وتقرأ ساغان. وسرعان ما عثرت على ظلّ الكاتبة اللطيف، بفضل سنها العشريني. وحين كانت تخرج أحياناً لشراء الخضراوات والحليب المجفف وعلبة تبغ، ويسألها الناس عن حال الطفل، أي عني، كانت تجيب إنه في أحسن حال، أظن، في أحسن حال؛ وتنداح ابتسامتها على وجهها.

قطعتُ المسافة بين دار التوليد والمنزل في سيارة بقوة حصانين. كان والدي يقود بحذر، وهو مدرك، كما أظن، ما ينقل: خمسة كيلوغرامات من اللحم والأعضاء، خمسة وسبعون سنتيلتراً من الدم، وعلى الأخص يافوخ مفتوح ومختلج قد تمزّقه أية حركة خرقاء بيسر. أنزلنا أمام المنزل دون أن يترجل من السيارة. لذلك لم تحمني ذراعاه من الخطر المصادف بين السيارة والمهد الأبيض في الحجرة. ترك أمي تضعني فيه لوحدها، وتتعجب لوحدها أمام أجمل طفل في العالم، وتبحث وحدها لتتعرف على أنف جدتي في أنفي، وعلى فم

جدي في فمي. تركنا وحيدين ولم يحتضن زوجته بين ذراعيه ولم يرقص. عاد ببساطة إلى متجر العقاقير الذي كان يقضي فيه أيام الأحد منذ أكثر من عام، تحت إمرة مالكه السيد لابشان، وهو أرمل، لا وريث له، سرَّهُ توظيف والدي الذي تميز بمهارة فائقة على ما يبدو. كان يُحَضِّر للمراهقين المصابين ببثور الشباب مراهم فعالة من بيروكسيد البنزويل حتى 4 %؛ ويُحَضِّر للسيدات الموسوسات سموماً للفئران والجرذان والعناكب وحشرات المطبخ والصراصير، ويكفي أحياناً لصرصور واحد: ثلاث قطرات على اللسان عندما تأوين إلى فراشك وفي الغد ستكون مثل جزيرة، بحيرة مرجانية. سيكلفك خمسة فرنكات يا سيدة جينمار. لدي ورقة نقدية جديدة تماماً، خذها. خمسة فرنكات، إنه ليس ثمناً باهظاً لأحصل على السعادة، شكراً، شكراً. أكمل والدي دراسة الكيمياء، وكان يحب الشعر، إلا أن أحلامه بجائزة نوبل تبخرت مع ظهور أمي. سيقول ببرود فيما بعد، أزالت المَغْنَطة عني، كما سيقول، إذابة. أو بلمرة. جعلته يجن ويفقد رشده ويتخبل - وبحسب تفسيري - يفقد بضع شعرات. التقيا في 14 يوليو، في ميدان أريستيد بريان من كامبري. كانت بصحبة أخواتها. وهو بصحبة أخوته. تقاطعت نظراتهما. ثم تشابكت. كانت طويلة ورقيقة، صهباء من البندقية، ذات عينين سوداوين؛ وكان طويلاً ورقيقاً، أسمر، ذا عينين خضراوين صافيتين. افتتن كلّ واحد منهما بالآخر، لكنه بقي مهذباً في فترة الافتتان: ابتسامة، وعد بموعد، مصافحة. التقيا في اليوم التالي في صالة مونتوا ذاتها للشاي. ستؤكد لي أمي فيما بعد أن اللقاء كان في عزّ النهار، بلا موسيقى ولا ألعاب نارية ولا أقداح شمبانيا وبدون تلك النشوة اللطيفة، وجدته أقل فتنة، لكن هذه هي الحال، عيناه

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خضراوان وهي تحلم برجل ذي عينين خضراوين؛ حتى لو لم تحلم أية امرأة برجل مخبري. عقدا عهوداً أخرى، وعرَّفَ كل منهما الآخر بأبويه. طالب الكيمياء وطالبة اللاشيء. كان في سن العشرين وهي في سن السابعة عشرة. تزوجا بعد ذلك بأقل من ستة أشهر. في 14 يناير. التُقِطَت صور الزفاف والحمد لله بالأبيض والأسود. لذلك لم يرَ أحد شفاههما الزرقاء ولا شحوب والدتي الشديد ولا زغب البندقية الأصهب كالأشواك. البرد هو الذي سبق أن جمد حبهما وكدر عينيه الخضراوين.

حين أتذكر، بعدما بحثت وحققت وبعدما بكيت، يبدو لي أن أياً من أبوي لم يحبّ أحدهما الآخر.

سبعة وعشرون أورو

لم يسنح لي الوقت لإنهاء قدح البيرة. ارتجّ هاتفي النقال، وظهر رقم؛ إنه رقم زوجة أبي.

جاءني صوتها على الفور؛ صوتها الذي كان يصدح بالعادة عالياً بترانيم رحمانينوف، سلام عليك يا مريم لشوبرت، مع كورال الكنيسة.

جاءني صوتها، فجأة؛ مسحوقاً.

خرجنا من عند الطبيب هذا مروع مروع لا أدري ما أقول وكيف أقول لك ذلك لكن الأمر يتعلق بوالدك لم نعرف بعد إلا أن حالته ليست على ما يرام وهنالك آثار في الكولون من هناك بدأ وسألتُ الطبيب إن كان متأكداً إن كانت هذه هي حاله إن كان مصاباً بالمرض الذي لا يمكن التلفظ باسمه فنظرَ إلي وكان حزيناً أقسم لك إنه بدا حزيناً هو طبيبٌ عام طيب يعرفُ والدك حق المعرفة ويتابع حالته منذ زمن طويل كان في غاية الحزن حين فهمتُ لستُ حمقاء كما تعرف لستُ أمك لكنني أحب أباك وأعتني به عناية فائقة كما تعرف وأهتم بطعامه توقفَ عن التدخين كما تعرف توقفَ لأجلي منذ زمن طويل لأنني فقدتُ القدرة على الاحتمال ولأنني كنت قلقة وليس في الرئتين إنما في الكولون بدأ من هناك على حد قول الطبيب وثمة ما هو

خطير جداً تصور كما لو أنه يمكن أن يوجد ما هو أخطر من الخطورة إنه الكبد انتقل إلى الكبد وهو في المرحلة الرابعة كما قال بهيئة حزينة لا أدري ما العمل إذا كان الكبد فهذا مُهلِكٌ أعرف ذلك ويعرف ذلك ويعرف كل انتشاره علاوة على ذلك أرغب بالبكاء ونتف شعري وغرز سكين في جسدي كنت أنتظر في النهاية أن أتقاعد لأستفيد منه وها هي ها هي النهاية كما لو أنها نهاية الحياة هذا باطل هذا ظلم بغيض كان علينا الذهاب إلى توكيه بعد شهر وقد استأجرتُ في طابق أرضي لئلا يتعرض لإجهاد اتصل بي حين تشاء حين تستطيع هذا فظيع وطلب مني في النهاية سبعة وعشرين أورو لأسمع أن الرجل الذي أحبه يوشك على الموت.

سبعة وعشرون أورو.

دفعتُ ثمن البيرة. نظرتُ حولي. أصبحتْ شرفة المقهى مزدحمة الآن؛ يضحكون، يدخنون، يضجون بالحياة. لا شيء يتهددهم. نهضتُ بمشقة؛ أصبحتُ أحمل فجأة همّ أبي. أصبحتُ أحمل أطناناً من الصمت، أحملُ تخاذلنا، كل تخاذلنا؛ هذه المليمترات من الأخطاء التي شكلت على درب الحياة طريقاً وعرة. طريقاً مسدودة. جداراً أرجوانياً. ابتسمتْ لي النادلة ورغبتُ في البكاء، وأن أرتمي في أحضانها، في حنانها الشاحب، وأن أتجرأ على التفوه بكلمات تشجي وتريح، أبي يوشك أن يموت سأغدو يتيماً إنني خائف ولا أريد البقاء وحيداً ولا السقوط، وأسمعها تقول لي إنني موجودة يا سيدي، موجودة، وسأبقى معك، لا تخف، لا تخف، هو ذاك، ضع رأسك، واهرس نهدي، ولا تفكر بشيء. لكنني لم أجرؤ.

لم أكن أجرؤ البتة.

فرنكان وعشرون قرشاً

لستُ أدري إن كنتُ أحب أبي.

أحببتُ يداه اللتان لم ترتعشا قط. أحببتُ وصفته المؤلفة من عصير الليمون مع ثنائي كربونات الصودا. أحببتُ الروائح المنبعثة من تجاربه. صرخاته عندما تفشل. هتافاته عندما تنجح. أحببتُ طريقته في فتح الصحيفة صباحاً في المطبخ الأزرق بمنزلنا الكبير. أحببتُ عيناه وهو يقرأ النعوات. صوته حين كان يقول لأمي: هل تعرفين أنه كان في مثل سني؟ كان فخوراً لأنه لم يزل حياً. كانت ترفع عندئذٍ عينيها إلى السماء بعفوية؛ كانت جميلة بأناقتها المتواضعة. أحببتُ انتظاره كل مساء أمام متجر العقاقير بعد المدرسة. كنتُ أراه عبر زجاج الواجهة يشرح، ويبالغ في حركاته. كنت أرى افتتان الزبونات به. إغراءاتهن. لم يكن والدي وسيماً لكنه مغرٍ. كان رداؤه الأبيض يعطيه هيئة عالم. وشبابه يُدهش. وعيناه الخضراوان. آه، عيناه الخضراوان. كان السيد لابشان يهلل في الخفاء. فأعماله تنتعش. يأتي الناس من أجل كل شيء وأي شيء. إيثيلين وإيثانول وصمغ، كانوا يأتون من أماكن بعيدة، من رانس وجينلان وسان أوبير. يأتون لرؤية أبي، السيد أندريه. لا يقصدون إلا هو. يعتنون بهندامهم، ويقفون في صف طويل. ينتظرون منه

جرعات سحرية، مراهم تجميل وعقاقير تنحيف. يروق لهم أن يتخيلوا أنفسهم تحت يديه وأصابعه التي لا ترتعش وتركِّبُ الأعاجيب. كل واحدة منهن تريده أن يختارها، لكن اختياره وقع على هذه: آنسة تلطَّخ قميصها الحريري ببقعة نبيذ؛ صورة نازفة، قلب محطم. عودي غداً يا آنستي. وفي اليوم التالي، مستحضر محلول النشادر، وقميص كأنه جديد. لم يزل النهدان صلبين تحت القميص، نظرة، ابتسامة. دعاها أبي إلى منزل مونتوا. يعيشان معاً منذ ما يقارب الثلاثين عاماً.

خلال تلك السنوات الثلاثين نادراً ما ابتسم. وفي فترة حياتنا العائلية، لم يبتسم قط.

قاربتُ على بلوغ سن السادسة. كانت أمي قد ولدت للتو أختاي، توأم حقيقي، تقريباً سيامي. آن وآنا. جاءت آنا بعد شقيقتها بسبع دقائق وثماني عشر ثانية، وهي أصغرهن وأصغرنا في آن معاً. رأسها للأعلى في الرحم. توسيع الفرج. مجزرة. كان أبي يملك آنذاك سيارة سيتروين GS لونها بيج، مقاعدها من الجلد الاصطناعي لونه أقرب إلى الكستنائي الغامق، أعاد بواسطتها أمي وأختيَّ من دار التوليد. ركن السيارة أمام منزلنا، خرج منها، وصعد إلى الحجرة الوردية. وضع الفتاتين مع أمي في سريرهما المزين بدانتيلا زهر النسرين، تأملهما مطولاً، مذهولاً، وحتى ذرف بعض الدموع، ثم احتضن أمي بين ذراعيه ليراقصها. همس لها، شكراً، إنهما رائعتان، إنهما في غاية الجمال، إنهما تشبهانك، وهمست له أمي بدورها، أنت لا تضاجعني يا أندريه، فلا تتفوه بأي كلام. وعندما نزل ثانية، وجدني جالساً في الصالون. انتفض، آه، أنت هنا. يمكنك الصعود لرؤية أختيك، إن شئتَ، لم أتحرك.

كنت أرغب أن يحتضني بذراعيه فقط. كنت أود فقط أن أعرف إن كان لا يزال يحبني، إن كنت لم أزل موجوداً، إن كان لا يزال لي اسم وأب.

خُذْ.

كانت المرة الأولى والوحيدة التي ارتعشت فيها أصابعه.

هاك فرنكين وعشرين قرشاً، اذهب واشترِ لي علبة تبغ جيتان، الآن أحتاجك.

كما ترى، لا أدري إن أحببتُ أبي.

في أية لحظة يدرك رجل أنه لن يغدو بطلاً أبداً؟

أربعة فرنكات وخمسون قرشاً

غادرتُ شرفة المقهى، تاركاً خلفي الضحكات واللقاءات الجديدة ومجزرة صغيرة بقيمة ثمانين أورو لـ ف ف ف، واختفيت في الليل، وسط ظلمات مرعبة.

من تلك الظلمات تنبعث أحياناً الحماقات.

حين وصلتُ إلى منزلهم قالت لي إنه في الغرفة، يرتاح. يمر الآن في حالة إنكار يتكلم عن حادث ولحسن الحظ أنه مضى لكنني أظن أنه ينبغي عدم إزعاجه سأخبره أنك أتيت فهذا سيجلب له السرور يحتاج إلى من يسانده وأنت تعرف كبرياءه كيف حاله لن يكون الأمر بسيطاً يعتقد دوماً أنه أصلب وأقوى من جميع الناس إنني في غاية الحزن إن كنت تعرف كيف أحزن من حسن الحظ أن القرف مضى لم أكن أريد البكاء لكنه يأتي من تلقاء نفسه آه سرني أنه لم يرني على هذه الحال فليس أمراً جميلاً أن تبكي امرأة هذا مخيف تذوب مساحيق التجميل إنه أمر قبيح جداً آه فعلاً إنه لرهيب جداً ما يحصل لنا.

احْتَضَنْتُها بين ذراعي وتركتها تبكي مطولاً فكرتُ في دموع أمي، حين كانت تبكي أحياناً، وهي وحيدة، الحياة التي لم تعشها. ليس هذا كل شيء. فقد قالت لي ذات يوم إن العيون الخضراء لا

تجلب النشوة، إنها تجعلك مرئياً في الليل، وحتى تثير شيئاً من الخوف.

جهزتْ أمي غرفة منفصلة بعد وصول أختيّ التوأم. كانت تقول إن الزهد بالجنس هو أفضل من فقدان العاطفة. وفيما بعد، ستتخذ عدداً من العشاق، وستتوه بين الأوهام. ستلجأ إلى البيرة الشقراء ولن تتخلى عن تدخين المنثول رغم لعنات البعض وستحلم وهي تنفث الدخان بتلك الحيوات التي لم يتح لها أن تعيشها، وبشواطئ تُطَيِّرُ فيها الريح القبعات وتجعل الخدود تحمر، بتلك الأماكن الرائعة التي يمكن للمرء أن يتلفظ فيها بكلمات فاحشة ما دامت الريح تخنقها وما دام لن يسمعها أحد. **حزن وكآبة، ألم، ضعف.**

لم تحبني أمي بما يكفي لأكون سعيداً.

جاءت ذات ليلة لتستلقي بجانبي، على سريري الصغير. أفسحتُ لها المجال وحصرتُ نفسي على الجدار تغمرني السعادة لوجودها هناك. لم تتفوه بأي شيء لبرهة مديدة. أصغيتُ إلى تنفسها الهادئ، متذكراً على هذا النحو إحساسي بتلك اللحظات النادرة من السلام والفرح الغامر، حين كانت تسمح لي بالبقاء قربها في الصالون، بينما تقرأ وتدخن. كنت أحب رائحة دخانها الواخزة وأحاول ابتلاعها والتأثر بها. كان المنثول رائحتها؛ وكنت أرغب به على جسدي لأنني أشتاق إلى مداعباتها وكلماتها ونظراتها. لذلك طلبت من أبي بعد رحيلها أن يركِّب لي عطراً - وهو ما سيركبه على أساس الصيغة $C_{10}H_{20}O$ الغنية بزيت أساسه المينائول المفلفل. ظلت لفترة مديدة مستلقية قربي وبينما كنت أحسبها نائمة، اندفعت الكلمات عذبة ورصينة في آن معاً. لا تكن أبداً مثل والدك يا أنطوان، كن فظاً، كن قوياً، اخدم نفسك، وبِّخ النساء، اعصف

بهن، اجعلهن يحلمن، قدِّم لهن الوعود، حتى تلك التي لا يسعك تحقيقها، دعهن يَعِشْن على كل الآمال، وليس على الواقع. الواقع هو للحمير والحمقى، العشاء في الساعة السابعة والنصف مساء، القمامة، قبلة المساء، كعكات الفاكهة يوم الأحد بأربعة أورو وخمسين سنتيماً عند مونتوا، حياة تبعث على الملل بسرعة، يا أنطوان، بأقصى سرعة.

سالتْ دموعها الحارة على رقبتي، بينما كنت أتظاهر بالنوم.

جففتْ زوجة أبي دموعها، وشكرتني لأنني جئت، شكرتني على لطفي، لكن ذلك لم يكن لطفاً، كان جبناً. أخشى المرض والألم والعجز؛ أخشى أيضاً الهجر والبرد والجوع؛ أخشى حياة بلا نعمة ولا حب. لم أصبح الرجل الذي حلمتْ به أمي.

لم أحظَ بتلك الشجاعة.

قبَّلتُ زوجة أبي، وعدتُ إلى منزلي.

ثلاثون ألف أورو

اجتازت الكرة سور الحديقة. خرج الطفل لالتقاطها. عَبَرَ دون أن ينظر حوله. لم تستطع الدراجة النارية القادمة أن تتفاداه. كانت آثار الفرملة تشير إلى أنها تجاوزت بقليل حدّ السرعة المسموحة. وقع الطفل. اصطدم رأسه بعنف على الأرض. بقي في غيبوبة ستة أيام. أما سائق الدراجة، فانزلق نحو ثلاثين متراً، وانحصرت ساقه اليسرى تحت مئة وثمانين كيلوغراماً من الدراجة. واضطروا أن يقطعوا قدمه.

أوفدوني لفحص دراجة الهوندا الضخمة المتسببة بالحادث.

تلك مهنتي. عليَّ أن أرى ما لا يُرى وأن أشرح ما لا يُشرح. وفق مصلحة اثنتين من شركات التأمين. في هذا الحادث، ستؤخذ الكثير من الأشياء بعين الاعتبار: تعويض عن مكابدة الألم (SE)، التشوه الجمالي الدائم (القدم على الأقل)، الضرر الوظيفي (القدم مرة أخرى)، الضرر الانفعالي (PA)، مبلغ الإنفاق الصحي قبل دمج التعويضات، سداد أو إصلاح المركبة.. إلخ. كانت العوادم ومسننات السرعة والكولاس قد غُيِّرَتْ، ولذلك جمحت الدراجة؛ لهذا تقع تحت طائلة القانون: ثلاثون ألف أورو غرامة وعامان من السجن.

لن يسترد سائق الدراجة شيئاً إذاً. وسينقلب عليه والدا الطفل، سيفلس ويدفع من جيبه الخسائر التي سببها للاعب كرة القدم الصغير. باختصار، تدمرت حياته.

شعرتُ مراراً بالنشوة من فكرة أن بمقدوري تغيير حياة الآخرين. كنت ملاكاً في أحسن الأحوال، ووحشاً كاملاً لا يمكن الشك به في أسوئها؛ كان بوسعي إخفاء «معدل سرعة» الدراجة مثلاً وتخليص زبوني من المشكلة، الذي أصبح بقدم واحدة بطبيعة الحال، لكن مع تعويض يقارب المئة ألف أورو على الأكثر.

سيضمن له هذا التعويض أن يجري نحو حياة جديدة، أن يستقر في الشمس، أن يرتشف شراب رمال ودماء في حانة فندق لا يمكن التلفظ باسمه، في المكسيك أو في أي مكان آخر. أن يعيش ما يحلم به كل الناس وألا يعمل أبداً. تمنَّت أمي أيضاً لو تحصل على مئة ألف أورو، وودّت لو قالت للكيميائي إنه لم يكن ثمة أي كيمياء بينهما، لو أنها رحلت؛ لو أن آكلي لحوم البشر اختطفوها والتهموها، لو أن الشغف استهلكها حتى الرمق الأخير.

لكنني لم أكن أجرؤ، ولم أجرؤ قط. قدرتُ بحيث أدفع أقل تعويض ممكن، قدرتُ بلا شفقة ولا رحمة، فليس من حقي أن أمدّ يدي لغريق، ولا مكان في نفسي للشفقة والعطف والإنسانية؛ فتلك كلمات غير معروفة. سيمضي أعرجي حياته مفلساً، كما أمضيت حياتي؛ منذ البداية.

من أين يبدأ الجُبن يا ليون؟ هل يبدأ من نظرة أمك التي لم تفلح في التملص من عينين خضراوين يوم 14 يوليو في ساحة آريستيد بريان؟ هل يبدأ من تنهيدات طالب كيمياء يرفض تغيير العالم من أجل فتاة تحب لون عينيه؟ أم يبدأ في دخان المنثول الذي يخدر

بلطف ويدفع يوماً إثر يوم للتخلي عن جمال العالم؟ أم يبدأ من الأيدي التي تترك طفلاً هناك لقدره؟

من أين يبدأ؟ لا يحتاج إلى أم منتحرة، إلى أب غائب، إلى راشد يضربك ويعذبك. لا يحتاج إلى التراجيديا والدم. تكفي عبارة شريرة عند الخروج من المدرسة. أنتَ خبرت ذلك إلى حدٍّ ما. تكفي قبلة أمك التي لا تُحَلِّق، وتكفي الابتسامات التي لا تستقر على كتفيك كريشة. يكفي شخص لا يحبك.

عرفتُ مبكراً جداً أني كنتُ جباناً.

خمسون سنتيماً

مع أنني لم أزل طفلاً، لكنني حاولتُ أن أصبح قوياً.

سجلتُ في لعبة الجودو، وفي الجولة الثالثة، أذلني حامل حزام أخضر، يكبري سناً بقليل، بحركة جيجي غاتام، وهي عبارة عن كماشة مرعبة مفرطة الاتساع عبر العانة. اكتشفتُ أن الكلمات، مهما كانت غير مناسبة، يمكن أن تؤثر كاللكمات - هاجَمَتْ أمي أبي في النقطة الحساسة «لقد خيَّبْتَ أملي يا أندريه» ولجأتُ إلى ورشة المسرح في المدرسة.

تعلمتُ فيها أن أتنفس. أن أوظف صوتي. بدا لي آنذاك أن من الحصافة أن أقول اخرس بصوت من البطن وليس بصوت من الأنف وأن الأكثر تهديداً هو إبقاء الجسد منتصباً وليس أن يبدو مسحوقاً. تعلمتُ فيها أن أكون مؤثراً بدل أن أكون متأثراً. لم يكن لدي ذلك الثقل ولا تلك الكثافة اللذان يشكلان الرجال الذين تحلم أمي بهم. لم يفتتن بي أبواي في فترة الحضانة، ولا بعدها - لم يكن ثمة أي فتنة بالتأكيد. لكنني عرفت بعض النساء. كنتُ مغرياً. أردن الموت لأجلي. أردن العيش معي. طلبن مني أطفالاً وحناناً. راودتهن أحلام كنت أظهر فيها، وانتظرن مني أشياء، وأردن شرب الكوكتيل بصحبتي، في المكسيك أو في مكان آخر. أردن إسعادي.

لكن قبل هذه المسرات، جعلوني ألعب دور أحد ناقلي الأثاث في مسرحية اليد تمضي لفييدو، في عرض نهاية العام. دورٌ صامت. شعرتُ بالعار وتألمت، واقتضى إخفاقي ألا أسقط وحدي. كنت أريد أيضاً أن أغدو قوياً. لاحظتُ شخصاً يدعى فريدريك فرومان في باحة الاستراحة. إنه قريدس وحيد يرتدي نظارة، هيكلها من الألمنيوم وعدساتها كقعر زجاجة، نوع يهمله الناس عن طيب خاطر في السوبر مارشيه أو على الشاطئ. اقترحتُ عليه أن يصبح صديقي. تفحصني من رأسي حتى قدمي ثم ابتسم، متأثراً بصدق، فلُمْتُ نفسي. بالفعل. اقترحتُ عليه أن يأتي إلى منزلي لتناول التحلية بعد المدرسة، فوافق بفرح لم يزل يشوشني. مضينا عبر حديقة مونستربليه وهناك هَيَّجَه جبني.

صارِعْني.

عفواً؟

صارِعْني إن كنتَ رجلاً.

وها أنذا أشد قبضتي استعداداً لضربه.

اضربْ ودافعْ عن نفسك. اقتربتُ. مهدداً. خائفاً. خائفاً جداً.

ظلت ذراعاه متهدلتين بيأس. انطلقت إحدى ذراعي كالسهم، لتتحطم على فمه؛ تمزق جلدي بين أسنانه. نزفتُ ونزف.

كنتُ أعتقد أنك تريد أن تصبح صديقي.

عندئذٍ ذرف جبني الدموع بسخاء، اقترب مني فريدريك فرومان، ومن فمه المدمى خرجت الكلمات التي عذبتني: أعرف ماذا يعني ألا تكون قوياً، لذلك لا أكرهك. أنا أيضاً، كنتُ لأضرب نفسي، أنا أيضاً.

صافحتْ يدي القرمزية يده. لم نكن نعرف ذلك بعد، لكننا سنغدو صديقين وسنضطر إلى البقاء صديقين إلى الأبد.

في مخبز شارع كريفكور، قدمتُ له قطعة شوكولا بقيمة خمسين سنتيماً، كاعتذار متواضع. نظر إليّ بعينين صغيرتين حزينتين، عينيّ كلب ذليل. ف لطيف، لكن ف يعتقد أنك احتفيتَ بي باسماً.

في ذلك اليوم ولد ف ف ف، ليون.

فاكري فريدريك فرومان.

ستة فرنكات

كانت أمي تحب القراءة. تقرأ لساغان وكاردينال وبارجافيل. ما إن تستيقظ حتى تنزل لتقرأ، بينما تأتي مربية الحي البولونية لتهتم بي. ثم جاء دور الحضانة، وأيضاً المربيات اللواتي يأخذن أجر الساعة ستة فرنكات في المساء، عندما تكون هناك في الصالون. لم تكن تتحرك، وكانت عيناها تلتمعان. زعمَ والدي أن ذلك بسبب حزنها، لكنني كنت أعرف أن السبب الوحيد هو البيرة التي تشربها أحياناً من الصباح. اعترفتُ لي ذات يوم أنه كان من المبكر عليها إنجاب طفل. قالت، ليس لأنني لم أرغب بك؛ لم أرغب بنفسي. لم أفهم. حاولتُ أن تشرح لي: لم تحلم بأم مثالية فتية للعائلة. لم يكن هذا يهمها، بكل بساطة. سألتُ: لكن أنا؟ أنا، هل تحبينني يا أمي؟ هل تحبينني؟ السؤال نفسه موجّه إليك يا ليون. أجابتني: بالتأكيد. بالتأكيد، لكن بماذا يفيد هذا؟

ترعرعتُ في الروائح التي ليست روائحها، في أحضانٍ ليست أحضانها يا ليون. ترعرعتُ في الخيبة. أُلْقِيْتُ في الفراغ. لذلك أريد أن نبقى سوية هذه الليلة، أنا وأنتِ يا جوزفين.

بالمقابل، حصلتُ عماتك الصغيرات على حقهن من الرأفة. اهتموا بهن. كانا يلتقطان لهما الصور طيلة الوقت، وثمة صور لهما

في كل مكان، ألبومات كاملة. كان أبواي يرتبانها، كأنهما لا يريدان إضاعتها. كانا يجمعان كل شيء، رسوماتهما، شرائط شعرهن، وينتشيان من تشابههما، تعابير وجهيهما الشاحبة، عيونهما الخضراء، أقراطهما اللامعة.

أما أنا، فكنتُ أجدهما تشبهان إناءين من الخزف، لم تكونا تفترقان البتة، حتى عندما تذهبان إلى الحمام. لم يكن لي مكان بينهما في ألعابهما، لم أكن محسوباً، كنتُ غير مرئي. كنتُ في سن الثانية عشرة، وهما في سن السابعة، مثلك. لم تكونا تكلمانني، وإنما تُعلقان عليّ فيما بينهما: رائحته مقرفة. أطلقها قبحه. وضع إصبعه في أنفه. لديه دمامل على جبهته. وعلى الأنف. بسبب أصابعه القذرة. من حسن الحظ أن جدك كان كيميائياً، حضَّرَ لي كريماً، فاختفت دمامليّ. كانتا فظتين أحياناً؛ تقولان إن أخانا بلا فائدة، وتُفَضِّلان عليه كلباً صغيراً.

ذات صباح إحدى الأختين لم تستيقظ.

وانهارت أسرتنا برمتها.

ثمانون سنتيماً

بعد أن عرجتُ لعند أبي، عدتُ إلى منزلي الغارق في الصمت. كان المنزل فارغاً. كنتَ نائماً في منزل والدتك. لم أشعل الضوء، وبقيتُ في ظلمة الصالة، لزمن طويل. دخنتُ كثيراً. لم تنذرف الدموع. أظنني لم أكن حزيناً. ولا في حالة غضب. لم أكن أشعر بذاك الخوف. لم يظهر مرضه فجأة على شكل ألم. إنما بمكر شديد. تفشى المرض خارج الكولون، وتجاوز العقد اللمفاوية، وانتشر في الكبد. كان يمكنه أن يظل حياً.

سأقول لك يا أبي أن من حقك ألا تقاتل، وأنني سأغفر لك، وأننا جميعاً سنغفر لك إن فَضَّلْتَ، عوضاً عن اللاجدوى والألم المحتوم، الذهاب إلى قضاء بضعة أيام للاستجمام على شاطئ بحيرة كوم، واجتياز البروفانس عبر بنتلي، وشرب نبيذ بيتروس المعتق منذ عام 1961 أو عام 1990، أو الضحك مع أطفالي، مع آنا، مع الأحياء، أو النظر للمرة الأخيرة إلى صور آني. إن فضَّلتَ أن تتذكر وأن تصدق الحماقات، التام الشمل والغفران.

أشعلتُ لفافة التبغ مراراً وأنا أبتسم وتذكرتُ المرة الوحيدة التي تعشينا فيها سوية، وحيدين.

مقهى غار.

اتخذ هيئة وقورة، واضطربت خضرة الماء في عينيه، وعلت موجة ترابية. تناولنا حساء الكرفس بالخردل في صمت ثم مسح شفتيه ببطء مستخدماً الوجه القطني الخشن من فوطته الكبيرة قبل أن يتكلم.

تلقيتُ رسالة من شخص يدعى السيد *V كتبَ أن ابنته أمضتْ ليلة مع صبي.

احمررتُ خجلاً. ولو لم يسبق لي أن أنجزتُ ليلة الدخلة، لاختنقت.

كتبَ أن هذا الصبي هو أنت، وأن ذلك حدث في إنكلترا هذا الصيف، وأنها لم تبلغ الرابعة عشرة، وأن هذه فضيحة. وأنكَ إن حاولت أن تراها ثانية، أن تراسلها، أن تهاتفها، إن حاولتَ حتى التفكير بها لثانية واحدة، سيقاضيني بتهمة التغرير بقاصر.

أنتَ؟

أنا. وحتى بلوغك سن الرشد، أنا مسؤول. لذلك ستكتب هذا إلى السيد وتعده أن تفعل كل ما يطلبه منك.

خذ هذه ثمانون سنتيماً ثمن الطابع.

كنا في منتصف عقد الثمانينيات. وقد بلغتُ سن الخامسة عشرة وكنتُ عاشقاً لباتريسيا. قصيرة، شعرها كستنائي، عيناها واسعتان داكنتان، بلون سماء ماطرة، وابتسامتها عريضة. كنتُ خجولاً في أول مرة ومتفاجئاً؛ ضحكات، دموع، أفواه جافة. ومن ثم طعنة سكين. هذه الثمانون سنتيماً هي ثمن جبني كرجل يولد.

لماذا لم تسألني يا أبي إن كان ذلك حسن؟ لماذا لم تستقبلني في عالمك المليء بالعمالقة؟ لماذا لم تفتح ذراعيك لنحتفل؟

غادرتُ الطفولة من الباب الصغير، باب العار.

لا، لا أسألكَ إن كان ذلك حسن. لا أريد أن أعرف شيئاً، فهذا لا يهم.

في ذلك المساء افتقدْتُكَ يا أبي، وآنذاك انتصر ضَعْفُنا. في ذلك المساء بدأت مراهقتي اليتيمة.

بعد ذلك شاهدتك تقصّ وتقرض ظفرك بمثابرة. لقد وضعتَ الكثير من الخردل. لم أعد جائعاً. لا لظفر مدمى ولا لحنانك. وحين كنت تزدرد، بدا لي مريحاً إلى حدٍّ ما أن تقطع وتبتلع. في تلك الأمسية، شعرتُ أني خاوٍ على نحو يائس. ومنذ ذلك الحين، لم تفلح أي من إيحاءاتك ونظراتك وعباراتك في التخفيف من هذا الألم.

حين سحقتُ لفافة تبغي، تدفقتْ دموعي. إنه ذلك الأب هو مَن كنتُ أبكيه أخيراً. ذاك الأب الخائب في حانة محطة. ذاك الأب الذي طالما حلمتُ به وأنا أتخيل ما كان عساه أن يحدث لنا، لنا جميعاً، لو أنه فتح ذراعيه في ذلك المساء. لو أنه كلمني كرجل. لو أنك سألتني: هل تحبها؟ إذاً، تعال. تعال، انهض. سأقودك إليها وإذا أزعجنا أبوها، سأرشّه بقارورة من حمض البروبيونيك، لكن لا! هيا، تعال.

وفي تلك الأحلام، كنتُ أضحك، كنتُ أضحك.

ستمئة وخمسون فرنكاً وسبعون سنتيماً

حدث الدفن يوم الثلاثاء ولا بد، الساعة الحادية عشرة، ورغم أمنية أبوي بمأتم عائلي، غصّت الكنيسة بالحضور. إضافة إلى أبناء العمومة والخالات، كان هناك بضع أعمام وعمات، وجيران ومعارف، وعلى الأخص كان ثمة زبونات من عند لابشان، بالضبط، جئن لمساندة من أنقذهن مراراً من العار، من بقعة صلصة، من كوارث مستعمرة عثة، من أكسدة آنية فضة أو من بعض الدمامل المؤلمة. ما كان يحزنهن هو حزن أبي. أرادت أمي أن ينتهي كل ذلك بسرعة، وأن يختفي. الجسد. المشاعر. لم تفهم الفواتير بقيمة ستمئة وخمسين فرنكاً وسبعين سنتيماً المخصصة للعناية بحفظ «طفل دون سن الثانية عشرة».

ماتت، ماتت، راحتْ تردد، ما الحاجة إلى حفظها. هذا ليس لحفظ طفل ميت، هذا يُعفن. هذا يُعفن كل شيء، كل أولئك الذين أحبوها.

ولكي يهدئ والدي الأمور، ارتأى أنّ من المناسب أن يختار وحده نعش طفل (ابتداءً من متر)، من خشب الحور، بسماكة ثمانية عشر ميليمتراً. في المقبرة، أخذت السماء تمطر، وتشعثت تسريحات السيدات. أصبحتْ الدموع سوداء، زرقاء، خضراء، رمادية،

برتقالية، أرجوانية؛ كل مجموعة ألوان أحمر الشفاه. كانت وجوه النساء تشبه رسومات الأطفال: أشجار كسيحة، شباك عناكب، أشعة شمس، مطر أزرق، سنابل سوداء. ووُجِدَتْ ابتسامات، وبعض الضحكات، وما كان ينبغي له أن يكون حزيناً، أصبح خفيفاً ورشيقاً، كروح فتاة صغيرة. ماتت أختي أثناء نومها، ولم يستطع طبيب العائلة ولا الطبيب الشرعي أن يفسر سبب موتها. لعلها لم تعد تحب الخط البياني لحياتها، ولعلها أدركت أنها ليست سوى أحد جناحين، وأنه محكوم عليها الطيران في دوامة.

بعد المقبرة، جاء جميع الناس إلى المنزل. كأنه مشهد لفلليني. هؤلاء النسوة بوجوههن الملطخة. هؤلاء الرجال الشاحبين، المبللين والهزيلين. شربنا، وقضمنا حلويات من محل مونتوا، أطلقت الشمبانيا ألسنتنا وقَرَّبتنا.

ليس مؤسفاً إلى هذا الحدّ أن ترحل طفلة هكذا. سبع سنوات، تصوروا. ينبغي ألا يرى الأبوان أطفالهم يرحلون. والأخرى؟ الأخت التوأم؟ إنها آني، أليس كذلك؟ لا، آني هي التي لم تستيقظ. الأخرى هي آنا. كيف تَحَسَّسْتِ الأمر؟ إنهما متشابهتان كثيراً. هذا مرعب، ستحمل غياب أختها على وجهها، كل حياتها.

لم نقل إن أمي، عندما ذهبتْ في ذلك الصباح المشؤوم، استغرقتْ بضع دقائق لمعرفة أيهن ماتت؛ كانتا ترتديان المنامة ذاتها ولهما الأظافر الصدفية ذاتها والشعر الكستنائي ذاته. وفي تلك الدقائق من اللايقين غمرها كل رعب حياتها.

هجرتنا في المساء ذاته. تركتنا هناك، في منزلنا الكبير، في مطبخنا الأزرق، بين كؤوس فارغة ومنافض سجائر ممتلئة، وزجاجات شمبانيا وكحول، وعلب كرتون مبقعة بالدسم من متجر

مونتوا، وصناديق أحذية تشبه نعوشاً كرتونية صغيرة، مليئة بصور أختنا الصغيرة الميتة. تركتنا أمي هناك، مثل الكثير من الآنية في حوض المجلى، مثل الغسيل في سلة؛ لم تعد لديها القوة ولم يعد بمقدورها أن تحمل شيئاً. حاولَ والدي بكلمة، بإيماءة.

انتهى الأمر يا أندريه، انتهى، آسفة، لكن أنتَ... لا لا تلح، من فضلك.

حملتْ معها بعض الأمتعة. كُتُبُ ساغان. داعبتْ وجنتي وطبعتْ قبلة على جبين الناجية التي ذَبُلَتْ عيناها ولم تعد تتفوه بشيء منذ أن كفت قرينتها عن الاستيقاظ.

غادرتْ أمنا.

وهذا كل شيء.

أغلَقَتْ بعناية باب المدخل خلفها، كأنها أرادتْ لضجيجها الأخير أن يكون لطيفاً.

عندئذٍ قَرَّبنا والدي منه. جلس على إحدى آرائك الصالة، وهي من طراز لويس الخامس عشر، التي آثرت أمي أن تُنَجِّدها بقماش على الطراز العصري، بزخارف برتقالية. احتضننا. راح ينتحب بلطف. كان ضعفه يقتلني. بدأتُ فجأة أضربه، أضربه. لم يفعل شيئاً ليتجنب قبضتي. لا شيء، بل إن انطباعاً خاطفاً انتابني بأنه أحب لكماتي تحت تأثير الغرق. مكتبة الرمحي أحمد

الف وثمانمئة وسبعون مليار أورو

لكنك تتفهم كل هذه الفوضى يا أنطوان. لا يكاد يمر يوم دون أن يفرضوا عليك ضرائب جديدة. يجعلونك جيوباً. سروالاً داخلياً. هكذا. فسحة خالية. يتسللون. يجلسون على مائدتك مثلما أذهب إلى رجل يأكل بشراهة من صحنه لأن صحني فارغ. سترى يا أنطوان، سيفرضون ضريبة على الوسيمين لأنهم يثيرون الوهم لدى القبيحين، وعلى البدينين، انتبه، لأنهم يتغوطون أكثر من الآخرين. فالكثير من الغائط يعني الكثير من الماء. لأنهم يأكلون بشراهة أكبر. ولا يعود لأحد مكان. ثم سيفرضون ضريبة على الناحلين أيضاً، لأنهم لا يأكلون بشراهة كافية، لأنهم لا يستهلكون كثيراً. هذا يعني لو أنهم فرضوا ضريبة على الفرج، لحصلوا على المليارات. مليارات من العاهرات. هذه هي الحال هنا. أخبرني. لا يقتربون من الموظفين ولا سيارات الأجرة ولا المازوت، وعلى الأخص رواتب النواب وبطاقات ركوبهم الطائرة والقطارات، كل شيء مجاني. لا، إننا نحن الفروج. نحن الملعونون في العمق. حتى قاع حلوقنا. الصناعيون يحتالون، المخابر. ولا أحد في السجن. والأشخاص الذين اخترعوا الرادارات. وبالمقابل، لا أحد يستطيع اختراع شيء جميل مثل حبوب ضد البؤس الإنساني. ضد الحزن. ماذا سنفعل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ماذا تريد أن نفعل. هل نتمدد على الطرق المتحلقة؟ هل نمتنع عن دفع الضريبة؟ هل نحاصر الطائرات؟ هل نحتجز القطارات السريعة؟ في الحقيقة، يمكن في الصين فقط لرجل واحد أن يوقف رتل دبابات. إننا أشجار بلوط على الجوانب. أرهقونا بألف وثمانمئة وسبعين مليار أورو من الدين. ولا نتحرك. نصرخ، أصرخ، ولا نثير ضجيجاً. ولا ضرطة. هذا يثير جنوني. يجعلني أتغوط. تعال، يا أنطوان. سنشرب قدحاً.

إنه غابان(*) المتذمر، حين كان ف ف ف يغني بأعلى صوته. مع ذلك، كان يجعلني أبتسم، وكنتُ أشاطره غضبه، لكن لا شيء يخرج مني، لا الكلمات ولا الدموع. لم أكن أجرؤ البتة، لم أكن أجرؤ قط. كنتُ من أولئك الذين يُخَزِّنُون؛ نوع لا ينبس ببنت شفة عندما يختار سائق التاكسي الطريق الأطول، عندما تأخذ عجوز دوري عند صندوق المتجر بحجة أنها طاعنة في السن، وكما سائق التاكسي، تقبَّلني أيضاً.

يجد جبني جذوره في هذا الغضب الذي لا يخرج. أعرف أن الصفح لم يكن سمة إنسانية قط، ولا بد أن أقاتل، وأن أتجرأ وأعود حيواناً، وأعض، وأدافع عن نفسي؛ أو أن أقبل الاختفاء.

فكرتُ في ذلك أحياناً، أن أختفي.

وبما أنه لم يكن لدي عمل مستعجل، خرجنا لنشرب كأساً في فترة ما بعد الظهيرة. أمهاتنا يكتبن حياتنا كما تعرف. يوم اكتشفتْ والدة ف ف ف سبابة قفاز وردي منزلي في علبة معجنات، يومها

(*) جان غابان: ممثل ومغني فرنسي ولد في 17 مايو 1904 من أفلامه الوهم الكبير.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أغمي عليها فهرع ابنها معتقداً أنها ماتت، يومها رسمت طريقه، رغماً عنه.

إذا لم ننتبه، كان يقول، سنجد ذات يوم برازاً في كاتو الشوكولا، أو حصاناً في عجين لحم العجل.

بعد أن أنهى دراسة الهندسة، أصبح مستشار السلامة الغذائية بينما أسستُ نفسي كخبير في التأمين بعد ثلاث سنوات من دراسة القانون ودورة تأهيل قاسية في تقنيات السيارات. كان ف ف ف مقاتلاً صليبياً. أعطاه التاريخ هذا الحق: جنون البقر، ديكوتسين الدجاج، الحمى القلاعية، أنفلونزا الطيور، البكتيريا المعوية. كانت لدي أحلام جميلة حيال العالم، لكنني سأتركك تتخيل خيار العالم بين حلم وورقة نقدية من فئة العشرين أورو. هو كان مستقلاً، أما أنا فكنتُ أعمل لصالح شركتَي تأمين ضخمتين، وكنا نشغل مكاتب مشتركة؛ ووظفنا فيما بعد سكرتيرة بنصف دوام. وكنا أحياناً نشرب كأساً في فترة ما بعد الظهيرة.

جلب لنا النادل قدحَي بيرة كبيرين. شرب ف ف ف رشفة مديدة، ونظر إليّ بفضول، كما تعرف، كما لو أنه ليسَ هو بحق، ولستُ أنا بحق، وفي ضوضاء المقهى، في ضحكات الآخرين، في تنهيدات البعض، همس: هل رغبتَ من قبل في فقدان السيطرة على نفسك؟

بطاقتان للقهوة

في الثامنة عشرة من عمري، سعيتُ للقاء بعض الفتيات.

حلمتُ آنذاك بقصة حبّ مأسوية عظيمة. ثمة أمر جعل أمي وأبي يكذبان، وأيضاً جميع أولئك الذين يفترقون، والذين بافتراقهم يحطمون ويزرعون الجثث.

حلمتُ بحب خاطف ولا نهائي في آن معاً.

في ميدان التزلج، شاهدتُ صهباء متنكرة بشكل جميل. كانت براعتها على الجليد ترسم وهْمَ الرشاقة. فكرتُ في آلي ماكفرو(*) التي كانت هي أيضاً تتزلج، وتحب موسيقى موزارت وباخ وفرقة البيتلز لأغاني الروك وأنا. كانت شفتاي زرقاوين وأصابعي خدرة. كنت أدخن بوقاحة، مقلداً حركات أمي التي بدت لي حتى ذلك الحين موثوقة ومغرية. وطبقتُ أيضاً مهارة نفث الدخان بشكل حلزوني. وفقط بعد أن جالت سبعة وعشرين دورة في الحلبة، بدا أنها رأتني أخيراً. منذ ذلك الحين، عرفتُ حق المعرفة أن النساء لا يستسلمن البتة من النظرة الأولى. فهن يحتفظن بالمؤن. ويعاني الرجال من الجوع.

(*) آلي ماكفرو: ممثلة أميركية مشهورة ولدت في أبريل 1939، من أفلامها قصة حب وترشحت لجائزة أوسكار أفضل ممثلة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في كل جولة من الجولات التالية، وجهتْ لي المتزلجة ابتسامة؛ وفي الجولة الخمسين، خدشتْ زلاجتاها الجليد وتسببتا بنشر جناحين من الرذاذ خلفها. توقفتْ أمامي فجأة. وفي هذه الحركة كانت ساحرة. فات أوان التراجع إلى الخلف. وها هي غادرت الحلبة الجليدية لترافقني. لذلك اشتريتُ بطاقتين لآلة القهوة.

أصبحنا خارجاً بعد خمس دقائق، في الشمس، مع مشروبنا، بضع دقائق أخرى، وتذوقتْ ألسنتنا بعضها البعض، بطعم مزيج قهوة الموكا-جافا، كان لسانها حلواً على نحو لا يصدق، وفمها حاراً، وأصابعها ندية، عندئذٍ تخليتُ عن رغبتي بقصة حب مأسوية، خاطفة ولانهائية، ورغبتُ فجأة بالجسد والثقل. انتابتني رغبة بما يجعل الرجال مجانين. قتلة. دسستُ يدي تحت كنزتها؛ فلم تقاومها. ظهرها. العمود الفقري المقعر. حبيبات بشرتها. شاماتها. حمالة نهديها التي ترسم دوائر. كافحتُ لفكّ الخطاف. كانت أصابعي تكد. فجأة، ضحكت. **إنه من الأمام أيها الأحمق!** كان ينقصني أخ أكبر، شقيقات أحياء توأم، أب وأم ليطلعوني على هذه الأسرار، ليعلّموننني كيف أصبح رجلاً قوياً وقاسياً وفاتناً. هربتُ، ولم تتصل بي.

كما تعرف يا ليون، لم أترك لها حتى اسمي.

ثم أمضيتُ حيناً من الزمن مع دجاميلا. صادَفْتُها في حفلة نظمها ف ف ف بمناسبة بلوغه سن الثامنة عشرة. كنا نلتقي في حجرة نوم طلابية (هي في كلية الآداب وأنا في الحقوق)، نتحدث قليلاً، مفرداتنا هي الفعل، إنها الحب وممارسته، التأوهات، إنشاب الأظافر. كنا مستلبين لها. كان ذلك بلا حنان ولا حياء. كان ساحراً. الأشياء التي تثير الرجال؛ الظلمات، إخفاقاتنا. علمتني

تلك النشوة التي تفتن النساء. لم أتنشق من قبل سواد الدروب المسدودة المدلهم، لم أرَ من قبل الجسد الوردي وتلألؤه، ولم أنتشِ من قبل بمثل ذلك الثمل. كنا لحماً وهذا حسن. كنا نُلَمِّعُ بشرتنا الميتة، إنسانيتنا المتواضعة، آلام طفولتنا. وعندما أنهكنا ابتذال بحثنا ذات صباح، انفصلنا، دون أي أثر للحزن بيننا، نظرة عذبة فقط، وتباشير وداعة ممكنة. افترقنا بتلويحة يد. جملة أو جملتان. «حظاً موقفاً في الحياة» «ولك أيضاً» قلتُ لها «كوني سعيدة» كما أعتقد، ابتسمتْ وقالت «حسن، حسن، سلام» وغادرت.

عثرتُ فيما بعد على كتاب موديانو الذي نَسِيَتْه. لم أزل أقرؤه. إنه صورتي الفوتوغرافية الوحيدة لها. وبعدها وُجِدت «ليالٍ أخرى جميلة تمضي»[1] من بينهن، هنالك أمك يا ليون، وهنالك ناتالي. عندما التقيتها، ظننت أنني عثرت على الحب.

---

(1) ألفريد دوموسيه، نزوات ماريان.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

ثلاثمئة فرنك مرتان

أرسلنا والدي لاستشارة طبيب نفسي بناء على نصائح المرأة التي ستغدو زوجته، فهي سكرتيرة في عيادة أسنان - ويمكنك أن تثق بي يا سيد أندريه في هذا الشأن، فأنا أعرف الوسط الطبي حق المعرفة.

منذ اختفاء أمنا وأختنا المتزامن، لم تتلفظ آنا بأية كلمة ولم أنفك من جانبي عن السخط على والدي. لم أعد أضربه. أصبحتُ الآن ألكم جدران غرفتي، هؤلاء الأشرار المباشرون، الذين يسببون ازرقاق يدي. ورحتُ أوازن ضربات قدمي على دراجتي، لألقي الحصى أحياناً على النوافذ، والأشياء على الأرض، فتتكسر، صورة زفافهما بالأبيض والأسود مع إطارها، وآلة الأسنان، وساعة يدي. كنت أريد آنذاك أن يتوقف الزمن، أن يُجَمِّدَ إلى الأبد نضارة وجهيهما وخفة عطريهما ولون عيونهما وتورد شفاههما الفاتح. كنتُ أخشى الرعب الذي يسمُ يوماً إثر يوم هذه النهاية البطيئة والصغيرة للعالم: أن تختفي تماماً أحاسيسي عنهما، ألّا يبقى لي شيء حي منهما، فكرة مجردة فقط، بلا أي جسد. بلا أي شيء.

لم يكن الطبيب مزعجاً. ثلاثمئة فرنك مقابل مرتين، مرَّرَ إلينا، أنا وآنا، مجموعة روائز، أن نملأ استمارة أسئلة عن قلق الانفصال

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وعن حزن الحداد. طلبَ منها رسوماً ليفكِّك فيها رموز حزننا وطلب تمارين لقياس غضبنا - وعلى الأخص غضبي.

طرح مئة سؤال ليحدِّد أفكارنا. تخلصتُ من ذلك بتناول مضاد للاكتئاب، نصف مضغوطة في اليوم عيار 5 ملغ في المساء، وزيارتان أسبوعيتان إلى الطبيب النفسي. قال: ستحتاج إلى وقت.

بواسطة الأقراص، لَبَدَ غضبي في جوفي ولم يعد يخرج.

أرسلوا أختي إلى طبيب النطق، مرتين في الأسبوع هي أيضاً، وإلى طبيب عظام، من أجل أن يدغدغ لها في مثل حالتها العصب الفموي والعضلة الجناحية وحفيرة الفم ما تحت اللسان.

رافقتُ آنا إلى طبيبها في موعدها الأول. ولم نكد نخرج من منزلنا، الذي أصبح موحشاً من الآن فصاعداً، حتى أمسكتْ يدي. يدها الصغيرة في يدي الكبيرة. تسارعتْ دقات قلبي. وطيلة تلك السنوات، لم تهتم، لا هي ولا آني، لأمري ولم تُقَبِّلانني. كان عالمهما مختلفاً، ما عدا بعض الحنان أحياناً، المتبادل مع أمنا. أو بعض المخاوف التي كانت أمنا تهدئها بمداعباتها.

توقفتُ لأنظر إليها، فرفعت عينيها الخضراوين الجميلتين نحوي وابتسمت لي. إنها في سنّ السابعة فقط. لم أرها من قبل بمثل هذا الجمال. اعتصرتْ يدها الصغيرة يدي بقوة. وفي تلك اللحظة عرفتُ أننا أصبحنا صديقين.

أنا سعيدة أنت لي.

لم تعُد تتلفظ إلا بكلمة من كل اثنتين.

خمسمئة وستون أورو

لم يمضِ وقت طويل حتى تلقيتُ تهديدات. ليست تهديدات مباشرة. وليست كما يحدث في فيلم حين يقترب منكم متشرد بقبضة متوعدة: سأقتلك في المرة القادمة. لا شخص دنيء. خدوش على السيارة. براز كلب كما أفترض، في صندوق بريد المكتب. خربشات على الباب. هيكل جمجمة. أشياء من هذا القبيل. كنتُ أشتبه بشخص، لكن لا يسعني فعل شيء. أصرَّ ف ف ف على مرافقتي إلى قسم الشرطة لتقديم شكوى.

أسرَّ لي معاون العريف، لن نحقق يا سيدي، لدينا ثمانمئة شكوى لم تعالج، وضعنا كاميرات في كل مكان ولم نفلح في القبض على المخربشين، ولا على لصوص الحقائب، وسارقي الساعات. الشر يتطور. إنه مستتر. أفعى. نصل دوماً متأخرين وحين نصل يقذفوننا بالبلاط والشتائم. لا، لن نجري اختبار الـ ADN على الكلب الذي تحدثني عنه. ليس لدينا خبراء ميامي، هنا قسم شرطة منعزل، حاوية قمامة لبؤس الرجال يا سيدي. إطارات مسروقة، دراجات نارية مفكّكة، نساء ذليلات، شجارات سكارى، أطفال محروقون في مفاصلهم. أحببتُ فكرة أن أصبح حارس السلام، تخيل ذلك، حارس السلام، وها هي الحرب في الخارج، لكنني لم

أعد أحرس شيئاً البتة، ولا حتى أوهامي. توارى كل ذلك. هذا يعني أنك إن كنتَ لا تزال تريد تقديم شكواك، فلا يسعني أن أمنعك. سأنادي لك متدرباً وسيملأ لك الأوراق. سيستغرق الأمر زمناً، حاسوبنا معطل.

أبديتُ استنتاجاتي في شأن الصدمة المفترضة: بعجَ شخص سيارته أثناء توقفه على الإشارة الحمراء وإضافة إلى الأضرار في الجزء الخلفي من السيارة صار يشكو من ألم في عنقه. إصابة الرقبة الشهيرة برقبة الأرنب. الملف يقدم كما يلي: عجز كلي عن العمل لمدة سبعة أيام (دون التوقف عن العمل)، تعطل ونسبة AIPP (أضرار سلامة جسدية ونفسية) 2% إجمالي مجموع التعويضات الكلي سبعة آلاف أورو. كانت سيارة الضحية من نوع «فولفو S70» موديل عام 1998. حزام الأمان في هذه النماذج له ثلاثة ثقوب ويشد في حالة الصدمة فوراً، أي لا يوجد أثر للرخاوة قبل التثبيت، ما يعني أن الجسد لا ينقذف، قبل أن يشده توتر الحزام بقوة إلى المقعد. ولا تترك آلية عمل مسند الرأس عملياً أي مسافة فارغة بين المسند ورأس السائق، لكن حسن. الرجل يتألم. مع ذلك تمنعني مهنتي عن الرأفة، وقررتُ أن أراقب جدول أعماله بواسطة مخبر خاص - سبعون أورو في الساعة. بعد جولتَي مراقبة مدتها أربع ساعات، أحضر كليشيهات فوتوغرافية يظهر فيها أرنبي الصغير بوضوح في صحة جيدة، وهو يرقص في ماكومبا بصحبة فتاتين شابتين. أراه بوضوح شديد؛ رقبته متحمسة، ماهرة في البريك دانس. صور رائعة. رفضتُ ملف تعويضاته وتلقيتُ براز الكلب.

سيتحسن الأمر، لن أتقدم بأي شكوى في النهاية.

عند عودتي إلى منزلي، سكبتُ قدح نبيذ كبير. كنت أغلي.

وغضبي يزمجر. لم يعد يخرج منذ أن بدأتُ بتناول الفاليوم في مراهقتي، وكان يظل لابداً في كرشي. أخذ سرطعاني الصغير في داخلي يتحكم بي تدريجياً. وددتُ لو كنتُ قوياً، لو استطعتُ الذهاب لضرب الراقص، وأن أكسر أسنانه، وأقصف رقبته، وأطعمه براز الكلب. البراز لكل أولئك الذين يشيعون الفوضى في حياتنا. بدهاء. في سياق أخطار جثة رائعة.

المغفل الذي يرتد عليكم فجأة.

بائع السمك الذي يقسم أنكم أعطيتموه ورقة نقدية من فئة العشرة وليس العشرين.

النبيذ المفلَّن الذي دفعتم ثمنه غالياً.

العزيزة ناتالي التي وجهت طعنة سكين ذات يوم.

لكنني لم أكن أستطيع. لم أفلح في ذلك. كانوا يؤذونني، وكان عليّ أنا أن أقلق. دخنتُ كثيراً، وأفرطتُ في الشراب تلك الليلة، في صمت شقتي. تمنيتُ لو كنتما موجودين، جوزفين وأنت، لكنت طلبتُ منكما المغفرة، ولغفرتُ بدوري للكيميائي الذي لقحني بضعفه، لكن المغفرة ليست من شيمنا، كما تعرف.

هدَّأ الكحول من غضبي. واستعاد جبني الوراثي سطوته.

في تلك الليلة.

جميع دحلاتي

أعرف أنك لا تكلمني كثيراً. أعرف مقدار حزنك، وشعرتُ به نفسه في مثل سنك ولم أزل أشعر به اليوم أيضاً. كنتُ أضرب وسادتي، أقضم أظافري. حتى يسيل الدم. كنتُ أرمي دحلاتي الشريرة الكبيرة، بعد مبادلتها بكل دحلاتي الصغيرة، على نوافذ السيارات والمنازل؛ كنتُ أحب صوت الزجاج الذي يتحطم. كنتُ أشعر بالشعور ذاته. كنت أخاف مثلك. يوم ألم يمحي ألف يوم سعادة. هذا ظلم. كان يجب أن نسهب، أنا وأنت، في تبادل الأحاديث، وأن نتعارف على نحو أفضل. أنت صبي ذكي ولبيب. كما تعرف، ذات مرة سألتُ والدي عن سبب تساقط المطر. رفعَ رأسه إلى السماء وهزَّ كتفيه كما لو أن سؤالي كان غبياً. إنه كيميائي، وأعلم أنه يعرف هذا النوع من الأمور، ويعرف أيضاً سبب العواصف والمدّ والجزر. لكنه لم يُجبني. بالتأكيد كان ذهنه مشغولاً جداً، أو أن سؤالي هو عودة إلى تسوُّل الحب؛ وهو ما كان يرعبه. إنه سؤال صعب يا ليون، وقد بحثتُ عن جوابه، تحسباً ليوم ستسألني فيه، أنت أيضاً، عن سبب تساقط المطر. لكنك لم تطرح عليّ هذا السؤال قط.

بقيتُ أنا وعمّتك مع أبينا. لم يكُن يعرف تحضير العجة، ولا

رغوة الشوكولا، ولا جَدْل ضفائر آنا ولا حتى تشغيل الغسالة. استخدم خادمة مياومة وبعد ذلك، امرأة، بدت امرأة بالنسبة له وخادمة بالنسبة لنا. لم نكن نُكثر من الأحاديث بيني وبينه، كما بيني وبينك.

أعرف أننا حين نشعر بالحزن لا نلتفت البتة إلى أولئك الذين يمكنهم مواساتنا. وهذا ما يزيد الحزن. نعتقد أننا ولدنا في العالم لأن أبوينا أحب أحدهما الآخر ونكتشف أنهما لم يرغبا بنا ما يكفي لبقائهما معنا. أن نشب، يعني أن نكتشف أننا لم نكن محبوبين إلى ذلك الحدّ. هذا مؤلم. أنا أيضاً حزين على أمي، حزين لأننا لم نعُد أسرة، ولأنّ الأمر حدث على هذا النحو، حزين لأنني رأيت أنْ لا شيء يدوم إلى الأبد. لأن الحب أيضاً هش. لو تعرف كم أنا متعب يا ليون، وكم أشعر بالحزن، هذه الليلة، بسبب الأمر المرعب، بسبب ما أنا بصدد فعله.

وإذاً. عندما يتبخر الماء بتأثير الشمس، ينتقل من الحالة السائلة إلى الحالة الغازية، ويصبح أخف من الهواء، فيطير ويشكل الغيوم. وعندما تنتقل الغيوم إلى أعلى مقتربة من درجات الحرارة الأكثر برودة، يتكاثف الماء ويعود إلى الحالة السائلة: وهذا يسبب تساقط المطر.

هذه هي الإجابة يا ليون.

لكن ثمة إجابات أخرى أودّ أن أقدّمها لك وأعتقد أنها الأصوب. مصدرها الماوري. في بداية خلق العالم، كان رانجينوي وباباتينيكي - أو رانجي وبابا - يعيشان متحاضنين على الدوام، وبذلك حكما على أطفالهم أن يشبوا بينهما في مكان ضيق، في

الظلام، لكن هذا لم يرق لابنهما تان، فاستلقى ذات يوم على ظهره، ودفع بابا بذراعيه ورانجي بقدميه، حتى فصل بينهما.

رانجينوي أصبح الأب السماء، وبابا تينيكي الأم الأرض. أما المطر، فهو حزن رانجي الغامر.

كرتان

أتذكرُ فرحنا حين ولادتك. جئتَ بعد ثلاث سنوات من جوزفين. حظيَتْ ناتالي، كما يبدو، بحَمْلٍ جديد موفق. لم تعُد تخرج فترة ما بعد الظهيرة في الأشهر الثلاثة الأخيرة، وصارت تفضل الهدوء، وبرودة المنزل. قررتْ في الأسابيع الأخيرة إعادة طلاء المطبخ والغرف. كنا نشبه آنذاك عائلة مثالية صغيرة تصورها المجلات، راحة وردية. في صور تلك الفترة، تظهر جوزفين وهي تضع القطائف المخملية في سرير أخيها الصغير المقبل. تعانقُ جوزفين بطن أمها الكبير. ترسم جوزفين، تلون، تُحَضِّرُ ألف هدية للقادم الجديد. تصنع جوزفين شجرة كمثرى في الصالة. تلعب دور الأم مع دمية. جوزفين جميلة. تزرع ناتالي بصيلات الزنبق في حديقتنا الصغيرة. تُظْهِرُ ناتالي وهي تضحك نهديها اللذين تضاعف حجمهما ثلاث مرات. ترسل ناتالي قبلة إليّ. أبي يبتسم في مطبخنا، زوجته تمسك يده؛ كانت ناتالي قد أعدت سمكة قاروس برقاقة الملح والزعتر، وكانت السمكة ناضجة أكثر ممّا ينبغي. لا أرى في الصور طهو السمكة. لا أرى الكذابين المجاملين: القاروس رائع. أرى سيارتنا الجديدة. أرى نفسي، أنا الأبله، بجانب السيارة الجديدة. أرى دراجة باربي ذات العجلات الثلاث. أرى جوزفين

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وناتالي في حوض الاستحمام. أرى آنا وزوجها توماس في حديقتنا الصغيرة، قرب زنبقة ذابلة. لا أرى أكاذيب. لا أرى الطفل الذي لم ترغب ناتالي بالاحتفاظ به قبل عام لأنها لم تكن تعرف هل ستحبني دوماً. لا أرى ذلك الحب، الخاطف واللانهائي، الهائل والتراجيدي. لا أرى دموعي آنذاك. ولا لياليَّ على الأريكة آنذاك. المعاناة التي تنبثُّ آنذاك. الأصهب الذي كان يستيقظ. لم أكن أرى إلا السعادة.

خمسة أورو وسبعون سنتيماً

تلاشت ضحكته. واستحالت خضرة عينيه كلياً إلى اللون الرمادي. اختفت نعومة يديه وأصبحت بشرته ميتة. ومن حين إلى آخر، يظهر طوق من العرق على جبينه، يحرق كالأسيد. سبق أن فقد بعض وزنه. كانت شفة زوجته السفلى ترتعش، دون أن تستطيع التحكم بها، نوع من العَرَّة، من الهلع، صرخة تأبى أن تخرج. كان ألم أحدهما يوقظ الخوف في الآخر. وبعد بضعة أسابيع، أصبح والدي كئيباً. سَكَنَهُ عجوز.

صار جسده ضعيفاً للغاية بسبب الأقراص التي يعطونها له وغدا جسده أهزل من أن يَتَحَمَّلَ علاجاً كيميائياً حقيقياً هذا ما قالته لنا طبيبة الأورام امرأة رائعة تكرس نفسها للإصغاء آه يا أنطوان ما أبكاني لن يسعك أن تعرف لكن وجوده هنا معي أفضل من وجوده في المشفى يشاهد أهوالاً في المشفى ويُفَضَّلُ في حالته أن يرى الأشياء جميلة أضع له مسرحيات موسيقية تريحه المسرحيات الموسيقية وينتهي الأمر على ما يرام عموماً وها هو مفعم بالألم.

كانت زوجة أبي تغرق بعذوبة. وهو يطفو في أكاذيبها. هذا ليس شيئاً مهماً. إنه سهل، طالما اكْتُشِفَ مبكراً. ليس ثمة ما يدعو للقلق.

كانت شفتها السفلى تتخبل. شعرتُ بالأسف حيالها. أذكر أننا كنا، أنا وآنا، شريرين حين أقامت في المنزل، وأنها ملأت بأمتعتها خزانة ملابس أمي، عندما شَغَلَتْ نصف المغسلة، عندما أَنْزَلَتْ إلى القبو أعمال كارينبال، وأبقتْ أعمال بارجافال وساغان هنا. كنا في بعض الأمسيات نصغي إليها من خلف الباب وهي تنتحب. كانت دموعها هي انتصاراتنا الطفولية. وحين كان أبونا ينفرد بنا، يرجونا أن نكون لطيفين معها، وأن نمنحها فرصة، كنا نفر ونحن نصرخ: أبداً! أبداً! نريدها تعيسة لكي ترحل، نريدها أن تموت، نريدها ألا تبقى هنا، وألا يظلّ أثر لها حتى عودة أمنا، لكن إحداهن بقيت والأخرى لم تعُد قط.

منذ اختفاء أمنا، بدأ أبي يحب البيرة. كان يشربها بصمت مساءً في المطبخ الأزرق حتى تسيل دموعه. كنا، أنا وآنا، نراقبه أحياناً، ونحن نجلس على الدرج في العتمة، مرتدياً منامة، وكنا نحن أيضاً نبكي. وأحياناً كانت يد أختي الصغيرة تندس في يدي. كانت تقول: أقسم سأستيقظ. وأحياناً: لماذا آني لا راح أبي ينام في بعض الأمسيات على طاولة المطبخ، ورأسه في الصحن. وحين نستيقظ في الصباح، لا يكون موجوداً هناك. فنمر من أمام متجر لابشان قبل المدرسة لنتأكد أنه موجود، وأنه لم يزل على قيد الحياة، ونجده هناك، يتباهى أمام الوحيدات، الملطخات، الأرامل، مُظهراً لهن فعالية تراكيبه.

ثم دخل القميص الحريري وصدرها الجميل حياتنا. توقف أبونا عن شرب البيرة، ونام في سريره وفي المطبخ أيضاً. جعلته يقلع عن التدخين. عن البطاطا المقلية. عن شرائح لحم الخنزير. عن الأغنام. عن زيت النخيل. عن الحليب كامل الدسم. عن

الشوكولاتة. لم تبرع بغير ذلك، فقد أرادته على هذا النحو لزمن طويل. حددت اللانهاية منذ البداية وهي تبتسم وتحلم؛ وهذا قبل كل شيء.

استمرت اللانهاية ما يقارب الثلاثين عاماً وانتهت إلى الماء. دموع وعرق وبول ولعاب. القبح يعقب دوماً الجمال. ولن يبقى شيء جميل أبداً.

لم أحظَ قط بابن لكن منذ أن مرض والدك تولَّد لديّ انطباع بأن لديّ ابن هذا مثير للسخرية هذا الشعور أعتقد أنني أقوم بالكثير من الأشياء حتى لا أغدو منسية لكنني أظن أن هذا ليس حقيقياً فأنا دوماً وحيدة وهذا ما يجعلني حزينة.

فتحت ثلاث زجاجات بيرة لايف من أصل ست كنت قد جلبتها، خمسة أورو وسبعون سنتيماً لنشوات صغيرة.

لستَ ملزماً يا أنطوان.

بلى، بلى، هذا حسن جداً، قال والدي، حتى المرحلة التي وصلنا إليها.

رفعنا أقداحنا. نخب المسرحيات الموسيقية. نخب انتشار المرض. نخب الجو الذي ينتعش. رفعنا أقداحنا نخب أي شيء.

كانت الحياة تنسلّ بين أصابعنا.

فرنك واحد

يسعدني أنك لي.

ابتسمتُ حين قالت لي ذلك. التمعتْ عيناها الخضراوين. هذا شيء جميل ولا بد، مشرق. تعميد صداقتنا. علاقة بين ناجين لا تنفصم عراها أبداً. يسعدني أنك طبيبي. لا يسعدني أنك ترافقني. لا لا يسعدني أنك أخ لي. أجل. أجل. أجل. كانت قد نظرت إليّ بشغف. فشعرتُ بسعادة غامرة مفاجئة. انمحت سبع سنوات من اللامبالاة المهذبة، وأصبحنا صديقين، لا غنى لأحدنا عن الآخر، لن تعود تخاف، ولن تعود تشعر بالبرد.

يسعدني أنك أخٌ لي.

ويسرني أنك أختي يا آنا.

لقد أعطتني المفاتيح، وصرتُ وحدي أفهمها. لست بحاجة، مثل الآخرين، إلى تخمين فرضيات، إلى تقديم كلمات ناقصة، إلى الانزعاج أحياناً. حين تتكلم أصغي إلى قلبها. أقسم سأستيقظ: أقسم لك أنني سأظلّ أستيقظ. ولماذا آني لا: لماذا آني ولست أنا. أنت أننا أمي: أنت تعتقد أننا سنرى أمي مرة أخرى.

يومئذٍ، انتظرتها حتى خرجت من جلسة العلاج الأولى عند

طيب النطق. اشتريت لها مالابار بفرنك من المخبز، أي خمس قطع لبان وردية بلون غرفتها ذاتها. من قمة أعوامي الاثني عشر، كنتُ مقتنعاً أن الكلمات الناقصة ستعود إنْ مضغت ولاكت وعلكت. لكنها ستبقى حبيسة في حلق أختنا الصغيرة الميتة. تنطق كلمة من كل اثنتين: **شكراً أنني غبية**، قالت وهي تبتسم حين قدمتُ لها المالابار. شكراً لكنني أعتقد أنني سأظل غبية. شعرتُ فجأة بالخوف عليها. أي أصدقاء ستحظى بهم فتاة لا تنطق إلا نصف الكلمات؟ أي فتى وسيم ستحظى به يوماً؟ أي خطيب لطيف؟ أي قصة حب حين تقول **أنا بك** بدل عبارة أنا أرغب بك؟ **ولا تترك** بدل لا تتركني أبداً **وتعال ني** بدل تعال إلى أحضاني؟

وكيف سيجري الأمر عندما تهجر شخصاً بعبارة أحبك وهي تعني لم أعد **أحبك**؟

حين وصلنا إلى المنزل في ذلك المساء، كان أبونا ينتظرنا في المطبخ. اشترى كاتو من محل مونتوا، وسلطة ومكسرات من محل فيربري، وآيس كريم، أرادها أن تكون أول وجبة عائلية من دونهما. قربان مقدس متواضع. أصبحت عيناه حمراوين، وبات الأخضر مبتلاً الآن، وانتصر الطين. حاول أن يجعلنا نبتسم. تحدث عن الصيف القادم، وسألنا أين نحب أن نذهب. ركوب قوارب. تسلق. بلد أجنبي، ربما، المكسيك أو غواتيمالا كانت أسماء البلدان لوحدها هي رحلات. نانواتو. زنجبار. أتريدان أيضاً كاتو؟ إنها لذيذة وخفيفة الدسم. لا يضع محل مونتوا الكثير من الزبدة. هل تعرفان أن الزبدة تذوب في الدرجة ثلاثين؟

وعندما فتحت آنا فمها أخيراً، **هذا يفيد شيئاً، ليس الكاتو**

هم، الذي من وإلى من المنزل، سباقات الدرج، ليس الذي أيضاً أسرة، ليس الحب، لم يفهم شيئاً. عندئذٍ ضغطتُ على يد أختي تحت الطاولة؛ أصبحنا وحيدين.

مئتا أورو زيادة

- لكنك، لكنك، لا تصغي. أقول لك إنها كالجديدة.
- جديدة؟ سيارة من عام 1985؟
- بالضبط. من مارس 1985. اشتريتها في أونينغ. صنتها على أكمل وجه. ولا خدش. ولا بقعة صدأ يا سيدي. ولا لطخة.
- سيارة جديدة عمرها اثنان وعشرون عاماً في الواقع. أفهم أنها تهمّ اللصوص.
- وأيضاً عداد المسافة فيها قليل جداً. كنت أستقلها كل صباح للبحث عن خبز. ويوم الأحد، أذهب في نزهة طويلة. باستثناء أيام تساقط المطر. هذا كل شيء. أجل، اضطررتُ ذات مرة للذهاب فيها إلى باريس عندما ييفيت، ييفيت هي زوجتي، أصيبت بتلك الوعكة في القلب. متلازمة مارفان.
- آسف يا سيدي.
- مع ذلك ألفا أورو. أجدها قاسية.
- إنها ألف وثمانمئة يا سيد غرزيسكوييك.
- غرزيسكوياك.
- غرزيسكوياك. ألف وثمانمئة وزدتُ عليها مئتي أورو، بسبب عداد المسافة القليل فقط.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

- لكن ماذا تريدني أن أفعل بألفي أورو؟ لا توجد سيارة جديدة بهذا الثمن. أريد الفوغو. إنها سيارة GTS. صفراء. هذا كل شيء.

- أفهم. لكنني لستُ ديفيد كوبرفيلد.

- ومن هو؟

- لا شيء. إنه ساحر. ما أريد قوله لك يا سيد غرزيسكوييك - واك، هو أنني بذلتُ ما بوسعي لتعويضك. أخذتُ أعلى سعر ممكن في جدول الصرف، وزدتها مئتي أورو.

- لستُ عديم التهذيب ولا أظن أنني تواقحتُ من قبل يا سيدي، لكن يمكنك أن تضع الألفي أورو في مؤخرتك. كانت لدي سيارة كأنها جديدة، لم يعُد لدي سيارة الآن ولن يسعني شراء سيارة أخرى مستقبلاً. أنت محدود الإدراك، رثّ، بلا رحمة. روث ماعز. روث ماعز كبيرة. يعاني الناس من حولك وأنتَ لا تفعل شيئاً. تغرقهم أكثر. أتمنى لك أن تمشي مفرشخاً كالبطة. أسعدت مساء يا سيدي.

حياتي سيرة يطول شرحها.

عشرة أرقام

أصابَ النحول جسدي. وصرتُ بحاجة إلى بناطيل جديدة، وبضعة قمصان. سَخِرَ ف.ف.ف، أصبحتَ خبيراً الآن ولم تعد طالباً، يجب أن تكون من الصفوة. ذهبتُ عصر يوم سبت في الربيع. ثمة ازدحام، نساء وأطفال وطوابير في كل مكان، أمام صناديق المحاسبة، أمام مقصورات القياس. جاء دوري أخيراً. جربتُ في المقصورة البنطلونات. بدا لي أحدها مناسباً، لكن ما يلزمه كفّ الحاشية. خرجتُ من المقصورة لأبحث عن البائعة. وفي اللحظة ذاتها غادرتْ امرأة مقصورتها. كانت ترتدي ثوباً أبيض ضيقاً، ولم تفلح في إغلاق سحاب الظهر وحدها.

تشابكت نظراتنا.

شعرتُ على الفور بما يصعق الرجال. عين الأفعى الفاتنة. فريستها. شللي المفاجئ. نجوتُ من تلك النظرة التي ترسم جزيرة أنا في مركزها.

تشابكت نظراتنا، وشعرتُ لأول مرة في حياتي أنني موضع طمع ومحطّ رغبة بحيث أنّ زهدي بنفسي لم يعُد يبدو لي شكلاً من الجبن وإنما من الحب.

تشابكت نظراتنا، واقتضت غريزة البقاء أن أتلاشى فيها؛

وراحت تعدُني بنشوات مقبلة، تلك الوعود التي تجعلنا بالضبط ننجو من كوارث الطفولة.

عندئذٍ، تجرأتُ للمرة الأولى.

مددتُ ذراعي. بسطتُ يدي. رفعتُ السحاب. أخذتْ أصابعي ترتعش لأنه لم يسبق لي أن قمتُ بهذه الحركة. كانت بشرتها ناعمة، بلون كاراميلا فاتحة. لم تتأمل نفسها في المرآة وسط المقصورات، وإنما نظرتْ إليَّ أنا. استدارتْ جانبياً وهي تروز نفسها على صفحتي عينيَّ الصغيرتين. إلى اليمين. إلى اليسار. اتخذتْ وضعية ظبية، سوَّتْ أكتاف الثوب على مرآة عيوني، ونظرتْ في نظرتي. أشياء لا تصدق. هي. الثوب. ابتسمتْ، أمسكتني من كمي، وسحبتني إلى مقصورتها. هناك، رفعتْ ذراعيها، فتحتْ السحاب على امتداد عنقها، أنزلته حتى منتصف ظهرها. وتجرأتُ مرة أخرى. تابعتْ حركتها. حركة خفيفة من الكتفين، ثم الوركين، وتركتْ ثوبها ينزل على الأرض. حلقة بيضاء، خاتم خطوبة. كان صدرها جميلاً. شاحباً وثقيلاً. جسد رشيق. ارتدتْ ثوباً آخر، أسود هذه المرة، ونظرتْ إلي وأنا أنظر إليها. ساحرة. خلعتْ ثوبها من جديد. هذه المرة تنورة. تنورة رصاصية، بلون أزرق برليني. ارتعشتُ حين أدارتْ التنورة، المزررة على الجانب، حول خصرها. زوبعة. بطءٌ مدوخ. وضعتْ يديها على وركيها، وظلّت نظراتنا متشابكة. صار بوسع الأفعى أن تعضّ، لا يهم، كنتُ سعيداً. ثم قالت لي شكراً، بصوت عذب توشيه الجدية.

سآخذ الأسود وأنتم، سيناسبكم أن تأخذوا اللون الأخضر الغامق.

ابتسمتْ. خفضتُ بصري إلى بنطالي ذي الساقين الطويلتين أكثر

ممّا ينبغي، كأنني صبي صغير في سن الخامسة والعشرين يتحسر. عندئذٍ أتيحتْ لي. لكننا في منزلنا لا نتسرع. لم نتعلم العجلة والمبادرة. ننتظر دعوة فقط، وأحياناً استدعاء. عدتُ إلى مقصورتي، مرتعشاً، وجلستُ لبضع دقائق على مقعد صغير. بعد لحظة، اندستْ يدٌ بلون الكراميلا الفاتح، ساعدٌ زاحفة، بين ثنايا الستارة، وتركتْ أصابعها قصاصة ورق صغيرة تسقط. عشرة أرقام. ارتديت بنطالي من جديد بأقصى سرعة، كدتُ أن أسقط، وتركتُ جميع الملابس في المقصورة.

كنتُ قد التقيتُ للتو بناتالي، أمك.

لكنها، بالتأكيد، كانت قد اختفت.

ثروة

كان أبي يسرِّب لنا أخباراً عنها.

إنها بخير. وجدَتْ عملاً. نحن تطلقنا.

طفرتْ الدموع من عيني آنا، واغرورقت عيناي. طلاق. كلمة أوقعتْ فجأة ثلاث ضحايا. الأم. الطفولة. اللقاء. صار علينا بعد الآن، أنا وأختي، أن نشبّ بسرعة.

تسكن في بانيوليه، قرب الطريق المتحلق، تقول إنها سعيدة بعملها، وأنها حظيتْ ببعض الأصدقاء. تفكر فيكما. هل سنرى بابا؟ ترجمتُ. متى سنراها يا أبي؟ لستُ أدري، ليس في الوقت الحاضر، ما زالت بحاجة إلى أن تكون لوحدها. لكنها ترى أصدقاءها ولا ترانا؟ لا أدري يا أنطوان، لا تسألني عمّا لا أعرفه.

تركَ خاتمُ الزواج الذهبي حفيرة حمراء على بنصره الأيسر، مثل ندبة حرق، كنتُ آمل بكل كياني أن تؤلمه، تؤلمه بشدة، وأن تتعفن إصبعه، وأن تؤول إلى السقوط، وتُصاب ذراعه بالغرغرينا ثم قلبه. يشقُّ على المرء أن يشبَّ دون أمه. يشبُّ معوجاً. يغدو أشواكاً.

في أحد أيام السبت، وبعد جلستينا عند طبيب النطق والمعالج النفسي، تمشيتُ مع آنا إلى المحطة بدل العودة إلى المنزل. مررنا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

أمام البالاس، أمام ملصق إعلاني كبير يصوّر آخر فيلم مع نهدي إيدوج فينش، ودلفنا إلى بهو المحطة المُعَرَّض للرياح. حَمَيتُ آنا من بعض الأيدي المنتفخة، لمتسكعين وبائسين، من أيدي لصوص الأطفال، ذلك أنني لم أكن قد نسيتُ مأساة الطيار الأميركي. انتظرنا أمام الكوة لنحصل على الجواب أخيراً.

كامبري باينوليه، ثمة تبديل في محطة دوي، في باريس، محطة غار دو نورد، تستقلان الباص رقم 26 إلى بورت دو باينوليه، ثم ستتولى سيقانكم الأمر. هل لديكما بطاقة أسرة كبيرة العدد؟ لا إذاً سيكلفكما ذلك مئتين وخمسة وعشرين فرنكاً ذهاباً وإياباً. لكل واحد.

مئتان وخمسة وعشرون فرنكاً، إنها ثروة، عشرة، أو ربما أحد عشر كتاباً لساغان، مئتان وثمانون إصبع شوكولاتة «مارس»، خمسمئة وخمس علب «جيتان» بدون فيلتر. أخذت أصابع آنا تدمع في يدي.

إذاً، ماذا قرر الأطفال؟ هناك أناس، لستما الوحيدين. بلى يا سيدتي، بالضبط، إننا وحيدان تماماً.

غادرنا من جديد ونحن خجلين، متألمين ومستائين. عدنا إلى المنزل عبر الطريق الأطول، الطريق الذي يتجنب لابشان ومونتوا ولوفير بري، الطريق الذي يتجنب جميع الأمكنة التي ارتادها أبوانا سوية متوهمين أنهما سعيدان.

في المنزل، أعددت وجبة التحلية لأختي الصغيرة. موز مرشوش بالسكر الأسمر، كوب عصير ليمون؛ كلهم بلونٍ أصفر. لم تعد تحب اللون الوردي منذ أن كفّت آني عن الاستيقاظ. أقسمتُ

لها ذلك اليوم أن أحصل على المال اللازم للحاق بأمنا. أنت فاعل؟ لا أدري يا آنا. سأسرقها إن لزم الأمر.. سأقتل، إن لزم الأمر.

وعدُ جبانٍ، أعرف.

اثنا أورو وستون سنتيماً

لا بد أن توجد سيارات طائرة. سباقات على ظهر الأسماك. لا بد أن تحلّ الطاقة الشمسية مكان البترول. لا بد أن يوجد رجال آليون يقومون بالأعمال التي تحطّ من قدر الإنسان. جمع القمامة، براز الكلاب، القيء. وأيضاً ممارسة الحب في ظلمة الدروب المسدودة والحدائق الكثيفة؛ بدل الفتيات الصغيرات، بدل النساء التائهات. لا بد أن يكون لكل إنسان حاسوبه. يجب ألّا يكون أحد وحيداً. سيكون لكل واحد هاتفه النقال، وسيتصل بالناس الذين يعانون، سينقذهم، سيشفيهم. ترعرعتُ على فكرة أن الماء سيوجد في أفريقيا والأسبرين والمضادات الحيوية. ولن تعود الكهرباء تُستخدم إلا في إنارة العالم، لن يعودوا يربطونها إلى خصيتي رجل، هناك على أرض الصحراء الصفراء. سيذهب الناس لقضاء عطلهم على سطح القمر، على المريخ والمشتري؛ وسيطيرون حول زحل. سيبدؤون يحلمون بانتقال الجسد عبر الأثير. بقلوبٍ بلاستيكية تنقذ قلوب الرجال. سيغدو الجسد قابلاً للإصلاح. سيكون لديهم أجساد مضاعفة، قِطع غيار. سيعيشون في صحة جيدة حتى سنّ المئة والعشرين والمئة والثلاثين. سيصبح الزهايمر والسرطان اسمين

بائدين، هيروغليفيين. سيكونون سعداء. سيكونون جميعهم سعداء. وها هو عام ألفين قد جاء.

يجب تحقيق أحلام الطفولة لكننا أصبحنا الآن راشدين. لم يشفِ المال من شيء. ربحتْ الظلمة. مزَّقَ جياعٌ أوصال حيوان على مدخل مزرعة في سان أنطوفان، في تارن إي غارون، وتركوا أحشاءه، وشحنوا مئتين وعشرين كيلو غراماً من اللحم. وفي مكان آخر، فرَّ الدجاج والديكة الرومية والبط. اتهموا الثعالب. اتهموا الذئاب. يرتدي الناس أسماء مضحكة عندما يجوعون. اقتلعوا طناً من البطاطا. غشوا المازوت. النبيذ الأحمر. اختفتْ أصص الورد والأسيجة وماكينات الجز. أتلفتْ الدراجات ذات المحرك. المحزقات والكابلات. أسلاك التيار الكهربائي. خرجت القطارات عن سكّتها. قطَّعَتْ الصفيحة الفولاذية أجساداً حية، شَوَّهَتْ وجوهاً جميلة. راح الغضب يزمجر، والوحوش تستيقظ. جاءت عائلات بأكملها لتأكل في المتاجر الكبيرة، وتلقي العلب الفارغة على الأرض، وتتغوط في مواقف السيارات. وفي ليون بارت ديو، ضرب أربعة حراس متشرداً حتى الموت من أجل بيرة مسروقة. احتال أحدهم على شركات التأمين فتلقيتُ براز كلب. رأيت جَدّاً أنيقاً مع حفيدته في بون بوان يسرقان علبة بسكويت في الردهة هاء من محطة ليل، ثمنها اثنا يورو وستون سنتيماً، نساءٌ يتسولن في الشوارع، طفلٌ في الحضن، متعبٌ من ملاعق المسكنات الكبيرة المُحلاة بالسكر. كانوا يقطعون الماء الصالح للشرب عن أولئك الذين لا يسعهم دفع الإيجار. كانت أمي تسرق في باينوليه ولم نكن نعلم ذلك.

أخبروني أن أولئك الذين يحبونكم قد يقتلونكم.

الظلام ينتصر، والعتمة ترعبني.

عشرون أو خمسة وعشرون فرنكاً

لم نذهب إلى زنجبار ولا إلى المكسيك. لم يوجد لا قارب ولا محيط. في أول صيف من دونهما، أرْسَلَنا أبونا في نهاية المطاف لمدة شهر إلى مخيم العطل في بورغ دوازان، وهي بلدة جميلة في إيزر، متوسط ارتفاعها 1900 متراً. هذا يعني من ماما؟ لا، يا آنا، لا يعني أننا قريبان من السماء ومن ماما، هذا يعني أننا تائهان.

كان يوجد نحو مئة طفل، ونحو دزينة من المشرفين والمشرفات. نشاطات في الهواء الطلق. ألعاب كرة. تسلق صغير. هبوط على منحدرات وعرة للمغامرة. رحلات. نزهات طويلة إلى بحيرة لوفيتيل. تَخَبُّطٌ في الماء. ضحكٌ، تراشقٌ بالماء. مفاصلُ رُكَبٍ مخدوشة على الصخور. القبل الأولى، لعبة الطميمة، تحت الماء أحياناً. مداعبات مضطربة. كنا ننظر إلى قمة جبل مييج بخوف. نحلم بالهروب، بالريح تحملنا إلى باينوليه، قرب الطريق المتحلق؛ كانت نقاوة الهواء تمنحنا أجنحة. صبية يصرخون، تتعالى صيحاتهم، فتُفْزِعُ العصافير. ظُهراً، كنا نتنزه في بطاقات إيكمان البريدية الصغيرة. سماءٌ زرقاء، عشبٌ أخضر وكثيف، أدونيس متموج، زنابق بيضاء، رخام ذهبي. وفي المساء، عشاءٌ في المخيم،

حول نيران مضطرمة. يعزفُ المشرفون على الغيتار، يغنون أشياء سهلة، سمعوها مراراً في راديو السيارة، والمشرفات يرقصن، تلتمع بشرتهن بينما يتراهن الصبية على شعرات إبطهن رهانات غبية: عشرون أو خمسة وعشرون فرنكاً، وأجس ثدياً واحداً من ثديين كبيرين. وحين يأتي موعد انفصالنا، والذهاب إلى خيمنا في الليل لمحاربة البعوض والحذر من الأفاعي، كنتُ أبقى مع آنا.

يوم وصولنا، اعترفْتُ بالخواء والدوار وخوفنا من الافتراق. شرحتُ اللغة المشوهة وحكيتُ عن السخريات في المدرسة - إنها الفتاة التي تتحدث مثل طفل رضيع، الفتاة التي ستصبح نقانق ثخينة لأنها تأكل الكلمات، الفتاة التي لا تعرف أن تقول واحد اثنين ثلاثة. شمس. الوحش! الوحش! كانت لفظاظة الأطفال عنف فظاظة آبائنا. تستمر الطفولة زمناً ضئيلاً جداً، وتفرّ في اللحظة ذاتها التي يفتح فيها المرء ذراعيه، حين يرتكب خطأ التفكير أنها ستعود من تلقاء ذاتها. أن يحتفظ بجانبه الطفولي هي وسيلته الوحيدة للبقاء حياً. فَهِمَ مدير المخيم ذلك. نصبَ خيمة صغيرة لي ولآنا بحيث يمكننا أن نتهامس فيما كان على الآخرين، حين تُطفأ الفوانيس، أن يصمتوا. كانت تضع رأسها على كتفي، كان برد الليل في الخارج قارساً، كنا نلتصق أحدنا بالآخر، كلم عن، تهمس لي. أحدثها عن أمنا، عن رائحة المنشول الزكية، عن رغوة الشوكولا العجيبة في إحدى المرات، عن النفخ غير الموفق أغلب الأحيان على الجبن، عن الرز المطهو أكثر ممّا ينبغي، عن الثلاجة الفارغة، عن البيرة الحزينة. لأن كان مغموماً. أجل كانت مغمومة. كانت تحدثني عن آني، كنا نضحك.

كانت تعرف أن آنا ستشعر برغبة للتبول حتى قبل أن تعرف هي

نفسها ذلك، وكانت آنا تعرف أن بطن آني سيؤلمها قبلها، أو أنها سترغب بقراءة هذا الكتاب، أو ارتداء ذلك الثوب.

كنتُ الوحيد الذي أفهمها.

في ذلك الصيف، طلبتُ من المشرفة أن تعلمني كيف أضفر الجدائل المصرية، ثلاث ضفائر وخمس ضفائر. كنتُ أحيك لآنا جميع أنواع التيجان الكستنائية. كانت أختي ساحرة. اقتربَ صبي في مثل سنها ببطء، ثعلب صغير رشيق. توردتْ بلطف، ونظرتْ إلي فخورة وتاهتْ.

يوم زيارة حديقة النباتات على طريق لوتاريه، اقتلع الصبي من بين الحصى الشمالية نبتة المقزعة وأهداها سراً لآنا. إنها وردة غريبة، ساق يعلوها شعر من القطن. أميرة التوندرا مُصَغَّرَة، نوعٌ من الملاك. تلفظتْ أختي عندئذٍ بعبارة كاملة. شكراً. ابتسم الصبي ابتسامة جميلة وهو يجيبها أجدُ جميلة. أجدك جميلة.

لم نعدْ وحيدين في العالم. صار معنا الآن توماس.

أربعة وتسعون سنتيماً

لم تؤثر الأقراص. وظلَّ أبي يفقد وزنه. سحنته الكئيبة أصبحتْ شمعية. صفراء كشمعة الكنيسة. صلاةٌ متلاشية. أخذ الألم يتفجر الآن، راح يخرج، مُغَمَّسَاً بالدم، من فتحة الشرج، من الحلق، على شكل كريات زجاجية مسحوقة. كان يسببُ ضيق تنفس. ترتعشُ اليدان، وتُفْلِتَان أحياناً زجاجة صغيرة ثمنها أربعة وتسعون سنتيماً: فتسبب البيرة عندئذٍ بقعة على البنطال شبيهة بالبول. ينتصر القبح. تغدو الملابس بعد الآن فارغة، كأكياس كبيرة، تهين الجسد الذابل. جلبتُ له ثلاث بزات جديدة، ثلاثة مقاسات مختلفة، تحتاج إلى تقصير. يجب الحفاظ على كرامته، همستُ مرتاعاً. بدتْ قسوة المرض بلا حدود.

أندريه أنتَ تسمع اشترى ابنك لك ملابس حتى تبقى أنيقاً أبوك ظل أنيقاً دوماً حتى في مريوله الأبيض وفي الواقع أظن أيضاً أن مريوله الأبيض صعقني عندما كان عند لابشان كان يشبه طبيباً مشهوراً أنت تتذكر لابشان كان لامعاً ومضحكاً جعلنا والدك مجنونات جميعاً وعندما رحلتْ أمك المسكينة تساءلنا هل سيستبدلها يوماً بواحدة أخرى كنتما أنتَ وآنا صغيرين ولم يكن بوسعكما أن

تَشُبًّا دون أمّ لا أحد يستطيع وأختك الصغيرة يا إلهي أختك الصغيرة وأنا من اختارها ستعرف لماذا ستعرف السبب.

كنتِ لطيفة، نطقَ أبي بصوت واهن.

لطيفة. ابتسمتُ. اللطف لا يصنع الحب. يصنع الصحبة. نزهة ثلاثين عاماً على الأكثر. بالتأكيد لم يحب أبي أحداً وفي خضم كل التعاسة التي ألبسني إياها، كان يوجد هذا أيضاً: عجزه عن أن يكون محبوباً. نقطة ضعفه الأكبر. نقطة ضعفنا الأكبر جميعاً، من الآن فصاعداً.

أبي، إن كنتَ تريد القيام برحلة إلى ريغا على شاطئ بحيرة كام أو تجتاز البروفانس من بينتلي، وأن تشرب البيتروس المعتق من عام 1961 أو عام 1990، فليكن هذا الآن. عليكَ أن تخبرني بذلك الآن، عليك أن تخبرنا بذلك. يحقّ لك أن تختار في شأنٍ لن يدوم، يحقّ لك أن تختار الخفّة، أن تدع رغبتك تنتصر، وأنانيتك، لم يعُد يترتب عليك إبداء الأسف.

ابتعدتْ زوجة أبي. كانت تبكي. لم تكن تريده أن يرى حزنها، أن يرى ذعرها من فكرة أنها قد تكون وحيدة غداً، غداً صباحاً ربما، عند الفجر؛ لن يعود رعبها المفاجئ يفيد شيئاً.

هذا هو الأقسى يا أنطوان لن أعود أعرف ما سيحدث بعد خمس عشرة دقيقة بعد عشر دقائق بعد خمس دقائق وحتى بعد دقيقة حين تطلبُ مني طماطم محشوة وعاءً للبصاق وحتى عندما تسعل وعندما يمزقُ الزجاج حلقك أشعر أنني على قيد الحياة وحتى أوه أشعر بالحزن الغامر.

يسبب المرض دوماً أضراراً جانبية غير قابلة للتحديد الكمي.

إن أردْتَ رؤية ألبومات صور الأختين التوأم، وأن ترى آني

ثانية، ليكن الآن يا أبي. يدها الصدئة على ساعدي. راح يتنفّس بصعوبة، وتركَ الزمن يمضي. أجل. أريد شيئاً. أن أقودك إلى قرب الفتاة الإنكليزية الصغيرة، كان اسمها باتريسيا أليس كذلك؟ وإذا أساء والدها التصرف معنا، لديّ أنبوبة مخبرية صغيرة تحتوي على حامض البربيونيك، لا ولكن. كانت ابتسامته تشبه تكشيرة. انتصارٌ صغير. كنتُ أبكي.

لماذا حين نُضَيِّعُهم نلتقي أخيراً بأولئك الذين افتقدونا؟

صفر

أمضيتُ اثني عشر يوماً قبل أن أتصل بناتالي. كنتُ أقول في سري كل يوم سأتصل بعد قليل، سأتصل غداً.

عندما كنا في مخيم ألب رودويز قبل سنوات، تلقيتُ أخيراً رسالة لطالما انتظرتها. رسالة أماندين *P. لم نكد نبلغ سن السادسة عشرة، نظراتٌ موارِبة، برطماتٌ شرهة؛ تصرفاتٌ صبيانية عجيبة. كنتُ قد طلبت منها قبل إجازة العطلة الصيفية المديدة أن تخرج معي، وأرسلتْ أخيراً جوابها. دسستُ المغلف في أحد جيوبي، منتظراً ما بدا لي أنه أفضل لحظة لفتحه، وتَذَوُّقِ كلماته، لأنها بالتأكيد رسالة حب، ولأن المرء لا يُفْسِد رسالة حب بقراءتها في ضجيج الآخرين. انتظرتُ يوماً، يومين؛ مضى أسبوع. كنتُ أشم الرسالة في الليل، أحلمُ بكلمات أماندين. حين تلمسُ أصابعي ورق المغلف، يخفقُ قلبي بلطف، كنتُ سعيداً، وأنتظر.

صعدنا ذات صباح إلى ملجأ وادي فار، أثناء نزهة على الألبيت واستكشافٍ لبحيرة ميليو، بحيرة فار. كانت السماء قد أمطرت في الليلة السابقة، والهواء عليل على نحو مدهش، مداعبة لطيفة. يحلِّق نسران في السماء الغريبة على علوٍّ شاهق، كما هو الحال في

التصوير البطيء. تمشي آنا وتوماس أمامي، يضحكان لكنني لا أسمعهما. إنها اللحظة المثالية. عندئذٍ، فضضتُ المغلف، فتحتُ الورقة وأنا أرتعش.

لا لم تكتب إلّا هذين الحرفين اللام والألف. لا، لن أخرج معك، لا، أنت لا تعجبني بما يكفي للقيام بذلك، هكذا قالت الشحيحة بقلمها. أصبحتُ شاحب اللون. أسرعتُ قليلاً، وأنا أطمح للحاق بالمشرف القلق. إنه المرتفع. ثم راح الدم يغلي في عروقي وشرعتُ أبتسم. يتّخذ الجبن أحياناً أشكالاً مضحكة كما تعرف. منحني جبني عشرين يوماً من السعادة حلمتُ خلالها بكلمات جميلة لأماندين *P التي لن أشفى أبداً من حرفيها اللعينين.

اثنا عشر يوماً من الانتظار قبل أن أتصل بناتالي التي حالفها الحظ بتلك السعادة أيضاً. وانتابني الخوف ذاته حين أغلقتْ سماعة الهاتف، لكن الإجابة كانت نعم. نعم. هذا يعني أنكِ أخذتِ وقتكِ. أنتِ من النوع الخجول. نعم. أودّ أن ألقاكِ. قهوة، إن شئتِ. نعم. أو قدح شيراز. أُفضِّل. إذاً نبيذ أسترالي. أقوى ولونه أعمق. أنتِ محقة، مع اللحم الأحمر. لحمٌ أحمر، هذا مناسب. نعم، لنتعشى، أنا موافقة. أرغبُ بذلك. أرغبُ بذلك أيضاً. هذا المساء. ثوبكِ الأسود. بنطالكَ الأخضر. آه، أنتَ لم تأخذه في النهاية. أنا. في الواقع. هرعتُ في إثرك وضَيَّعْتُكِ. وأنتَ أضعتني.

وضحكتْ. وكانت ضحكتها مضيئة.

لم يُقَبِّل أحدنا الآخر بعد العشاء، ولم يصعد أحدنا إلى منزل الآخر. كانت على وشك أن تهجر شخصاً. شخصاً «ما». ولم تكن

تريد أن نولد في الاضطراب، في القذارة. كانت تريد أن تبدأ من الصفر. كانت تريد صفحة جديدة بيضاء.

يحلم جميع الرجال بذلك، لكن بسبب بؤسنا، لا نكتشف ما هو مكتوب إلا في النهاية.

تسعة وتسعون أربع مرات

هجرتْ أمك شخصها «الما»، والتقينا بعد ذلك مباشرة. كنا عاشقين متيمين. حماقات سن الثانية عشرة. يلازم أحدنا الآخر كظلّه، حتى حين نذهب للتبوّل. أنتَ لم ترنا قطّ على تلك الحالة: يتفانى كلّ واحد منا في إطعام الآخر، نشرب بالكأس ذاته، نتبادل قمصاننا وفرشاة أسناننا؛ لا يسعك تخيّل ذلك، أعرف. أنا أيضاً، لم أرَ أبوَي مسرورين معاً قط، في هذه المعزوفة الوجيزة للسعادة. لا قبلة، ولا نظرة جميلة. أبي، بلى رأيته، قليلاً، مع زوجته، لكن ذلك كان بسبب حنان سابق. وفيما بعد. كانت أمك جميلة يا ليون، أستيقظُ في الليل لأنظر إليها، كنت أصغي إلى تنفّسها. يتلفتُ الرجال إليها في الطريق، ما يجعلها تضحك وكانت ضحكتها مشرقة وكانت ضحكتها تجذب المحسنين. والخبثاء أيضاً. في البداية شعرتُ بالتردد بين الفخر والغيرة، وبعد ذلك، اختفت هاتان الكلمتان. صرتُ أفكر فقط بأنني محظوظ، وأنني أنا مَن اختارته في ذلك اليوم، في مقصورة القياس في متجر البرانتومب. أنا من رغبتْ بالأطفال في صحبته، جوزفين وأنت؛ أن تشربَ معه شراب دماء ورمال في حانة بفندق يتعذّر لفظ اسمه، في المكسيك أو في مكان آخر؛ أنا مَن كانت تريد الهرم بصحبته. مَن كانت تريد أن تجعله

سعيداً. كنتُ أظن أنها تقدم لي ما تمنعه عن الآخرين، لكن الحب يعمي ويسبِّب الصمم والعزلة ويُشَوِّه، ولم أعرف ذلك إلا فيما بعد.

أقمنا معاً في شقة جميلة قرب الساحة الرئيسة، قرب مكاتب لم أزل أشارك ف ف فيها. ثم جاءت جوزفين؛ ولم تكن تلك لحظة مناسبة لها تماماً لأنها تَسَلَّمَتْ للتو عملها عند ديكاثلون قبل بضعة أشهر، ولأنها كافحتْ من أجل ذلك، ولأنها خافت من عدم استئناف عملها. لكنها استأنفته. كانوا ينتظرونها. الجميع انتظرها. والجميع أحبّها. كانت تعمل بجد فعلاً، وتهتم بكلّ الإعلانات والتبويبات والترقيات. وغالباً ما عادت متأخرة. كنتُ أهتم بأختك الكبيرة. اشتريتُ أسطوانة الأعداد. هذا مضحك، أذكر ذلك تماماً، أسطوانة هنري ديس، في فوريه دي نورد، تسعة وتسعون أربع مرات. لم أكن أعرف أية أغنية منها. لم يغنِّ لي أحد قط عن الأعداد. ترعرعتُ في الصمت في الفراغ الكبير، لكنني بقيتُ حياً وهذه نعمة رغم كل شيء. إلا أن الأمر انتهى الآن، إنني متعب.

ذهبت جوزفين إلى روضة أطفال. تضاءل حبنا، أنا وأمك، ولم نعُد في سن الثانية عشرة، وصار لكلّ واحد منّا فرشاة أسنانه. هرمنا فجأة. وبعد ذلك، قبل أن تولد أنت، ظنَّتْ أنها ربما لم تعُد تحبّني، وأنه لن يكون لدينا مكسيك، ولا حنان، ما بعد الحنان، الحنان الذي يقود إلى النهاية؛ شعرنا بالحزن الغامر. أصبحتُ أنام على الأريكة. أشربُ النبيذ في الظلام. وحين أستيقظ، ورأسي ملتهب، تكون أمك قد غادرت، وأختك في روضة الأطفال. أظنّ أنني في تلك الفترة بدأتُ أكره حياتي.

سعر مضاعف

لم أعرف ذلك. إنما شعرتُ به.

شعرتُ بيدين تتسكعان وشفتين تتذوقان وعينين تلاطفان. شعرتُ بكلمات جديدة تندسّ. شعرتُ بالإيماءة الأثقل من تركيب فتيل. إيماءة لا لُبس فيها. شعرتُ بالألم. شعرتُ بالهاوية. شعرتُ بقلبي ينفطر، يتمزّق. شعرتُ بالدموع. بالحروق. شعرتُ بالوحش يستيقظ. بالغضب يزمجر. بالعاصفة. بكل العواصف. بمعنى كلمة حزن. بألم النساء السحيق. شعرتُ بالشراسة والقذارة. شعرتُ بالأصابع التي تفوح بالكذب. الخيانة. النظرة المتدفقة. جَلَسَتْ أبعد من المعتاد بميليمترين. شعرتُ بغرامات السكر الزائدة في القهوة. برائحة الشامبو الجديدة. باللوز الحلو في الصابون. شعرتُ بالعبارات الأقصر، الأكثر مراوغة، والأكثر ضبابية. شعرتُ بضغط الذراعين الأقوى حول ابنتنا الصغيرة. القُبل الرطبة. شعرتُ باعتذارات لا يُعَبَّر عنها. بالدمى ذات السعر المضاعف: تساهلات صغيرة. شعرتُ بالخوف. شعرتُ بالأنفاس القصيرة في الليل. بالفرار على رؤوس الأصابع عند الاستيقاظ. بأحمر الشفاه أغمق بقليل. بالأظافر أطول. المخالب. شعرتُ بالظَّهْر. بشرة شاحبة. شعرتُ بالهجران. النشوة. الجِنَان الصغيرة. رائحة المني. شعرتُ

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

بالبرد. الريح. العاصفة، كل العواصف. شعرتُ بدمي يتجمّد. شعرتُ بالماء البارد. بعرائس النيل في دمي. شعرتُ بالعالم ينهار عندما خدعتني ناتالي.

أربعون ألفاً وثلاثمئة وواحد وثمانون أورو

عثرت الشرطة على هيكل سيارة محترق، بعد ثلاثة أيام من الإبلاغ عن السرقة، على حافة حقل في فامبروشي. إنها سيارة رينو كليو II 2.0 ستة عشر حصاناً، مسجلة في نوفمبر عام 2006. أوفدني التأمين إلى المكان لمعرفة هل يوجد احتيال أم لا، بحسب مبدأ تقول فرضيته الدائمة أن المؤمّن عليه حسن النية، وأن على الشركة أن تحضر الدليل أو الأدلة على الاحتيال. فحصتُ نقطة اندلاع النار (المقعد الأمامي) وجهة انتشار الحريق (الغطاء الأمامي). ولأن طراز هذه السيارة غير مزوّد بمقاعد كهربائية، استبعدتُ على الفور فرضية ماس كهربائي. تُظهرُ التجربة أنّ النار التي اندلعت في مقعد السيارة مالت إلى الارتفاع على امتداد المسند وأحرقت السقف الذي ذاب بتأثير الحرارة بينما لامس اللهب الهيكل بتأثير الريح، وتَقَشَّرَ الدهان، وتجاوزت درجة حرارته الألف. فحصتُ قفل التشغيل فلم أجد أثراً للكسر والخلع. وبما أن النار دمّرت تسعاً وتسعين بالمئة من مؤشرات الغشّ المحتملة، اعتقدتُ أن هذه واحدة من حالات الغش. عدتُ عندئذٍ إلى منزل صاحبة السيارة المسروقة على حدّ زعمها وقابلتُ امرأة شابة، حامل في شهرها السادس. أجلستني في صالة منزلها الصغير الأنيق، وسخّنتْ لنا

كوبَي قهوة. لم تكن توجد أي صورة فوتوغرافية فوق المدفأة أو الصوان. طرحتُ بضعة أسئلة حول ملابسات السرقة، إجابات معقولة، لكنها سرعان ما أجهشت في البكاء. ليست إلا سيارة، قلتُ، وليست على هذه الدرجة من الأهمية، ثم إنها ليست من طراز مندثر، أو سيارة تخصّ هواة المجموعات. هزتْ برأسها نفياً. لا، لا، ليس الأمر على هذا النحو. فكرتُ لبرهة في ناتالي التي كانت تنتحب أحياناً، عندما كانت تنتظر ولادة ليون. تضعُ يديها على بطنها المنتفخ، تنظرُ إليّ وتبكي ولم تكن تسعفني الكلمات لمثل هذه الحالة، لضيقنا. إنه زوجي، همَسَتْ، لقد رحل. لم يحتمل فكرة إنجاب طفل. لم يكن يريده. أنا مَن أردتُ طفلاً. وضعتُ كوب قهوتي. وأنتِ من مزقتِ كلّ الصور التي جمعتكما معاً، وأنتِ مَن أضرمتِ النار في السيارة التي أهداها لكِ، وأنتِ مَن تعتقدين أنّ حياتك انتهت؟ لقد أبدتْ رأيها. منعتْها دموعها عن الكلام، خنقتها. تذكرتُ يوم عادت ناتالي من العيادة وقالت انتهى الأمر، ذهبَ، راح الطفل. كدتُ أحطّم كل شيء في منزلنا، لكنني تركتُ الأشياء تتكسر في قرارة نفسي، اليوتوبيا والأحلام. نمتُ في تلك الليلة مع جوزفين، أبقيتها في حضني وهدهدتني أنفاسها الدافئة والمنتظمة برائحة اللبن الرائب الواخزة. في تلك الليلة، أردتُ العودة إلى هناك، إلى عالم الطفولة، والأوهام غير المؤذية، والدم الذي لم يزل مجرّد لون، ولم يصبح بعد ألماً. في تلك الليلة، رحلتْ ناتالي أيضاً، نامتْ في مكان آخر، بعيداً عنا، رحلتْ بلا شك للبحث عن كلمات تعالج كل هذا، كلماتٍ كاذبة، وعارٍ مستساغ.

دفعتُ أقل مبلغ يمكن دفعه بحيث أكون بلا شفقة ولا رحمة، فليس من حقي أن أمدّ يدي لغريق، لا مكان لدي للرأفة. بتروا

الحنان مني، جعلوني نذلاً عادياً واستسلمتُ لذلك. كان عليّ أن أقول لا لبؤس الآخرين. أليس كذلك يا سيد غرزيسكوياك؟ طلبوا مني أن أدعك تغرق، وبالمقابل تركوا لك الحق في أن تشتمني. الطاعة هي مفخرة الجبناء، وسام شرفنا.

فجأة أخذ الوحش يزمجر، أطبقتْ أنيابه على أحشائي. ألمٌ مستدقّ، نغمة مديدة، ممضَّة. انتفضتْ المرأة الشابة. وماذا لو أن العصيان هو بداية السلام؟ العصيان، أقرر، خوفاً من أن أعرِّض حياتي للخطر، وماذا لو أن الخلاص موجود في هذا الخطر بالضبط؟ الكرامة. التصالح مع الذات.

ألخصُ أن أحدهم سرق سيارتك يا سيدتي، وأنّ اللص أو اللصوص أضرموا بعد ذلك النار فيها، عن طريق رشّ مقعد السائق في البداية ثم الباب الأيمن الأمامي المفتوح، ثم الغطاء، بمادة قابلة للاحتراق، على الأرجح سريعة الاشتعال أو بمذيب صقيع عن الزجاج، وأنه بسبب الأكسجين وشرارة الاشتعال، وهي عقب لفافة تبغ بالتأكيد، اشتعلت السيارة.

وسط قناع الدموع، أصبحت ابتسامتها الحزينة جميلة. لماذا تفعلُ ذلك؟ ترددتُ لبرهة.

لأُذكِّرَ نفسي أنه لم يزل لديّ قلب.

بعد يومين من تسليم تقرير الخبرة وموافقتي على التعويض بقيمة تناسب تاريخ السيارة، ليكن أربعة عشر ألفاً وثلاثمئة وواحد وثمانين أورو، اسْتُدْعيتُ إلى مقر الشركة.

أصبحتُ مطروداً من العمل.

تسعة وأربعون فرنكاً للشخص

قبل بضعة أيام من أول عيد ميلاد نمضيه من دونهما، تلقينا بطاقة بريدية من أمّنا، تمثّل غروب الشمس فوق برج إيفل. كان خطها مرتعشاً. **إنني بخير، أفكر فيكم أنتم الثلاثة دوماً** (عمن كانت تتكلم، إضافة إليّ وإلى آنا، عن آني أم عن أبينا؟). **أمكم التي تحبكم. عيد ميلاد سعيد.**

رسمتْ نجمة صغيرة وكُبَّتَي صوف - دوائر صغيرة في الواقع، فسَّرَتها أختي أنها كبتي صوف. هذا كل شيء. بكيتُ مع آنا على الكلمات الناقصة. «إلى اللقاء قريباً»، «سنلتقي هذا وعد»، «اعذراني»، و«أشعر بالخوف من دونكم». اشتقتُ لكلّ شيء فيها، حتى لغياب قبلاتها عندما كانت لا تزال موجودة، لكل غيابها. أخبرنا والدي عن مفاجأة في ليلة عيد الميلاد. إنها هي. القميص الحريري. الصدر الجميل. قدَّمها لنا كصديقة، هي أيضاً، وحيدة في هذا اليوم الفَرِح مضيفاً أنه ينبغي ألّا يبقى أحد وحيداً في عيد الميلاد. **ماما اليوم؟** سألت آنا. ترجمتُ. وهل ماما وحيدة اليوم؟ لا أدري يا عزيزتي، أتصور أنها ليست وحيدة، وأنها مع أصدقائها، ربما مع أناس من عملها. كان أبونا قد طلب الوجبة من محل مونتوا، «روعة عيد الميلاد»، تسعة وأربعون فرنكاً للشخص الواحد،

قطع كبد، صدر نعامة، بطاطا مع كستناء، بوظة على شكل حطبة عيد الميلاد. تلك هي الوجبة التي بردتْ. قدمتْ لنا المرأة التي ستغدو زوجة أبينا هدايا رَفَضْنا أن نفتحها. تركتْ الصالة باكية. انكفأ عندئذٍ أبي على نفسه، واحتضن وجهه بيديه. قال، أنا أيضاً، أشتاق إليها. نهضتُ، ركلت الهدايا بضربة قوية من قدمي قبل أن أفرّ إلى غرفتي. ليتنا نستطيع الذهاب جميعاً إلى بانيوليه. وأن نرتب لها مفاجأة، ونقول لها إننا نحتاجها، ونقدم لها آخر أعمال ساغان، **المرأة المتبرجة**. أن نحملَ لها وجبة الروعة من عند محل مونتوا. شرائط مزخرفة. شجرة صغيرة. ومن ثم إضحاكها وشحنها برغبة لتعود عن حزنها، وتطفئ الكآبة. ليتنا نستطيع مساعدتها، يا أبي؛ ليتنا نستطيع الذهاب للبحث عنها وإنقاذها. لكننا نحتاج إلى حبٍّ غامر للقيام بذلك.

ثمانون أورو (يتبع)

بحق الله، لن تصدق ذلك. كيف يتصرّفن؟ يشمشمن، يعرفن كل شيء، لكن يمكنني أن أقول لك إنني أحترس. لا شيء على مفكرتي، لا شيء على هاتفي النقال، إنها جناية هاتف نقال، أنت تعتقد أنه صديق وفيّ، يصون أسرارك وكل شيء. هراء. إنه خائن. لذلك لا رسائل صوتية ولا رسائل نصية، لا شيء. لم أخبر أحداً بذلك إلا أنتَ يا أنطوان. حسن، سواء صدَّقْتَ أم لا، عَلِمَتْ بالأمر. لا أدري إنْ كانت تَبِعَتْني، أو جنَّدت مُخبراً في إثري، المهم أنها عرفت ذلك. حسبتُ أنني سأموت، نوع من الجلطة. حدثَ ذلك قبل ستة أسابيع، بالضبط عندما حظيتَ أنت بوالدك. عدتُ بعد أن شربنا كأسَي بيرة كبيرين معاً، كانت تقرأ في الصالون، فهي تستمتع بالقراءة منذ نعومة أظفارها. أما أنا، فكنتُ أكتئب من الكتب. كعبُ الكتاب القاسي، آثار الكلمات الصغيرة. يبدو كحديقة يابانية، الكتاب، كيلومترات من السأم. أُقَبِّلُها كالعادة. تطلبُ مني أن أشرب كأساً، وتقول إنها تنهي فصلها، ومنسجمة مع كتابها، وتتعجل معرفة النهاية. أُعِدُّ كأس بيرة. أنتظر. يبدو أنه فصل طويل لأن الوقت سمح لي بفتح زجاجة بيرة أخرى. تنهض وهي تحدق

فيَّ. عندئذٍ أشعر بشيءٍ غريب. لديها نظرة كنتُ قد نسيتها، نظرة البداية، عندما كنا نمارس الجنس طيلة الوقت، حين كان يمكن للعالم أن يموت دون أن نهتم. تلك النظرة، يا أنطوان. شيء من الجوع، حريق صغير. كان هذا مثيراً، وكان يثير ذعراً في آنٍ معاً. أصبحتُ، أنا وفابيين، هادئين من هذا الجانب، سبق أن قلتُ ذلك؛ تحوّلنا إلى الحنان، انكفأنا إلى الصداقة. الحب، نمارسه الآن بالكلمات؛ إيماءات هادئة، وحتى متحجرة، وها هي نظرتها البركانية من جديد. ثم ابتسمتْ لي. ها أنتَ إذاً، قالت لي هكذا. ها أنتَ إذاً. ماذا أنا؟ وكررتْ. ها أنتَ إذاً. يمكنني أن أقول لكَ إن هذا كان يؤزم الحالة في داخلي، نوع من كرة تتدحرج. ثم أكلنا، كالعادة، حكتْ لي عن نهارها في المدرسة، الصغيرة ديكوزنوي التي يترتب عليها إعادة صفها، التعميم الجديد حول فترات التعويض، إشعار الإضراب. كانت تراوغ. تعذيب.

في لحظة تناول الفواكه والحلويات، وحين أقول فواكه وحلويات، أعني بالضبط لبناً رائباً، أخرجته لي هكذا، بنظرتها الحارقة: أنا أيضاً أريد أن أتعلم مصّك بمهارة. مثل عاهرتك. علمني، علمني يا فريدريك، أنا واثقة أنني موهوبة. تسمرتُ كالأبله. اللبن الرائب في فمي. كان يسيل كلعاب رجل عجوز. وبالتأكيد تلونتُ بلون هذا اللبن القذر. من حسن الحظ أنني لستُ مريض قلب. بصقتُ لبنَ دانون. يجب ألا أبتلع إذاً؟ قالت لي وهي تبتسم. أقسم لك يا أنطوان أنني لم أكن أعرف أين أضعه. نهضتْ واقتربتْ مني، وجثت على ركبتيها. إذاً؟ إذاً، كيف تفعل، عاهرتك، أخبرني. لا تخفْ من الكلمات، قالت لي، لا تخفْ من الكلمات. لا تخفْ من الكلمات، من السهل أن أقول ذلك، أنا مَن لم يعُد

لدي سوى كلمات الحب لأجلها. المصّ، إنها كلمة حب، قالت. الابتلاع أيضاً. وعلى العكس، ثمانون أورو، هي كلمة مثيرة للاشمئزاز. حقاً مثيرة للاشمئزاز.

(ثلاث مرات) سبعون فرنكاً

بدأ كل شيء بين آنا وتوماس في ذلك الصيف، عندما قدَّمَ لها العشبة القطنية في حديقة النباتات في ممر لوتاريه. كان كلاهما في سن السابعة من عمره ويتكلمان نصف اللغة ذاتها. لم يعودا يفترقان. على الوجبات، يتركان في صحنيهما الأغذية ذاتها، القرنبيط والخيار والخس، والتفاح؛ كل ما هو أخضر. يحبان غروب الشمس فوق ميجي، عصير الليمون الأبيض. أغاني فرقة كريول التي ينشدها المشرفون في المساء. كل واحد منهما يَعِدُ الآخر بأشياء لا يفهمها أحد في العالم إلا نحن الثلاثة. حين ينظر أحدهما إلى الآخر، كان ثمة شيء ما بينهما أكبر منا يا ليون؛ أكبر منا جميعاً. هذا الشيء الهائل والنادر، الفرح. كان ابناً وحيداً، وسيكون حبه وحيداً. يعمل أبوه في مصنع كيميائي في بون دو كليكس، قرب غرونوبل، وأبونا كيميائي عند لابشان في كامبري. أمه خياطة في المنزل، وأمنا رحلتْ وفُقِدَتْ. في كل ربيع، كنا نخبر توماس بمكان مخيمنا القادم فينضمّ إلينا فيه صيفاً. رأيتهما يشبان، رأيتُ قصة حبهما الفريدة تتفتح. ودوماً هذا الفرح الساحر بينهما. في مورزين، سالانش. في إكس ليبان. بدا لي، صيفاً إثر صيف، أنهما يتكلمان أقلّ فأقل، كأن الكلمات تضيق على البوح بكل ما يترتب عليهما قوله. كانا يتعلمان

الصبر، يتقدَّمهما الخلود، يعرفان ذلك. ينظران إلى جسديهما يكبران، ووجهيهما ينصقلان. وذات صيف، احتفلنا، مقابل عشرة فرنكات من العلك والمصنوعات اليدوية، بما اعتقدنا أنه تغير صوت توماس عند البلوغ، أولى خطواته كرجل صغير. كان ذلك مجرد بداية التهاب الرغامى.

في عام 1985، ذهبنا إلى إنكلترا، إلى بارنستابل، في ديفون. أكلنا أولى وجباتنا من **الفيش أند تشيب**، مقابل باوندين. شربتُ قدحي الأول من بيرة **بانت أوف لاجي**، بقيمة سبعين بنساً، قدحي الثاني، الثالث، وشعرت لأول مرة بالجفاف الكحولي، وبكتْ آنا.

قابلتُ في هذا الصيف ذاته باتريسيا ووقعتُ في غرامها. بدأتُ أدخن لأنها تدخن، وأنسى البيرة لأنها تكره البيرة، وتوقفتُ عن السخرية من الأشخاص القصيرين لأنها قصيرة. تلاشيتُ في سبيل أن أعثر على نفسي فيها. جربتُ كلمات الحب وكنتُ مثيراً للرثاء. الآن. أنتِ جميلة. أودُّ حقاً أن أعيش معكِ. أخيراً، أقصد لنلتقي. أوه، فور عودتنا إلى فرنسا. أنا. أنا. أودّ أن أقبلكِ.

إلخ. حتى بشرتها، بطنها، زغبها الناعم. غرفة في فندق سيندار إين، يرتعشُ جسدانا، جفَّ فمانا فجأة، صامتان، إيماءاتنا الأولى، أول مرة. كل هذا الحنان المضطرب، هذا الألم الذي لم تحدِّثني عنه قط، طعنة السكين، الخَرَقْ، النسيج الذي يتمزَّق، دموع من دم، العار الفاتر، وبعد ذلك مباشرة الضحك، ثم الاحتضان بين الذراعين. الرغبة بالتلاشي. الآن.

لم يحدث إلا ذلك. هذا بالضبط ما حدث.

بعدها، حدث خروجي العنيف من المراهقة، **مقهى دولاغاد**،

الكرفس الذي كاد يخنقني، الرسالة، الثمانون سنتيماً ثمن الطابع، خيانتي.

في هذا الصيف الأخير من الطفولة، وعلى ضفاف نهر تادريفر، تبادل توماس وآنا قبلاتهما الأولى. كانا في سن العاشرة. قبلة حب حقيقية. وحتى لا يُفْسِدا شيئاً من هذه النعمة، لم يتلفظ أي منهما إلا بكلمة واحدة. هو: **أنا**. هي: **أحبك**، ومن كلمتيهما، صِيْغَت كلّ عبارات العالم.

أقل من مئة أورو

لم تعُد أمك على الفور. كانت تمضي المساء، بعد عملها، تبقى ساعة أو ساعتين مع جوزفين، حمام، عشاء، حكاية، ملاطفة؛ ثم تغادر من جديد. أحتاج رؤية الأمر بوضوح، تقول - إنه الردّ الخبيث لمن لا يعرفون كيف يخبرونكم بأنهم لم يعودوا يحبونكم، وأصبحوا يحبون الآن شخصاً آخر. كانت تعود أحياناً في منتصف الليل، أو عند الفجر. وأحياناً لا تعود. كانت عندئذٍ تفوح بروائح الظلام؛ العرق، الكحول، عطور مختلطة، شيء من البؤس. إنها مرحلة غريبة من حياتنا عشناها زوجين مع طفل دون حياة زوجية مع طفل. لم يكن لدينا مشروع من أجل الصيف القادم. ولا لعطلة نهاية الأسبوع المقبلة. ولا حتى لصباح اليوم التالي. كنا نكتب حياتنا بنقرات على لصاقات لامبالية على باب الثلاجة.

أقامت مربية أطفال في المنزل، في غرفة جوزفين. كانت تجلس مساءً في المطبخ لتراجع دروسها. وأنا في المساء أنزوي في حجرتي، أشرب النبيذ، أسقي الوحش. تمرّ الليالي مؤلمة، مظلمة وعنيفة وصباحاتي أرجوانية، خضراء شاحبة وكريهة. ووُلِدَ هذا الشيء الذي صار يتدفق الآن. تَسَلل إلى مخاوفي. بدأ يبدِّد حياتي. بدأ يذهلني. بدأ يأخذ زمام السيطرة.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في تلك الفترة، اهتم ف ف بي، كأنه أخ كبير. كان يرغمني على ملء البراد، وشراء الزهور، ورؤية زوجتي، والتحدث معها، ومحاولة إصلاح الأمور.

عادت ناتالي إلى المنزل، في أحد أيام عطلة نهاية الأسبوع، لأنها اشتاقت إلى جوزفين. عادت بعد بضعة أيام من التقاط الصور في إقليم نيس من أجل ألبومها القادم - على الغلاف، دراجة هوائية بأقل من مئة أورو. بدت سعيدة، لم أرغب بتلك السعادة، ولا بعباراتها السريعة، الفرحة، وكلماتها المالحة، ورائحة رجل آخر على بشرتها، ورائحة تبغه الأشقر في شعرها. لذلك رافقتُ ف ف إلى باريس لحضور لقاء نَظَّمَتْه مجموعة أوروفان حول الأمن الغذائي. وفي استراحة الغداء شاهدتها. لم أتخيل قط أنني قادر على رؤية امرأة أخرى: فاضطرابات ناتالي لم تتغلب بعد على آمالي. كنت لا أزال أحلم بزوجين وعائلة ملتئمة الشمل، وأحلم بالتخلّص من لعناتي. كانت واضحة. جميلة، بالتأكيد، لكن ما جعلها فائقة الجمال بالنسبة لي هو حزنها. وقعتُ في غرامها على الفور. رغبتُ باحتضان هذا الوجه الحزين بيدي. كآبتها المؤثرة بقربي. على كتفي. بطني. رغبتُ بها عليّ، كبشرة. رغبتُ بها هنا، هناك، في حانة فندق يتعذَّر لفظ اسمه، في المكسيك أو في أي مكان آخر. رغبتُ بأغطية جديدة، بعطور المنظفات، بالتئام الشمل، بقضيب قاسٍ، من الحجر؛ حياة. أردتُ استعادة ضحكاتي الضائعة معها، استعادة فرحي، عذوبة الأحضان، أن أتذوق هذا الخوف الذي يبقى على قيد الحياة - خوفٌ من فقدان الآخر. أردتُ أن أغرق فجأة في الجمال المذهل الذي استخلصته من حزنها، بينما لم أكن قادراً إلّا على تنمية شعور العار من حزني.

فجأة، وعكة.

هل الحال على ما يرام؟ سألتْ. أجل. في النهاية، لا لا، ليس الحال على ما يرام. أريد أن أصحبكِ بعيداً عن هنا. في الحال. أن تعلميني كيف أحبكِ. أرغبُ أن أجعلكِ تضحكين. لم يسبق لي أن طلبتُ ذلك من أحد، لكنني أودّ لو أستحمّ معكِ في بحيرة مرجانية، في ماء أزرق، شفاف، وأن أشرب شراب دماء ورمال معك، مع أنني لا أعرف حتى ما هو. لا، الحال ليس على ما يرام. الحال ليس على ما يرام. أرغب. أرغب أن أكون مهماً بالنسبة لك. هذا كل شيء. أن أكون مهماً بالنسبة لكِ. لكنني لم أجرؤ. لم أكن أجرؤ البتة. الحال على ما يرام. قلتُ، شكراً. لفحة حرارة، على ما أعتقد. يمكننا الخروج لاستنشاق الهواء إن أردتَ، قالت. نشربُ قهوة خارجاً. مياهاً معدنية. يستأنف المؤتمر جلساته في الساعة الرابعة عصراً، لدينا بعض الوقت.

شاهدتُ أمي تغادر يا ليون، شاهدتُ أبي، وذراعاه متدليان، يرفض أن يكافح لإبقائها. شاهدتُ مصيبتنا منذ ذلك الحين، شاهدتُ دموعنا أنا وآنا، عندما كنا ننظر ونحن على الدرج إلى أبينا ينام في المطبخ الأزرق، ورأسه في صحنه، بسبب البيرة. لذلك نظرتُ للمرة الأخيرة إلى حزن هذه المرأة الفائق، إلى جمالها الهائل وأدركتُ أنها المرة الأخيرة. إنقاذها لا يُنقذ شيئاً البتة. قرأتُ اسمها على بطاقتها الصحفية. اسمها اسم بحار. أغنية لغينسبورغ. تلألأت الدموع في عينيّ عندما أجبتها. الحال على ما يرام، أشكركِ. ثمة صديق ينتظرني، صديق طفولة. ربما في مرة أخرى.

مرة أخرى.

اثنان وثلاثون ألفاً ومئة وخمسون

أصبحتُ مطروداً من عملي. في سن السابعة والثلاثين. مطلَّق. لديّ طفلان. لنفكر. معاناة. تزوير تقرير. شبهة رشوة. سمسرات قذرة. غش. احتيال. نصب. سمعتُ كل شيء. شاهدتُ جبن الرجال، والأسنان الصفراء لأولئك الذين أعلتهم، أطعمتهم، وألسنة العهر التي لامستني. ليست الذاكرة غفراناً. الحنان أيضاً. لقد أنقذتهم من دفع تعويضات بمئات الآلاف من اليورو في قضية دراجة هوندا هونريه الجامحة، ومن عشرات الآلاف في قضية الأرنب الراقص، وملايين كثيرة أخرى خلال سنوات قضيتها خبيراً مطيعاً، بارداً، حذراً، نزيهاً. كنتُ مثالياً، قذراً رائعاً. حصلتُ على ترقيات لأجل ذلك، دللوني لأجل هذا. كان سكرتير المدير العام يتظارف حين أمرّ. أعطوني مكافآت. وقبل عامين، أعطوني سيارة للشركة، هدية عيد الميلاد، وسكرتيرة إضافية. هدية أيضاً. افعل بها ما تشاء، لكن يجب أن تكون موجودة كل يوم اثنين. آه، آه، آه. لقد جَعَلْتَنا نربح الكثير من المال يا أنطوان، في قضايا السيارات فاعتقدنا أن هذه السيارة ستسرّك. إنها سيارة بي إم دبليو 30 س ي. اثنان وثلاثون ألفاً ومئة وخمسون أورو؛ دنانيري الثلاثين. عدتُ إلى المنزل، أسرعتُ، انزلقتُ على المنعطفات، استعجلتُ عبور شارة

المرور عند اللون البرتقالي، انتصب قضيبي. وعند المدخل، صرختُ لناتالي: وضّبي الحقيبة، سآخذكِ إلى توسكان. كانت أمي تقول إنها أجمل مكان في العالم. جوزفين نائمة، أجابت. طفل نائم وعاطفة نائمة. لم نغادر. ووَجَدَتْ السيارة قبيحة ولونها قبيح.

عملتُ لأكثر من خمسة عشر عاماً بنشاط وثانية واحدة من الرأفة جعلتْ مني منبوذاً. اخترتُ هذه المهنة لإعادة التوازن بين الأشياء، ولأجدَ تلك النقطة من السلام حيث يَتَوَلَّد لدى الطرفين، كما كتب توما الأكويني، انطباع بأنهما توصلا إلى صفقة. آمنتُ بالأشياء العادلة، التهذيب والجمال. الحق في العصيان. آمنتُ «بزمنٍ كان الناس فيه طيبين (. .) لكن النمور جاءت في الليل». دافعتُ عن نفسي بطريقة لم يسبق لي أن تجرأتُ عليها. ضربتُ على الجدران من غبائهم كما كنتُ أضرب جدران غرفتي حين كنتُ طفلاً لأنني لم أعد أرغب بلقاء أبي. تحدثتُ عن عالم يتغير. عن منبعٍ ثرٍّ فيه خمسة مليارات تأمين على الحياة لا أحد يطالب بها البتة. خمسة مليارات! ثروة يمكننا الحصول عليها. بالضبط هذا، الثروة.

لكن الضباع أرغت وأزبدت، وحزّت مخالبُها الطاولة. سينتزعون ذات يوم قلوبها. قاعدة، هذه قاعدة. دفعوا لكم حتى لا تدفعوا، وهذا مكلفٌ جداً إن أصبحتَ سخياً. من السهل يا سيد أن تتسامح بأموال الآخرين. إنني مستعد لإعادة الأربعة عشر ألفاً وثلاثمئة وواحد وثمانين أورو لسيارة الكليو، اقترحتُ بجُبْن. ضحكتْ الضباع هازئة. أخذ الوحش يزمجر في بطني. يريد أن يقفز ويقتلهم جميعاً. فات الأوان، سمعتُ، عليك تقديم وردة صغيرة إلى تلك المرأة الفقيرة الحامل، مَن يدري، ربما ثمن سيارة للفقيرة سيمنحك الحق في قطعة حلوى؟ إذاً، صورة المجزرة في رأسي.

كثير من الدم. نتفٌ من الجلد. يُقال إن الضباع تضحك حين تحدّد مناطق صيدها. لذلك ستعيد إلينا مفاتيح وأوراق سيارة البي إم دبليو، وحاسوبك، وهاتفك النقال، وكل الملفات المتعلقة بتقارير خبرتك. سنبلغ جميع زملائنا بممارساتك. ستتصرف مديرية الموارد البشرية بحيث يمكنك الحصول على قسم من تعويض البطالة. وهذا كل شيء. إن كنتَ غير موافق، بوسعك توكيل محامٍ.

تقارير النفقات

كانت الكلمة تَسْحَرُنا في المرحلة الابتدائية. ومنها كلمة «مؤخرة». كانت نوعاً من الشتيمة، لكن بلا شتيمة، وبلا عقوبة احتجاز. في الاستراحة، نجعل من أيدينا قروناً، أبوك ديوث، أبوك ديوث. كان بعض الأطفال يبكون أحياناً بسبب هذه الكلمة، وبعضهم الآخر يضحك أحياناً، لكن ذلك لم يكن مضحكاً، إنما كان حزناً هائلاً وأبدياً. كانت رقعة من العالم تنهار، كقطعة من طوف جليدي، وتحمل معها جمالها وسبب وجودها، وتجعلهما يختفيان إلى الأبد. إنه شقّ في الصميم؛ الجلد يحترق ولا شيء يخفف عنه. إنها بداية نهاية النفس. بالتأكيد بحثتُ عن تفسيرات. بلا جدوى. عندئذٍ، شعرتُ أنني قبيح، وأصبحتُ قبيحاً. يذبلُ المرء، كما تعرف، عندما لا يعود يختار، يغدو بارياً، يحتقر ذاته، يتجاهلها، يأكل طعاماً سيئاً، يصبح قذراً، يبدأ يفوح بالرائحة. عندها ينتظر ملاكاً عطوفاً، ينكب عليه ويُنقذه، لكن الملائكة لا تأتي. والناس لا تصعد أبداً، وهذا ما يجعلهم ملموسين. يسقطون دوماً، بدرجات متفاوتة؛ أذرعهم ممدودة، أيديهم تتشبث في فراغ أوهامهم، أظافرهم تتكسر. ليست الحياة إلا هاوية سحيقة.

لم أقل شيئاً لـ ف ف لأنني كنتُ خجلاً، ولا لأبي، لأنه

سيشعر بالخجل مني، ولا لآني لأنها ستشعر بالخجل من ناتالي. تحدثتُ عن توترات بسيطة في علاقتنا الزوجية. أحتاج إلى الهواء. أجابوني أن هذا طبيعي بعد الولادة. دعْ الزمن يأخذ مجراه. العلاقة الزوجية هي اكتشاف متجدِّد كل يوم.

حماقات بالمجرفة.

في ما بعد، حين ستسألني أمي عن هذه الفترة من حياتي، حين ستستمع إلى قصتي، ستندُّ عنها ابتسامة ساخرة طفيفة، وستشعل برقَّتها الفائقة الخصوصية لفافة تبغ من مليوني لفافة، ستسعل، وستختنق ببطء في كلماتها: لقد حذرتكَ يا صبيي الصغير، ليس للحب ثِقَلٌ بإزاء رغبة النساء.

اشتهتْ ناتالي الرغبة التي شعر بها مديرها الفني حيالها في وكالة الإعلانات. ذهبتْ معه إلى نيس، إلى توكيه، إلى كابو دوغاتا في إسبانيا، التقطتْ صور الدراجات، الأحذية، من أجل ألبوماتها. ساعات في القطار. سهرات كاملة في فنادق تطلّ على البحر. نبيذ فاخر. فواتير النفقات. أصابع متشابكة. ليالٍ بعيدة عني، عن جوزفين، بعيدة عن حياتنا. وعند الفجر، بعد وحشة الليل، دُوَارَات غامضة، إفطارات أحدهما مقابل الآخر، وشمه الخاص، على الصدر، رمز ياباني يعبِّر عن **فوكيبونبو** (حرية بلا عائق) وهو ما كان يجعلها تفقد صوابها. كان نوعاً من الفنان، وكنتُ مضجراً نوعاً ما. هو يصرخ، يتطلب، يمزّق، بينما أنا أفكر، أتأمل، أعِظ. خانتني ناتالي لأنها كرهت نفسها معي. رغبتْ بمقصورات قياس، بنظرات كهربائية، بلحظات لا تدوم. رغبتْ بالمرات الأولى، بالمرات الأخيرة. كان زواجنا يدعو إلى الديمومة، إلى اليقين، بينما هي تحلم فقط بالحمى، بالسموم - كانت شديدة الشبه بأمي في هذا

الوهم. اعتقدتُ أن جوزفين سَتُولِّدُ هذا النموذج من الحب القادر على تغيير نظام الأشياء، لكن أذرع الأطفال أقصر ممّا ينبغي، أضعف ممّا ينبغي. وحتى لا يسعهم التحكُّم بظلالهم. وبعد ذلك تعبُ الفنان. وإلى **الفوكيبونبو** على صدره، أضاف **إيبيكيوكامي** (وحيد، ذئب وحيد) على كتفه. كانت أمك مفتتنة، لكن آخر بات يصبر في الظلّ. غالباً ما عادت ناتالي إلى منزلنا. بدأتْ جوزفين تحبو، وتتلفظ بعباراتها الأولى. اشترينا كاميرا فوتوغرافية، وحاولنا أن نكون أسرة. ثم مرت ليالٍ أيضاً في الخارج، بسبب العمل. أسفارٌ إلى باريس. تفويت مواعيد قطارات. غرفٌ في فندق تيرمينوس نورد. مربية جديدة. كؤوس أخرى من النبيذ. الوحش الذي يستيقظ. وفي الليل، الرغبة بالخروج، وزجاجة في اليد، حجر، رغبة بضرب النادل الذي يتغوّط عليكم بعينيه لأنكم لم تتركوا له ما يكفي من البخشيش، مغفلٌ قذر، رغبة بضرب عجوز مرت أمامكم في السوبر ماركت لأنها طاعنة في السن، بلهاء، رغبة بهرس صبي صغير خلع لكم كتفكم عملياً أثناء اصطدامه بكم، لأنكَ عجوز، مغفلٌ صغير. رغبة بمصارعة العالم الذي لم تعودوا تحبونه ولم يعُد يحبكم.

رغبة بأن أدَعَ صمتي يفتح فمه، ومن ثم ينام. ينام أخيراً.

ثلاثمئة أورو

وعادتْ أمكَ وجئتَ أنتَ. كانت رحلة مدهشة. احتفظتُ بالصور. أرى جوزفين. تضع القطائف في سريرك. تصممُ رسومات لأجلك، لأجل قدومك. تلعبُ بالدمية، تتعلمُ تغيير الحفاضات - على دمية، وهذا ليس واضحاً في الصورة. أرى أمك أيضاً، جميلة. ممتلئة بك. سمينة جداً، وهذا في غاية الجمال. اعتقدتُ أن السعادة عادت معك يا ليون، ظننتُ أن ماءك ودمك سيغسلان خطايانا، سيوطدان حياتنا. ذات يوم سألتُ أمي إن كانت تحبني فأجابتني وماذا يفيدُ ذلك. ماذا يفيد ذلك. لقد وُلِدْتَ قُبيلَ موتها بوقت قصير، قصة رائحة ورسالة مسجّلة. كانت قد تركتْ بانيوليه دون أن نعلم بذلك. سكنتْ في استوديو صغير في بانتان، إيجاره ثلاثمئة أورو، ركنٌ للعاهرات وبائعي الحشيش، زاويةٌ للآلام. كانت ميتة منذ عدة أيام. أَبْلَغَتْ الحرارة عنها. ذهبنا إلى هناك مع عمتك آنا وعمك توماس. كانت دموع آنا تجرفُ كل كلمة من كلماتها والله يعلم أنها نادرة. توماس يرتعش، لم أره من قبل يرتعش. أرادتْ أختي الدخول أولاً أنتَ يا أنطوان لا ترى جميلة. أنتَ تفهم، يا أنطوان، لم تكن تريدك أن تراها وهي غير جميلة. لكن جدتك يا ليون كانت جميلة، بشرتها صافية، طويلة، رقيقة، وشعرها أصهب

فينيسي، عيونها سوداء، وحين كانت تشعل لفافة تبغها، كان ساعدها رشيقاً كوثبة هر نوريف.

حين خرجتُ من جديد إلى بهو الدرج، قالت آنا هي، وتوماس تكون، وآنا جميلة، ودخلتُ. لا يمكنك أن تتخيل تلك الرائحة؛ العفن يمسح كل ما هو جميل، يندس في جسدك، ولا يختفي البتة. أُصلي حتى يجدوننا بسرعة.

كانت أمي جالسة في سريرها، تمثالٌ نصفي مقابل الجدار، عنقها مسترخٍ، رأسها على كتفها. الأغطية داكنة، جافة، متيبسة. أغطية لحم. تَخَثَّرَ فمها، وشفتاها اللتان تصنعان دوائر في غاية الجمال من دخان المنثولا حاولتا التلفظ بكلمة أخيرة، مقطع صوتي متحجِّر. بقيتُ وحيداً معها، مع جسدها، وعندئذٍ أيضاً، لم أتجرأ يا ليون. لم أجرؤ على الإمساك بيدها، على احتضانها بذراعي، لم أتجرأ على محادثتها، أن أقول لها الكلمات الأخيرة. لم أجرؤ على لمسها، وتقريبها مني. لم أجرؤ على إصدار صوت ولا التلفظ باسمها. لم أكن أبكي موتها، كنتُ أبكي جبني، مخاوفي، أبكي كلّ ما لم تعلِّمني إياه وما لم أغامر لتعلُّمه بسبب ضعفي.

تركتني أمي في فوضى لأصبح رجلاً، تخلت عني لأعثر على نفسي، أحبتني على طريقتها، في انفصالها، ولم أكن أعرف ذلك.

هذا هو الحب الذي نشتاق إليه يا ليون. أمهاتنا.

خمسة فرنكات

استنتج الطبيب أنها سكتة دماغية. قنبلة في الرأس نُزِعَ صمام أمانها. لعلّ ذلك حدث لسبب آخر، شرحَ، التهاب رئوي حاد، مرض الانسداد الرئوي المزمن، كانت أمك مهترئة جداً.

آخر مرة رأيتها فيها على قيد الحياة، كنتُ في الثلاثين من عمري - قبل عامين من الانفجار. كانت لا تزال تعيش في بانيوليه. بهو بناء قذر. كتابات على الجدران. روائح مفرقعات. روائح غائط متعفِّن. شقة صغيرة، غرفة، رائحة تبغ مرهقة. طرقتُ الباب، صاحتْ إنه مفتوح، فدخلتُ. أصبح شعرها أشيباً. ابيضّتْ بشرتها أيضاً. لو أنها كانت في سن العشرين، لو أنها بقيتْ معنا، لو أنها كانت سعيدة، لأعطتها الدوائر السوداء حول عينيها هيئة امرأة متبرجة بالكحل الأسود. لم تتعرف إليّ. أنتَ، ماذا تريد؟ أنا أنطوان يا أمي. عندئذٍ، رفعتْ عينيها المنهكتين، رسمت ابتسامة، ليتكَ أخبرتني يا صغيري، لكنتُ تَجَمَّلتُ. أخبرتكِ يا أمي، أرسلتُ إليكِ خمسين رسالة، مئة رسالة، طيلة هذه السنوات لأستأذنك بالمجيء لرؤيتكِ، ولأقول لك إن الأمر كان قاسياً علينا، أنا وآنا، من دونك، وأن الحياة كانت باردة؛ لأطلب منك أن تعودي لتعيشي معنا. وأنتِ لم تجيبيني قط، حتى عندما أرسلتُ لكِ رسائل مسجلة، كان صمتكِ

يصرخ بأنكِ لا ترغبين بنا. لكنني لم أقل شيئاً. جبان، ابن جبان. هل تريدين مني أن أعود في وقت لاحق؟ حسن، ها أنتَ هنا الآن. تفضل بالجلوس. هيا، تناول البيرة من البراد واحكِ لي عن أحوالك. حدَّثتُها طويلاً. الطفولة من دونها ومن دون آني، مخيمات الصيف، آنا وتوماس، زواج أبينا. زوجته في سريركِ، عبوات مساحيق على طرف مغسلتكِ، في الحمام. هداياها البالية عندما كنا أطفالاً جبني بصحبة فريدريك فرومان، مهانتي مع الفتيات. وناتالي، أول حب صاعق في حياتي.

عندما مال رأسها جانباً لأنها نامتْ، تابعتُ. ولادة جوزفين، مهنتي، الحيوات التي حَطَّمْتُها. افتقادي لكِ يا أمي، رائحة المنثول التي طلبتُ من أبي أن يصنعها لأجلي، ورحتُ أستنشقها كل مساء قبل أن أنام، فتذكرني بيديك الجميلتين اللتين أحبهما مع أنهما لا تلمساننني البتة. وبعد ذلك، لُذْتُ بالصمت. أخذتْ تتنفس بقوة، وصار رقادها قلقاً. تحبُ الأشباحُ البؤسَ، كما تعلم. كانت توجد على الطاولة قوارير بيرة، صحيفة قديمة، بضعة كتب مهترئة الكعب لمحبوبتها ساغان. وعلى الجدران ثمة بقع رطبة، شكلَتْ إحداها رأس خنزير بري صغير. خداعٌ بصري. جعلَتْ منها إقليماً إيطالياً، ودوَّنَتْ عليها الأسماء المدهشة، فلورنس، براتو، سيين، بيز، أريزو، الرحلات التي قامتْ بها وحيدة، بلا حقيبة وبلا جواز سفر، ومن دوننا، من دون أي شيء. جهاز تلفزيون صغير على الأرض، موصول بهوائي الشقة المجاورة. زاوية المطبخ، لوحة الغاز، نظارات. شعرتُ برغبة في البكاء، لأغدو ابناً أخيراً، لأحتضنها بين ذراعي وأصحبها بعيداً عن هنا، في رأس خنزير بري يشبه توسكان وأقدِّم لها رحلة أخيرة في الجمال. وليس في القذراة. ولا الرعب.

نهضتُ ودخلتُ إلى الحجرة. فراشٌ كبير على الأرض، أدوية، قارورة ماء فارغة وهناك على مستوى السرير، صورتان فوتوغرافيتان معلقتان بدبوس قرب نعل الجدار. الأولى صورة فوتوماتون بخمسة فرنكات، مع ستارة خلفية متماوجة. كنتُ في سن السادسة تقريباً، شعري مُسَرَّحٌ بعناية، قميصٌ أبيض، ياقة مزررة. التقطناها أنا وأمي من أجل نادي الجودو. كنتُ سعيداً معها في ذلك اليوم. قالت لي إنني وسيم. وأنني سأحظى بحياة جميلة. وأن جميع النساء سَيُغْرَمْنَ بي وأنني إن أحسنتُ التصرف - بلا مبالغة في الشعر، يا أنطوان، ومع شيء من العضلات وكثير من الوقاحة - سأغدو ملكاً. تبدو في الصورة كأنك الله في هيئة رجل صغير، عَلَّقَتْ قبلَ أن تَطْبَعَ قبلاً صاخبة على سلسلة صور بالأبيض والأسود، واصطحبتني إلى بالاس وأدخلتني إليها سراً. اشترتْ مثلجات مخروطية وشاهدنا فيلم المهم هو الحب. بكتْ جمال رومي شنايدر وأرعبتني كلود دوفان. تمددتُ على الأرض، في الصف، حتى لا أرى الصور وأمسكتْ يدي طيلة الفيلم. يومذاك، كنتُ أسعد صبي صغير في العالم.

الصورة الثانية تظهر الأختين التوأم وهما تضحكان في حديقة منزلنا. كانتا في سن الثالثة أو الرابعة، ترتديان فستانين ورديين شاحبين. تشبهان حبتي حلوى.

أخذت أمي تسعل فهرعتُ إليها.

ماذا كنتَ تقول يا أنطوان؟

تدوير إلى الرقم سبعمئة

في عطلة نهاية الأسبوع تلك، كنتما أنتما الاثنان معي. جسر الأول من مايو. كانت ناتالي قد ارتبطت بالمدير الفني الشهير منذ بضعة أشهر، المدير الذي أثرى حياته الصغيرة بصورة رمزية جديدة، على ساعده هذه المرة، **إيكشيوسوري** (قبلة، تزاوج). كنا قد أسهبنا في الحديث. شربنا نبيذاً. بكينا. احتضن أحدنا الآخر. خفنا. شعرنا بالبرد. تذكرنا ولادة جوزفين، أظافرها الصغيرة المثالية، رموشها الطويلة، فمها بلون الفراولة. الأشهر الرهيبة التالية. الإجهاض. الليالي على الأريكة. عطر الآخرين. ومن ثم التئام الشمل، وأخيراً مجيئك يا ليون.

بكينا حياتنا الفاشلة، واحتراق مقصوراتها. حاولتُ إخراس العار من وظائفي الجديدة: **عاطل عن العمل، دون عمل**. أرادتْ الاعتذار ولم أرغب باعتذارات. قَبَّلَتْ شفتيّ للمرة الأخيرة. كانت قبلة مديدة، قوية، محمومة. همستُ لها لآخر مرة أنني أحبها، فاحمرَّتْ خجلاً، ورحلَتْ. فيما بعد، سينضم الأطفال إليها، عندما سيتذكر المدير الفني أنّ لديها طفلين وعندما سيوافق على تخصيص مكان صغير لهما.

وبانتظار ذلك، بذلتُ أفضل ما عندي، أي على العكس من أبي.

تعلمتُ استخدام الغسالة لغسل البياضات، والحرص على عدم خلط الغسيل الأبيض بالملون. ماء جافيل للحجر الكلسي. صابون بريوشان الأسود للفرن. الزيت في ماء العجينة لئلا تلتصق. تعلمتُ الإجابة عن الأسئلة التي تطرحانها أنتَ وأختك كل يوم (لماذا تمطر يا أبي؟ لماذا السنة من حياة كلب تعادل سبع سنوات من حياة إنسان؟ لماذا لم يعُد لديك عمل؟) تعلمتُ أن أقول لكما أحبكما عندما تعرضان عليّ رسماً، ربطة عنق معقودة بمهارة، غرفة جيدة الترتيب.

حاولتُ أن أعطي ما لم أتلقاه.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك، وكما يحصل دوماً في أيام العطل والأيام البائسة، بدأ أحد أجهزة التدفئة يُسَرب، ثم أخذ الماء يتدفق. صرختَ: بابا، بابا، هناك بركة في الصالون! لقد تعلمتُ اسم أبعد كوكب عن الأرض، نبتون، وأقرب كوكب إليها، الزهرة، لكنني لم أتعلم إصلاح تسرب. ظهرتْ جوزفين، وهي في غاية الفخر، حاملة بيدها واحداً من آلاف الكراسات الإعلانية التي تُدَسُّ بانتظام من تحت باب منزلنا. صبية، ماء. اتصلتُ. بالتأكيد. ليس ثمة مشكلة. خلال خمس عشرة دقيقة. هل تتذكرْ رأسكَ عندما دخل عامل التمديدات الصحية؟ تراجعتَ إلى الخلف. كان يشبه مصارع السومو. سبرتْ عيناه المنتفختان جرح جهاز التدفئة. ثم أخرج مفتاحاً من جيبه وبعد عشرين ثانية من المصارعة، توقف الماء عن الجريان. بعد ذلك أراد التحقق من جميع الأجهزة الأخرى في المنزل. قد يحدث هذا لأي واحد منها. راقبَ طرادة الماء. الخطر

في كل مكان. وصل الماء إلى المطبخ، وصل إلى الحمام، آه، تَلَفَّظَ بوضوح. أحتاجُ إلى وصلة دائرية، وهي ليست لدي. وصلة دائرية؟ وإلا ستتصل بي بعد ثلاث ساعات، سيصبح حمامك مسبحاً. آه. أجل، كثير من الضغط بسبب حادثة جهاز التدفئة. جهاز التدفئة، عجباً. وماذا يمكن أن نفعل؟ سأتصل بزميلي، سينقذني من الورطة. جلس السومو عندئذٍ على أحد كراسي صالة الطعام فخنقتْ أختك صرخة، لكن الكرسي تحمل وزنه. أخرجَ قصاصة ورق وقلم رصاص من قاع جيبه، ووضع أول رقم: ثمانون أورو. بعد ذلك، مواصلات، يوم عطلة إضافي، خمسة وثلاثون أورو، ثلاثون أورو، ضرب ثمانية، مئتان وأربعون أورو، إصلاح وصلة جهاز التدفئة التالفة، ثلاثة وخمسون ونصف أورو؛ يد عاملة: وصلتُ في الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق والآن الساعة الحادية عشرة والنصف، لن أحاسبكم إلا بنصف ساعة، خمسة وسبعون أورو، إضافة إلى مكافأة يوم العطلة، خمسون بالمئة، سبعة وثلاثون ونصف أورو. كدتُ أقول شيئاً من قبيل، أنتَ تمزح، حين رنَّ جرس الباب. ابتسمتْ شفتا السباك الفضولية. إنها الوصلة الدائرية، وهي ليست مرتفعة الثمن الوصلة الدائرية، ثلاثة وتسعون سنتيماً، مواصلات زميلي، ثمانون أورو، لن أحاسبكم عن الاستراحة ولا عن إضافي يوم العطلة، وضريبة القيمة المضافة أعلاه، الإجمالي، تاك تاك منتزعة، أيضاً، أسحب، أقتطع، حسن، سبعمئة وتسعة عشر وثمانون، أُدَوِّرُ الرقم إلى السبعمئة. أوشكتُ على الاحتجاج لكنه وقفَ واتجه نحو المدخل ليفتح لزميله. كومة لحم أخرى.

عندئذٍ فهمتُ. لقد خُدِعْتُ وأكلتُ الخازوق حتى حلقي، كما يقول ف ف ف مع عجوز السوبر مارشيه، وسائق الأجرة العامة الذي

يسلك الطريق الأطول، والشرطي الذي ينظم غرامة بخمسة وثلاثين أورو لأنكم أطلقتم زموراً خلف سيارة تُركنُ على طريق مزدوج، لأن الزمور يا سيدي لا يستخدم إلا في حالة الخطر المباشر، المادة R416-1 من قانون السير. أما هو، هنا، أمامك، له الحق أن يركن سيارته، وأن يعيق الجميع! الأوراق يا سيدي، تَرَجَّلْ من السيارة.

كل هذه الابتزازات، كل هذه الإذلالات، كل هذا العار. سنواتٌ عجاف، طفولة مكلومة، غضبٌ مكبوت.

ثم ذات يوم، نظرة أطفاله، هذه المسافة العجيبة الآن. ازدراؤهم المهذب، الحَذِرْ؛ أنتَ لستَ بطلاً، انتهى الأمر، ولن تكون كذلك أبداً. سألتْ جوزفين، لماذا دفعتَ يا أبي؟ فورَ أن غادر الوحشان. إنهما لصّان قذران، كان ينبغي استدعاء الشرطي. الشرطي، حارس السلام. الأوهام المفقودة. وأنتَ تبالغُ بالأمر: أنا، اللصوص، سأكسر أنوفهم. قطرة ماء.

يومذاك يا ليون، استيقظ النمر، ولم ينم بعدها أبداً.

ثلاثمئة وتسعة وتسعون وتسعة وتسعون

كانت 52 تناسبه كقفاز. لم يزل ينحل لكنه بدا مستقراً على هذا الحجم. بزة جميلة زرقاء غامقة ماركة برانس دوغال، ثلاثمئة وتسعة وتسعين أورو وتسعة وتسعين سنتيماً. استعاد هيئته، والرشاقة التي تمتعَ بها في صور زواجه مع أمنا بالأبيض والأسود، في 14 فبراير البارد، منذ ألف عام، عندما لم نكن قد وجدنا، عندما كان كل شيء ممكناً، وعندما كان حبهما يُجمِّلُ حياتهما. لكنني جئتُ وبددتُ أحلامهما.

كنتُ بداية النهاية.

لا أعرف ننتظر يقول الدكتور إنه لا مجال للإتيان بأي عمل فهو من يقرر في النهاية هو وحين أقول هو فهذا شيء أما الآن فهي مَن لها الكلمة الأخيرة لذلك ترى أن والدك قد يظل هنا غداً ولمدة شهر وستة أشهر وست سنوات وقد يرحل بعد قليل لا نعرف شيئاً عن ذلك لم نعد نعرف شيئاً وعندما أسأله ما الأنسب له وما الذي يرغب بالقيام به قبل هذا الشيء المرعب ينظر إلي مبتسماً ابتسامة ليست خبيثة لكنها أيضاً ليست لطيفة حقاً لا أعتقد أنها ابتسامة حزينة سوداويةُ الحياة لم تعد تمنحه الرغبة لا يجيبني أتمنى لو يقول لي ما

يرغب القيام به قبلَ لكن لعله يريدني أن أغادر ولعله لا يجرؤ على قول ذلك يصعبُ على المرء أن يقول لشخص ما إنه لم تعد هناك حاجة إليه هذا صعبٌ جداً ويحرق بشدة إنه مرير أن يُهجرَ المرء ممن لم يحبونه كفاية.

ما يكفي لدفع الإيجار

بقينا أنا وتوماس وآنا في بانيوليه لبضعة أيام. طرحنا أسئلة على الجيران. امرأة لطيفة. رصينة. عاشتْ أشهراً مع شاب يصغرها في السن. ثم مع آخر بعد ذلك، لكنه لم يكن ينام هنا، ربما كانت لديه أسرة. كان يصرخ أحياناً، لكن لم يشتكِ أحد. إذا اشتكى أحد هنا، فسيجد صندوق بريده محترقاً، وقمامته على باب منزله، وقطه ثملاً تماماً.

أنا، كنت أحبها حباً جماً، وبالتأكيد كانت جميلة للغاية. كنتُ أقول لها دوماً إنها تُسرف في التدخين. عرضتْ عليّ كتب مدام ساغان. إنها رائعة، أحببتها كثيراً.

عملتْ في الليدل في جادة غامبيتا، كانت تذهب في الساعة الرابعة أو الخامسة كل صباح لتنظيفه، وبما أنها كانت تخاف آلة تنظيف الأرض الكبيرة، كانت تنظّفها يدوياً بواسطة ممسحة. كانت تقول إن يداها كانتا جميلتين سابقاً. كانت امرأة شجاعة. لا لم تتحدث البتة عن حياتها المنصرمة. وحتى لم أكن أعرف أن لديها أطفال. لكنني رأيتُ أنها تألمت. لم تكن تتذمر قط. بعد الظهر، كانت تنظف منزل الدكتور هامبير، قرب حديقة جان مولان. كان يعاملها معاملة جيدة. كانت مسرورة هناك. هم مَن أعطوها التلفاز

الصغير. كانت تعشق مشاهدته وتقول إنها تفتقد ليون زيترون وأنه كان يتمتع بسرعة وعبارات أكثر من «لاعبات» اليوم. رحلتْ عندما فصلوها من الليدل. فصلوا الجميع على أية حال، حتى الشباب الأقل أجراً، حثالة، أنا أقول لك ذلك. لم يعد لديها المال لدفع الإيجار. آسفة. لا أعرف أين ذهبَت، ولم أسمع أخباراً عنها.

إذاً هكذا، كانت أمكم؟ ولم تأتوا من قبل للبحث عنها؟

ثلاثة وخمسة وتسعون، ثمانون

شعر توماس وآنا بالقلق لأنني لم أجد عملاً. أجريتُ عدة مقابلات، دونما نجاح. كانت سيرتي الذاتية تنتهي إلى سلة المهملات، وانضممتُ إلى الثلاثة ملايين ونصف شخص الذين سبق لسيرهم الذاتية أن أُلقيت في المهملات. غالباً ما دعتني آنا إلى العشاء، يجب ألا تبقى وحيداً، الصمت ليس جيداً، كانت تقول، إنه يستحضر أشياء سيئة. كانا سعيدين معاً منذ سن السابعة، قبل خمسة وعشرين عاماً. كانا جميلين. لم يعودا يفترقان كثيراً في سن السادسة عشرة. جاء توماس إلى كامبري وعاش عندنا. جلبَ لنا السعادة، ونأتْ العواصف عنا وصار أبي يبتسم أحياناً. انتهينا إلى بعض التسويات مع زوجته. لم نعد نبكي غياب أمنا. أصبحنا راشدين؛ شكل آخر من الفظاظة. ثم غادرتُ منزلنا لأعيش مع ناتالي. قصة حبي العظيمة. قرر توماس وآنا مبكراً ألا ينجبا طفلاً، وحين سَأَلَتْهُما زوجة أبي ذات مساء عن السبب، أجابا بأن ثمة أحزان لا بد أن تتوقف معهما. درسا بعد إتمام المرحلة الثانوية في كلية الآداب بجامعة ليل الثالثة. ثم بدآ يكتبان الكتب – متعاونين. مثل دولي. نيسي فرانش. قصص تنتهي نهاية سعيدة. وليس كما الحياة.

اقترح عليّ توماس ذات يوم وهو يبتسم، اكتبْ كتاباً، هذا

سيخفِّف عنك. أووف، لستُ مؤهلاً لذلك. لا تصدق هذا يا أنطوان، كان سيوران يقول إن ينابيع كاتب هي إحباطاته.

منذ فصلي من العمل، أخذت ناتالي تحتجّ لأنه لم يعد بوسعي دفع نفقات كبيرة. راحت تطالبني ببيع منزلنا، وبنصف المال، وأكثر من ذلك أيضاً. كنتَ أنتَ وجوزفين قد وُلدتما. أصبح المدير الفني بطلكما. كان موشوماً. دخيلاً. يدعى أوليفييه، على اسم شجرة في الجنوب، شجرة زيتون، وكان يذهب إلى البحر لالتقاط صور للخفوف وصور لحقائب الظهر في الجبال. بحث ف ف ف عن مكاتب أخرى لأجلنا، ببدلات إيجار أقل. كان يقول، يجب أن تحتفظ بمكتب، وهاتف، وباسمك على الباب. يجب أن تبقى في ضجيج العالم، وإلا ستلتهم فكرة البطالة بروستاتك، وتنكح قولونك. ابقَ في الفظاظة يا أنطوان، فالغضب يصنع التماسك.

لم نعُد نتسكع كل مساء، لم نعُد نذهب لاحتساء البيرة. صار يعود باكراً. ولم يذهب بعد ذلك لوحده في مهمة، أخذت فابيين زمام الأمور بيدها، ولم يعُد يشرد بالمجزرة الصغيرة في فمه. اذهبْ لزيارته، أنتَ، هذا سيسليك، يا عزيزي أنطوان، تبدو محصوراً على وشك التغوط، في حالة مزرية، هنا، ببؤسك وقميصك المجعد وأحذيتك الرياضية البالية، هذا لا يثير الحزن، تصور. أما حين تنتظر لقاء فتاة لطيفة، حين تبدأ في تخيّل حياة جميلة، حين تترقب استعادة احترام أطفالك، فستقابل صغيرتك، قم بذلك.

لكنني لم أتجرأ. لم أجرؤ قط.

صرتُ أعود دوماً. أسخن وجبة من مطعم بيكار، لشخص واحد، طبق أرز إسباني، بثلاثة وخمسة وتسعين، دجاج كورما ورز بسمتي، بثمانين. أصبحت يديّ ترتعشان، وتركتا حالتي السابقة تفر.

صرتُ أبكي أحياناً لأنه بدا لي أنني كنتُ شخصاً جيداً، في لحظة، شخصاً شريفاً في مهنتي، نزيهاً في عائلتي، حاولتُ إنقاذها، حاولتُ الاعتذار وخانني جُبني. سعيتُ للعثور على أمي لكنها لم ترغب بذلك، وفضلتْ قسوة الوحدة على غياب الشغف، وقَبِلَتْ السقوط لئلا تصعد إلى أعلى بشكل كافٍ. استسلمتْ تماماً للحياة في حين أنها ودتْ لو ماتت من الحب.

لمحة تاريخية إن لزم الأمر، قالت، لكنها أقوى من أن تستطيع الموت، وعليها أن تموت بعد ذلك بالضبط. لا شيء آخر غير ذاك الحب، يا صغيري العزيز، لكن النقصان لا يمكن أن يُعَد[1]

حَوَّلْتُ كراهيتي عن والدي إلى نفسي. تركتُ له فرصة، فانتهى إلى الابتسام، ثم إلى التذكر. أسِفَ على ما كان يمكننا أن نغدو عليه. كان الألم ينخره في كل ثانية إلا أنه رغب في إعادتي إلى زمن باتريسيا، إلى زمن الأشياء الجميلة. راح يطلبُ المغفرة على طريقته. احْتَضَنْتُه بين ذراعي في ذلك المساء، وضممته إلى صدري، مثلما يفعل أحياناً أب مع طفله حين يقع ولا يستطيع النهوض لوحده. بكيتُ وهمستُ له بما لا يمكن تصوره: اشتقتُ إليك كثيراً يا أبي. أجهشتْ زوجة أبي بالبكاء، والتجأتْ إلى غرفتهم. بقينا وحيدين، أنا وأبي، وفركَ عينيه الحمراوين. دفق دموي في أوعية عينيه. كلب عجوز.

أنا أيضاً يا أبي، راودتني رغبة بالموت أحياناً.

---

(1) سفر الجامعة، 1.15.

ألف

إنه من أميركا. مخترعو رعاة البقر. شركة سميث وويسون. صواريخ ستانغر. سيارة الهمر. المفتش هاري. إنه قوي يا هذا. معداتٌ ممتازة. بواسطته، يا غلامي، تصنعُ ما تريد من ثقوب على مسافة خمسة أمتار. وعلى بعد متر، تفتت إلى شظايا. صفيحة حديد. جمجمة. لحم. مسدس عيار 22. خمس طلقات. قليل الارتداد. شيء بارد. النساء يتولّهن به. يمكن إخفاؤه في كيس بسهولة. حصلتُ على واحد منه. مستخدم لمرة واحدة، في مرسيليا. ليس ثمة أثر. ولا رقم. بِكْرٌ من عند بِكْر، يا رجل. هيا ادفع الصدقة، ليس لديّ ما أفعله إلا هذا. ألف، قال.

تجرأتُ للمرة الثانية. تجرأتُ على المجازفة في أحشاء حيّ ليل سيد، في الدهون، على الطرف الآخر من الطريق السريع. ولجتُ أمعاءً غامضة، كما في قطار شبحي خبيث. دفعني، اقترب، هدد. سألني عمّا أريده. منشطات. نساء. حواسيب محمولة. سلاح حربي. همستُ مرعوباً، سلاح حربي. كدتُ أتغوط في ملابسي، كدتُ أن أُفَرِّغ هناك، أن أذوب في القذارة.

هذه بألف، غداً في النوش، حديقة لافنتور. سنجدك. وإن لم تأتِ، سنجدك.

تقيأتُ وأنا عائد. لم أستطع النوم. تخيلتُ أنهم سيسرقونني، سيسلبونني. أو سيشون بي. لعلهم من الشرطة السرية. إنني من النوع المسالم، أعرف هذا. سبق أنْ قيل لي ذلك. سبقَ أن تلقيتُ طعنة السكين تلك. ولهذا السبب بلا شك عدتُ في اليوم التالي إلى هناك، إلى حافة الهاوية. بسبب الخزي والإهانات. وفي جيبي ألف أورو.

كما ترى، تمكنتُ أخيراً من فعل شيء لم أكن أجرؤ على فعله. يمكنني أن أعبُر خارج ممرات المشاة، إن شئتُ. أن أشير بإصبعي إلى فرج امرأة، أن أقول تباً لمرة. ولمن أشاء. تباً لأمك إن شئتُ. سألوطك يا ناتالي، وأنتَ أيضاً، أيها الأحمق الموشوم. سألوطك. سألوطك. هذا يعني ليزوكيرا في اليابانية، وكما ترى، أنا أيضاً أعرف أشياء. سألوطكم جميعاً. يجتاحني الغضب، يرعبني، يجعلني في حالة ثمل.

عَدَّتْ أصابعُ شبحٍ أوراقي النقدية العشرين من فئة الخمسين في أقل من اثنتي عشرة ثانية. وفي الثانية الثالثة عشرة، أصبح لدي مسدس ريجر LCR-22 في جيبي.

ستة أشهر مأجورة

عدتُ لرؤية والدي. بدا وسيماً في بزة برانس دوكال؛ آخر صورة فوتوغرافية جميلة. كانت عيناه تبكيان.

لم تزل عيناه تبكيان ولا أدري الآن إنْ كان ذلك بسبب الأدوية أو الحزن الأبدي وما إن كنتُ أنا من سببتُ له هذا الحزن لأنني حية فأنا كلّ ما سيفتقده هل تعتقد أن ابتسامته ستعود؟

طَمْأَنْتُهُما، هو وزوجته؛ ابنٌ كذاب. أجل، أنا على خطاه، في الأشياء المهمة، أجري الكثير من المقابلات، وربما سأشارك في لجنة تحقيق حول لائحة الفحص الفني للسيارات.

أنت موهوب يا أنطوان هذا ما لم يكفّ والدك عن تكراره على مسامعي من المؤسف أنهم طردوك من عملك ولا بد أن ذلك صدمك ابن عمي طُرِدَ من متجر فالوريك ولم يعد إليه قط غادره مع راتب لستة أشهر واستمر ذلك ثلاثة أشهر وانتهى الأمر.

كان كلاهما يلمساننني، في منامة حياتهما الصغيرة. حركاتهما بلا أهمية. لطفهما الحذر لئلا يزعجاني. كان أبي سعيداً في التواضع والحميمية؛ لم يبسط قط جناحيه، ولم يخض سباقاً على طوف ليلتقط قارباً. أمسك يد أمي وسرعان ما تركها لأنها كانت تلتهب. تنازل عن حنانه نهائياً من أجل الشعر، وعن أحلامه العلمية وجائزة

نوبل. بقي عند لابشان، وأمضى حياته في صناعة آلاف المنتجات وارتدى كل يوم رداءه الأبيض. وفي منزله، كان يرتدي ثوب راهب وكان ثوبها ضيقاً.

شاهدنا نحن الثلاثة **أغاني تحت المطر** ثم انتهى الفيلم، قبلتُ والدي وقبلتُ يديه. شكرتني زوجته على عتبة الباب، أنتَ ابن بار، لقد أسديتَ له معروفاً.

ابتسمتُ لها. أنتِ شخص جميل يا كوليت.

عندئذٍ، خنقتْ صرخة، لأول مرة منذ ثلاثين عاماً تناديني باسمي.

تعشيتُ لآخر مرة عند آنا وتوماس. حين غادرتُ، همستْ لي آنا بشيء ما، **اختر يوماً**.

مكتبة الرمحي أحمد

اختر يوماً. وابتلعني الليل.

كل ذهب العالم

في النهاية، ليس سيئاً أن أمك غادرتْ إلى لوغات من أجل صور ألبومها الربيعي. تركتنا أسبوعاً، لوحدنا فقط، واستطعنا أن نملأ بعضنا بعضاً. رأيتُ كيف أصبحتْ أختك مضحكة. بالأمس، قلَّدَتْ زوجة أبي، راحت تتكلم مثلها، مثل رشاش، دون توقف، دون تنفس حتى كادت تختنق وتسقط أرضاً، كان هذا رائعاً. أنتَ، أكثر تحفظاً يا ليون، تطأطئ رأسك، تستخدم كلمات أقل، إنك مثلي، تعيد الأشياء إلى نصابها. تحتفظ بها. ذات يوم، كان هذا ثقيلاً للغاية. آمل أن تكون سُرِرْتَ. كان نهاراً جميلاً، اليوم، أجمل من جميع الأيام، أجمل من حياتنا كلها، أجمل حتى من يوم ولادتك. كان نهاراً ساحراً. لا يمكن للمرء أن يشعر بالأسف بعد نهار مثل ذلك النهار. هل تعرف أن عطيل، وهي كعكة المرنغ بالشوكولاتة في محل مونتوا، كانت تسمى رأس العبد سابقاً؟ غيروا اسمها بسبب **العبد**. بسبب ما قد يقال وما لا يقال، لكن يمكن الاستمرار في وصف المرء بالأبله، وتحويله إلى غائط، وأن يُهْجَر بلا سبب. أن يستمر في المعاناة وحيداً. هكذا هي الحال. يفكرون بدلاً عنا. ينبغي عدم التذمر. هذا لا يجعل الحياة سعيدة، لكن الأمر انتهى الآن. يجب عدم الإصرار أحياناً. يحاولون أن يرددوا على

مسامعك بأنه لا بد من الشجار، هذا هراء. بوسعك أن تحظى بكل ذهب العالم، هذا هراء. انظرْ إلى أبي مع السرطان العاهر الذي يلتهمه. لن يربح. سيلتهمه، هذا كل شيء. سيغطس في القبح. في القذارة. عليك أن تعرف كيف تتوقف يا ليون. إنها هدية تُقَدَّم لنا: أن تعرف متى النهاية. أن تلقي التحية وأنت تغادر. أن توجه بعصة بإصبعك. أن تقول لهم إنكم لن تعودوا تؤذونني.

اليوم أتوقف يا ليون. أغادر. رحلتْ أختك منذ قليل. بكيتُ حين وضعتُ الوسادة على رأسها. إنها في غاية الجمال. كانت يدي ترتعش. لم أكد ألمس الزناد. ارتداد مدهش. أعرف أنها لم تتألم. لم أتألم. حدثَ هذا بسرعة فائقة. سرعة فائقة. لستُ حزيناً. لا يمكن للمرء أن يحزن حين يعرف أنه لن يتألم ثانية. وأنه لن يتألم أبداً. مثل أختي الصغيرة آني التي لم تستيقظ قط. أقول لكَ وداعاً. أقول لك أحبك. وإذا ما سقط المطر لبضعة أيام، فذلك لأن تان فصَل بين أبويه. دفع بابا بذراعيه ورانكي بقدميه، حتى فرّقهما. رانجيفي أصبح الأب السماء. وباناتينكي أصبحت الأم الأرض.

المطر يا ليون، هو حزني الفسيح.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

وصرخت جوزفين بابا، بابا، نزفتُ الكثير من الدم، فمي يؤلمني.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الرغبة في القتل أو تحطيم وتدمير كل شيء من حولك هي دوماً رغبة مبطنة برغبة هائلة للحب ولتكون محبوباً، برغبة هائلة للانصهار مع الآخر وإذاً لخلاص الآخر[1]

(1) لويس ألتوسير، المستقبل يستغرق زمناً طويلاً.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القسم الثاني

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

1922

اسمه فندق **دوسكونوسيدو**. يقع على الساحل الغربي للمكسيك، على بعد ستين ميلاً من مدينة بيرتو فالارتا، في قلب محمية طبيعية. كانت دعائم **الأكواخ العائمة** مغمورة بالمحيط الهادئ، بمنتهى الدقة، كأقدام بعض النسوة اللاتي يسبرن حرارة الماء في حمام. ثمة حانة تقدِّم شراب **دماء ورمال**، كوكتيل اخترع عام 1922 لفيلم يحمل الاسم ذاته (مع رودولف فالنتينو). قصة مصارع ثيران. شغف جامح. دم ورمال. اثنا سنتيليتر من الويسكي، اثنا سنتيلتر من سائل الكرز، اثنا سنتيليتر من النبيذ الأحمر فيرموث، اثنا سنتيلتر من عصير البرتقال. وقشور حمضيات للزينة. طلبتُ قدحاً ثانياً. تدور شفرات المراوح برفق فوق رأسي. نسيم هادئ، منتظم. يجلس زوجان نرويجيان هناك، كما في كل مساء. يشربان شمبانيا ولا يتحدثان.

بعد قليل، سيأتي هندي وابنته ليتناولا السمك الطازج، والخضار التي جُلِبَتْ من القرية. ليس ثمة نافذة، وإنما فتحات واسعة فقط. أصبحتْ درجة الحرارة ألطف الآن. الشمس برتقالة ضخمة. تَلَوَّنَ قدحي بلون النار. ستغرب عمّا قليل في البحر وسيحلّ الليل. غادر الوحش. لم تعُد الليالي تُرعبني. إنني هنا منذ أربعة

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أسابيع. تركتُ النقود مع مَن رافقني ليُطعمني. ليغسلني. ليساعدني على استعادة بعض الوزن. تفوهتُ بكلماتٍ قليلة جداً. طفَتْ لغتي الإسبانية التي تعلمتها في المدرسة ببطء على السطح. أخذت عباراتي تتمدَّد كل يوم. أخطائي تثير الضحك. يقدمون لي الكلمات كما العكازات. يودّون لو أفلح في التفاهم. هنا، رجلٌ لا يجيد التعبير هو حيوان. غبي. تعلمتُ النوم من جديد في الليل. مشيتُ لساعات على شاطئ المحيط، بخطى وئيدة لقاتل مهووس، ولم يفلح الإمساك بي. تركتُ مَن أحبهم يغادرون. كانت عينا أبي لا تزالان تبكيان حين افترقتُ عنهم جميعاً. كانوا أحياء. لم نعد بحاجة إلى وجوده.

إنني مجهول هنا. ليس لدي ماضٍ. لم أمسك مسدس روجر قط في يدي. لم أضغط من قبل على الزناد. جئتُ من أوروبا، من فرنسا. آه، باريس، باريس!

لم أزل أنحل إلى حدٍّ ما. اسْمَرَّتْ بشرتي بتأثير الشمس خلال الأسابيع الأخيرة. على الصدغين، بدأ شعري يشيب. وراح الأخضر الذي أحبَّته أمي يلتمع في عيني من جديد.

دوسكونوسيدو. تعني غير معروف.

15

أيقظتْ الصرخة ليون. صرخ بدوره حين رأى وجه أخته المدمى. اكتشفتُ أن السلاح بيدي. الوسادة في اليد الأخرى. فأسرعتُ نحو جوزفين. اخترقتْ الرصاصة الفك، وعرّتْ العظم. انهارتْ ابنتي بين ذراعي. اطلبْ الإسعاف يا ليون. اتصل بالرقم 15. بسرعة. قل إنها إصابة بطلق ناري. في الوجه. طفل. أسرع. أسرع.

بعد ست دقائق، تدمرت حياتنا.

وصلت الشرطة. عزلتني عن أطفالي. حاولتْ الوصول إلى ناتالي. دون جدوى. عندئذٍ استدعتْ زوجة أبي. أوفدوا لها سيارة. استدعوا أطباء آخرين. ردّ بعض رجال الشرطة الجيران الفضوليين إلى منازلهم. نقلتْ سيارة الإسعاف جوزفين إلى المشفى الجامعي.

في المطبخ حيث احتجزوني، نظر إليّ الحارس مشمئزاً في البداية. ثم بحزن لانهائي. كنظرة أب إلى أطفاله. تباً. طلب مني أربطة حذائي، ساعتي. وأن أفرغ جيوبي.

وصلتْ زوجة أبي. هرع ليون إليها. هذا كل شيء انتهى الأمر إنني هنا يا ليون سنذهب إلى منزلي جدك ينتظرك لقد أعدّ شوكولاتة ساخنة ستذهب إلى منزلي وتستحم وترتاح وإن شئت ستشاهد فيلماً

لدينا الكثير من الأفلام المسرحية الموسيقية الجيدة أوه يا إلهي ماذا حدث ماذا حدث ألا تكفينا مصائبنا حتى تأتينا هذه. وضعتْ امرأة يدها على كتفها برفق، حتى تسكتها. ثم غادرتا المنزل يتوسطهما ليون بمنامته المتسخة. دمية صغيرة مفككة. وكان هذا الفراغ. الهاوية.

لم يقيدوا يديَّ. دفعوني بقوة إلى داخل سيارة. دلفتُ إليها. جلس حارسي بجانبي. لم تبارحني عيناه. حقده أيضاً. انطلقنا. أضواء دوارة. بلا مزامير إنذار. خبر صغير تافه: رجل يطلق النار على ابنته البالغة أحد عشر عاماً من عمرها. ليس ثمة ما يستوجب إيقاظ الحي. في قسم الشرطة، تذكرني معاون العريف. ابتسامة حزينة. قلتُ لك ذلك، حاوية قمامة لبؤس الرجال، يا سيدي، هيا، ادخل إلى هذا المكتب، سيأتي أحد ما. سألتُ عن أخبار ابنتي. سيأتي أحد ما، يا سيدي. هل هي. سيأتي أحد ما يا سيدي. ولم يأتِ أحد.

عند الفجر، نقلوني في سيارة إسعاف إلى المشفى الجامعي في ليل. قيدوني إلى سرير. زرقوا إبراً في ذراعي. فقدتُ الوعي عدة مرات. أنعشني دفء بولي. رائحة غائطي. رفضتُ الأكل. كنتُ أريد الموت. زرقوا إبرة جديدة. لم أعد جائعاً. ولا عطشاً. حاولتُ ابتلاع لساني وتقيأتُ ماءً حمضياً. تمرُّ الممرضات، تراقبنني. كن لطيفات.

هل ابنتي.

لا نعرف شيئاً يا سيدي. لا نعرف حتى إنْ كانت هنا.

ثم بعد ذلك بوقت طويل جاء أحد ما، مبتسماً.

60

أنا وحدي هنا. جئتُ لوحدي.

بعد أكثر من ثلاث سنوات أمضيتها مع الأطباء، المجندين في اختصاصات الطبّ المختلفة، توصلتُ للعثور على الصحفية التي تحمل اسم أميرال كبير في البحرية الإنكليزية وألبوم غينسبور.

لم تتذكرني. لا أفهمكم، قالت. لا أعرف ما تبحثون عنه. ثم إنني بصحبة شخص ما، إنني متزوجة. حدثتها عن حزنها، وجمالها اللانهائي. بحيرة زرقاء. عن كوكتيل يحمل اسم فيلم، مع قطعة من قشر البرتقال على حافة القدح. تكلمتُ لأضحكها. تحدثتُ عن حياة، حدّثتها عنها. ظلت طوافتي غير المتوقعة، التي جنَّبتني الغرق، ظلت حية على سطح البؤس؛ كل هذه الأشهر المديدة المنصرمة في الأبيض، في الأثير، بين ضجيج الجديد. صمت العالم. ثلاث سنوات من الأحزمة والكيمياء. لم تقل شيئاً، قطعت المكالمة الهاتفية إلى الأبد. لا بد من وجود مُهَانَين اثنين للتلاقي، لا بد من وجود تائهين اثنين، وإلا أحدهما يسحق الآخر وينتهي للإجهاز عليه. ظلت سماعة الهاتف لفترة مديدة في يدي، على أذني. مسدس بلاستيكي صغير. وركنتُ لتبدد وهمي الأخير.

بِيْعَ منزلي. حصلتْ ناتالي على أكثر من نصفه. وما تبقى قادني إلى هنا.

هنا، حيثُ كنت أحلم أن تولد حياتنا ابتداءً من هذه اللحظة. قصص عظيمة وتراجيدية. خاطفة ولا نهائية في آنٍ معاً. على بعد أميالٍ من هنا صوروا فيلم **ليل الحرباء**.

هنا، رطوبة الأجساد، حُرقة الرغبات ملموسة. الخطايا. الجنون. المحيط الذي يبتلع الرجال.

هنا، ثمة سبعة وعشرون **منزلاً عائماً**. يحمل كلّ واحد منها اسم بطاقة يانصيب مكسيكية. **أَشْغَلُ إلفالينت**. الشجاع. الصدفة مريرة أحياناً. إنها ليلتي الأخيرة في هذه الغرفة العجيبة، هذا المنزل الصغير الراقص، كبعوضة المستنقعات، فوق جزيرة، بين السماء والماء. صباح أمس، لم تأتِ إحدى الخادمات الست مع زميلاتها في الشاحنة الصغيرة التي تقلّهن كل يوم من إيلتويتو، القرية المجاورة، إلى طرف المستودع. كان صمت الخادمات الخمس يعلن عن كارثة. لم تزل النمور تتجول في الليل. لا أدري ما الذي دهاني. طلبتُ أن أحلّ مكانها وأقوم بعملها. أرجوكن. إنني ابن خادمة، وأعرف كيف هي الحال. لا أخشى على يديّ من الأذى. لديّ قوة ومتانة يديّ أمي. لم يعُد بمقدوري أن أدفع سبعة آلاف وسبعمئة وخمسون بيزو في اليوم. أجرة هذا العمل هي ستون بيزو يومياً يا سيدي، وإذا عملتَ سنة كاملة سيمكنك النوم ليلتين هنا، أنتَ لا تتخيل. قلتُ بلى، أجل، أتخيل. قلتُ إنني أريد العمل هنا وأن أكسب ستين بيزو يومياً. **المجنون، المجنون**. أصبحتُ مجنوناً في ذلك اليوم. ترافعَ صمتي منذ وصولي لصالحي. رسمتْ رصانتي صورة غير مؤذية. أثارت كلماتي التقريبية تعاطفاً مهذباً من قبل

موظفي الفندق. وفيما بعد، ستروي لي زميلاتي الخادمات أنهن نسبن إليّ قلباً كبيراً محطماً لا يمكن شفاؤه - ولم يكنّ مخطئات البتة. فحين أمشي بمحاذاة شاطئ المحيط، فذلك لأنني أريده أن يبتلعني. مثل **المنتحر** الذي كتب **تحت البركان**. ولعلني جئتُ لأؤلف كتاباً. لأصيغ الكلمات **بالدم**. كمن يمارس حباً مجنوناً. قيل إن سحراً مجهولاً أنقذني. أصبحتُ خادماً. وبأجر عشرة بيزو في اليوم، استأجروا لي غرفة وحيدة في إيلتويتو.

ننطلق فجر كلّ يوم على مدار أيام الأسبوع. خمسون دقيقة في شاحنة غير مريحة. طُرُقٌ ترابية. حجاب طويل، طويل من الغبار. أحاولُ أحياناً أن ألتقطه وأمسك به، تضحك النسوة. ومن بين القضبان التي تشكلها أصابعهن أمام أفواههن، تفلتُ الكلمات. **مجنون! مجنون!** أضحكُ معهن، ويوماً إثر يوم، خفتت ضحكتي، وحتى أصبحت لطيفة، ومتحررة من أحزان الماضي.

بهذه الضحكة سأدخل إليها ذات يوم.

100 ×

- لماذا لم تذهب قط للبحث عن أمك؟

تركني أدخن مع أن هناك ملصقاً إعلانياً يمنع ذلك. أسحبُ الدخان مطولاً، حتى يحرق شفتيّ ولساني. ثم أنفث الدخان الذي يستنقع لبرهة أمام وجهي، ويحجبه، كما تحجب التفاحة وجه ابن الإنسان في لوحة ماغريت.

- انتظرتُ أن تعود. ظننتُ أنّ الطفل مهم إلى درجة أن الأم تعود دوماً. ظاهرياً لا تساءلتُ باستمرار عن عدم اصطحابنا أنا وأختي معها. لماذا تركتنا مع أبينا؟ أردنا الذهاب إليها ذات مرة، عندما كنا صغاراً. كان القطار مكلفاً جداً، مئات الفرنكات، ولم يكن لدينا المال. أقسمتُ لآنا أن أحصل على النقود. أن أسرقها إن لزم الأمر. لكنني لم أجرؤ قط. لا أدري لماذا. لعله الخوف. خوفٌ من أن نكتشف أن بوسعها العيش من دوننا. أن تكون سعيدة وحيَّة من دوننا. أن نجدها لا تعاني، وليست بحاجة لنا. مثل الضفادع التي تترك صغارها بلا تردُّد في زاوية مستنقع. أو كالسلاحف البحرية التي تخفي بيوضها في الرمال، تاركة صغارها يخرجون منها لوحدهم، ويصلون إلى الماء لوحدهم، ويعيشون لوحدهم. لعلها كانت من صنف السلاحف البحرية. هذا ما لم أرغب بمعرفته. ولا

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

رؤيته. ذراعاها تحتضنان آخرين. لم أتجرأ قط على سؤال والدي إن أصبح لديها أبناءً آخرين غيرنا، عائلة أخرى، مع فتاة صغيرة حية. إن كان لديّ أخ. رحلتْ لأنّ آني رحلتْ. تركتنا لأبينا. أعتقد أننا كبرنا أنا وآنا في غيابها أكثر ممّا في حضورها. وعندما طرحت جارة أمي سؤالكم ذاته - لماذا لم تذهبوا للبحث عنها - فهمتُ. لأنها لم تكن تحبني. سألتها ذات يوم إن كانت تحبني فأجابتني بماذا يفيد ذلك؟ ينبغي ألا يسمع أي طفل هذا. قتلني ذلك. أعني، ذلك ما بدأ بقتلي.

أُشعلُ سيجارة جديدة. ينظر إليّ. نظرة عذبة. ابتسامة عطوفة.

- هذا أيضاً، هذا بدأ بقتلك، قال.

- كانت تسعل كثيراً في المرة الأخيرة التي رأيتها فيها، منذ عشر سنوات. حكيتُ لها ما أصبحَتْ عليه حالنا لكنها غفتْ. نظرتُ إليها، قلتُ في سري إنها اللحظة المناسبة. يجب أن أحتضنها بذراعي وأصحبها إلى منزلنا، لكن لم يعد لدينا منزل. استولت زوجة أبي على المكان كله. وكنتُ على وشك الانفصال عن ناتالي. يعيش توماس وآنا في شقة صغيرة. لم يعُد لدينا منزل لأنه لم يعُد لدينا أم على ما أظن. عندما رحلتْ يوم الدفن، أخذتْ معها حتى فكرة العائلة والمنزل. الرغبة في لصق الرسوم على باب البراد. تركتْ الفراغ. البرد. أبي في صحنه. أنا وأختي على الدرج. لذلك لم أحتضنها يومئذٍ بين ذراعي. ولم أصحبها معي. تركتها هناك، بين منافض السجائر، وعلب البيرة. وكتبها. ولم أعُد إلى رؤيتها ثانية. هل تعرف إنْ كانت ابنتي

XVI

الأزتيكيون(*) هم مَن سموها إيلتويتو في القرن السادس عشر. أعطوها ترجمتين. وادي الآلهة. موطن الجمال.

منازل صفراء، برتقالية، مزيج من الطين والصلصال المحلي. قرميد أحمر. أشجار نخيل. ساحة مربَّعة، معرض للأعمدة، وشجرة ضخمة في الساحة عمَّدها القرويون باسم ماريا. يعمل مربو الماشية والمزارعون لصالح الفنادق المجاورة، **دوسكونوسيدو**. في كل يوم، تسلم فيها الشاحنات أو الشاحنات الصغيرة المانجو والبرتقال والليمون والجوافة. يزودها مربو الماشية باللحوم، لكن هناك مَن يفضلون السمك. المرلان الأزرق، التونة الصفراء، الشبوط الأحمر، وأسماك أبو سيف. عشتُ هنا لمدة شهرين. لا أعرف بعد إن بدأتُ بترميم نفسي.

عند الفجر، ننطلق إلى كروز دو لوريتو. نبدأ خدمتنا في **دوسكونوسيدو**. ننظف أولاً الطوافات الخشبية. ندهنها بالزيت أحياناً. ثم الكوخ الفسيح العائم الذي توجد فيه الحانة، المطعم،

(*) الأزتيكيون: سكان إمبراطورية الأزتيك وهي دولة الأميركيين الأصليين، حكمت معظم ما يشكِّل المكسيك بين عامي 1428-1521.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

طاولة البلياردو المدهشة. بعد ذلك الفيلات، عندما يرفعُ الزبائن العلم الأزرق، فهذا يعني أن نقوم بالتنظيف. الأحمر، لأجل الفطور. الأبيض يعني أنهم بحاجة إلى شيءٍ ما. لا يوجد هاتف في الغرف. لا كهرباء ولا ماء ساخن. إنه فندق صديق للبيئة، يستخدم الموارد الاحتياطية. الماء الصالح للشرب يأتي من المياه الجوفية. تُسْتَخْدَم بعض الألواح الشمسية للماء الساخن والكهرباء في المطبخ. احترتُ في البداية. لكنني سعدتُ لاكتشاف حياة يحكمها ضوء النهار ولون السماء. ولقضاء سهرات على ضوء شمعة، وسط أي مكان، على هدير المحيط الزائف من بعيد. أحبّ التنظيف. تعلمتُ كيف أزيل بقع الشمع، أحمر الشفاه والدم (من دون ماء ساخن). كيف أكنس الأرضية الخشبية لإزالة حبيبات الرمل في الأخاديد. إنني مسؤول عن خمسة أكواخ. أحترم الناس الذين يشغلونها. لكنهم حين يرحلون، أحبّ أن أخفي كلّ ما يمتّ لهم بصِلَة، أي شعرة، أي رائحة عطر، ليتخيل مَن يأتون بعدهم أنهم الأوائل. ليتخيلوا أنفسهم في الجنة. نعودُ إذاً في نهاية العصر، بعد تحضير الأَسِرَّة لأجل المساء، بعد أن تُملأ الخزانات بالمياه وتُوضع الأزهار على طاولة السرير. في بعض الأيام، أبقى لبعض الوقت، أمشي على شاطئ المحيط، وأعود مع آخر شاحنة صغيرة. عندئذٍ أعثر من جديد على حجرتي الصغيرة. تشبه زنزانة. يُعدُّ لي المالك وجبة تاكو أو وجبة توستادا مقابل اثني بيزو؛ ومقابل اثني بيزو إضافيتين، يقدم لي قدح ريسيلا الذي يحرق معدتي ويساعدني على النوم بسرعة.

لم تعد تراودني الكوابيس الآن. غالباً ما أستيقظ وأنا أبكي. لم أعد بحاجة إلى أقراص مهدئة. بلغتُ سن الأربعين بصمت. أعمل خادماً في فندق على الشاطئ الغربي للمكسيك. يقود أصدقائي

شاحنات محمَّلة بالفواكه، يعلمونني تبييض الملابس الداخلية. نضحك سوية في المساء، في ظلّ ماريا، الشجرة العملاقة. وحين يطلبون مني أن أحكي لهم عن حياتي المنصرمة، أروي للمرة العاشرة أنني أتجنب امرأة، هائجة، ظامئة للحب فيتعالى ضحكهم وتحلقُ ضحكتي، خفيفة، ويبدو لي عندئذٍ أنني وجدتُ السلام أخيراً.

ثلاثة ربما

بقيتُ لفترة مديدة دون أخبار عنها. لم أكن أعرف إنْ ظلَّت على قيد الحياة، إن كنتُ قاتل ابنتي. كان ذلك أشدّ إيلاماً. ألّا أعرف. لم يجبني أحد عن أسئلتي. لم يكلمني أحد. كنتُ أعوم في نوع من الفراغ. حاولتُ إغراق نفسي تحت الدوش. أن أخنق نفسي بابتلاع غائطي في المرحاض. أن أشق جلد معصمي بأسناني، لأصل إلى الوريد وأفتحه. وأترك السم يتدفق. لزجاً. حاسماً. كانوا ينقذونني في كل مرة. يريدونني حياً. يريدون أن يفهموا، أن يمحصوا الرعب، أن يشرحوا. تذكرتُ الصور الفوتوغرافية. جوزفين قبَّلت بطن أمها المنتفخ. جوزفين ترسم، تلون، تحضر آلاف الهدايا ترحيباً بأخيها الصغير. ابنتي جميلة. أرادت آنا المجيء. رفضوا. لم يطلب الآخرون رؤيتي. لا ناتالي. ولا ف ف ف ولا زوجة أبي.

كنتُ وحشاً. الجار الساحر، المهذب، المبتسم. رجلٌ بلا مشاكل. ولا كلمة نابية. ولا نظرة ضبابية. يفرز قمامته. لم يشاهده أحد قط يسحق عقب لفافة تبغ على الأرض. مع ذلك. هجرَتْه زوجته. أُقيلَ من عمله بسبب الفساد على ما أظن. أبوه من أصحاب الاحتياجات الخاصة أو شيء من هذا القبيل. وأمه. ماتت في ظروف مروعة. تخلى عنها.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

كنتُ الأب الذي آذى ابنته، الذي تأهب لإيذاء ابنه الصغير، لكن يدي ارتعشت. أردتُ لجبننا أن يتوقف، أن ينقطع توارثه عندي، لكن يدي ارتعشت ونجا جزء من وجه ابنتي من الرصاصة.

أردتُ منع أية فظاظة من إيذائهما، من هدم حياتهما، لكن يدي ارتعشت وأخفقتُ حتى في هذا.

اللطف. نهاية الأشياء.

أخفقتُ في وداعاتنا.

وذات يوم، بعد عام، خلودٌ متأخر: ابنتك حية. جوزفين على قيد الحياة. بكيتُ. هل يمكنني رؤيتها؟ من فضلك. استجديتُ. كيف حالها؟

كان الأطباء باردين، واقعيين. مشارط.

لم تعُد تبتسم. ستحتفظ دوماً بتشوُّه طفيف في الفكّ. ستختفي الندبة عملياً بعد بضع عمليات تطعيم للجلد، ربما ثلاث. سيتيح لها التدريب أن تستعيد طريقة النطق الصحيحة. بالصبر، ومرور الوقت، لن نعود نرى شيئاً. يصنعون اليوم الأعاجيب في الجراحة. معجزات أحياناً.

لكن أية معجزة لتحظى جوزفين يوماً بحياة جميلة؟

2 /1

مجنون! مجنون! التفتُّ. إنه طفلٌ في حوالي العاشرة من عمره. خطر ليون ببالي على الفور. كان ليون في ذاكرتي أطول وأنحف، لكنه أصغر سناً بقليل.

كان في الثامنة من عمره عندما رأيته للمرة الأخيرة، في تلك الليلة، منذ نحو خمس سنوات. غادر، دون أية نظرة، وهو يتوسط بين زوجة أبي وامرأة أخرى، مرتدياً منامة متسخة، بائساً، مرعوباً. لم يأتِ لرؤيتي في المشفى عندما ارتأوا بعد عام أنني لستُ خطراً. لم يرغب أن أزوره، حين خرجتُ، مع بداية عامه الثاني عشر. كتبتُ إليه رسالة لكنني لم أعرف إن قرأها، إن أعطتها له ناتالي. قيل لي، سيحتاج الأمر إلى وقت. ستكون استعادة العلاقات بطيئة وشائكة. لكنها واردة بالتأكيد. لا تزعجْ نفسك بذلك الآن. تَقَدَّمْ نحو شيء آخر. لا تتوقفْ، سيجعلك الثبات تسقط.

كان الطفل يحمل كرة قدم تحت إبطه. جلدٌ مهترىء بدا أنه انشقَّ عدة مرات وخُيِّطَ. سبقَ أن راقبته؛ وحيدٌ دوماً، كنزته فضفاضة، يتسلل عبر أعمدة الساحة، يحاول التسديد على جذوع أشجار النخيل. رعونته مثيرة، وعناده مؤثر.

مجنون! مجنون! التفتُّ. نظر بعينيه السوداوين، وابتسم لي؛

قلادةٌ من آخر أسنانه اللبنية وأسنانه الدائمة. كان وحيداً كعادته. طلب مني أن أنفذ ركلات جزاء. كان يريد أن يصبح حارس مرمى، لكن فريق القرية لم يرغب به. يسمونني المصفاة. فكرتُ عندئذٍ أن مجنوناً ومصفاةً يمكنهما التفاهم ووافقتُ. قفز فَرَحاً؛ مثلما قفز ليون عندما دعونا لأول مرة رفيقه المفضل للنوم في منزلنا. تبعتُ الحارس الصغير عبر عدد من الدروب، نحو طريق مسدود. على الحائط الطيني، ثمة قفصُ مرمى مرسوم. أيضاً بضع توجيهاتٍ من رَجُلٍ. فجة وشجاعة. هذا بسيط. أنتَ تركل الكرة من هنا. وأنا هناك، جورج كامبو. كدتُ أسحق قدمي في الركلة الأولى. لم يصدّ الكرة. أي أرسلتُ ركلتي فوق العارضة بثلاثة أمتار. سددتُ الركلة الثانية بتأنٍّ أكبر، برخاوةٍ تقريباً، تسديدة ضمن المرمى كما يقال. صدَّها. كانت الثالثة غادرة. كوة. قفز المصفاة، وترك الكرة تضرب الحائط خلفه. سقط أرضاً، نهض وهو يفرك مرفقه، وعلتْ وجهه تكشيرة رجل صغير.

الرابعة، الخامسة، حتى العشرين آلموا قدمي وشرف الحارس. اقترب قرويون. أطلقوا صيحات أوه، أوه، أوه، صفقوا، ضحكوا. اقترح مزارع بُقُولٍ أن يسدد بدلاً عني. صد جورج كامبو كرتين جميلتين. كنتُ أتأهب لتوجيه التسديدة الأخيرة عندما نادى صوتٌ أنثوي على الطفل. أرجينالدو! فهرع الطفل. إنها أختي، قال وهو يعبر أمامي، يجب أن أذهب. التفتُّ برأسي. كانت أخته تكبره سناً بكثير. نظراتها حالكة السواد. عميقة جداً. عاد أرجينالدو إلى قربي. لنصف ثانية تقريباً.

شكراً، أيها المجنون.

873

المحيط الهادئ، العنيف، المذهل، جمال المكان، آلاف العصافير، الهواء المنعش، غياب الهاتف والفاكس والإنترنت والكهرباء وأخبار العالم السيئة، كل ذلك يفسر ازدحام **دوسكونوسيدو**. يتقاطر الزبائن تباعاً. يَصِلُون من دلهي، من سان فرانسيسكو، من هامبورغ، من بيركاكا، من موسكو، من كاب. يصلون جفلين، ويغادرون سعداء. بعض الأزواج لا يغادرون **أكواخهم العائمة**. بعضهم الآخر يذهب للتنزه على طول شاطئ المحيط طيلة النهار. يحملون معهم سلة غذائية رائعة. يعودون مساءً، وَجْنَاتُهم محمرة، بشرتهم جافة ومالحة. وبعضهم يراقب العصافير. أحدهم تعرَّفَ على طائر جبار كيكيفي، والنورس الضاحك وطائر البلشون الأبيض الكبير. آخرون حظيوا بمشاهدة ولادة السلاحف البحرية الصغيرة وساعدوها على العودة إلى مياه المحيط الدافئة. أَنْقَذُوها. يتحدثون عن ذلك مساءً، بدهشة، وعيونهم المحمومة تلمع ببريق الشموع.

منذ بضعة أشهر، كنتُ واحداً منهم. أصغيتُ في المساء إلى زوجين نرويجيين يتحدثان عن شغفهم بثورو(*) وتجادلنا حتى وقت

(*) هنري ديفيد ثورو: مؤلف أميركي مدافع عن العيش البسيط وناقد للتقدم.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

متأخر من الليل. طلبة صغار أطالوا المكوث. ثملون بلطف. المثالية. الجبن. الطبيعة. التصنيع. غياب الحسّ. تحدثتُ عن الحصان في شرائح لحم العجل في فرنسا. كريات الغائط في بسكويت إيكيا. لم يصدقونني. طلبوا زجاجات أخرى من الشمبانيا. لهب الشموع يجعل الفقاعات تتراقص، وعيوننا ترفّ. ضوء البرج. ثم الظلام خارجاً، على بعد متر منا. الوعيد.

بدا لنا عندئذٍ أننا على طرف نهاية العالم. هناك حيثُ يتوقف كل شيء. حيث نكتشف أن الأرض ليست كروية. وأنه هناك، على بعد أميال. يسقط المحيط، مثل شلال، وتتبدَّد مياهه في الفضاء، وتصبح كل قطرة نجمة صغيرة جداً. إننا في غاية الضآلة، متناهون في الصغر الآن. لم يسألني ليون قط لماذا الأرض كروية. لماذا سكان القطب الجنوبي لا يسقطون يا أبي؟

مذّاك، اقترحوا عليَّ العمل في الفندق بعض الأمسيات، علاوة على ساعات خدمتي. في تلك الأمسيات، كسبتُ ستين بيزو أخرى. على هذا المنوال، سأستطيع شراء سيارة كوكسينال في التنزيلات خلال ثلاثمئة وثمانين ليلة. أُخلي الطاولات عندما يخلد آخر الزبائن إلى النوم. أغسلُ الصحون. أضحك مع باسكوال. يروي أنه حظي بألف امرأة. ثمانمئة وثلاثة وسبعين بالضبط. ليس بينهن باريسية. لكنه لا يأسف على ذلك. قيل له إنهن لسن دلوعات في الفراش. وهو، هذا ما يحبه في الحب، وفي الفراش: الشراهة. أُجهزُ الطاولات للإفطار. وحين ينتهي عملي، أنام هناك، خارجاً، على الرمل، قرب حوض فسيح، تكثر فيه الأسماك؛ بضع ساعات دافئة. يهدهدني هدير المحيط. إنه حارس وأجش مثل أنفاس أب. أبٌ شجاعٌ هذه المرة.

11، 5-13

- بالضبط. أبوكَ؟

- يصعب أن أتحدث عنه. إنه يوشك على الموت. سرطان. كولون، كبد. في المرة الأخيرة كان يوجد المزيد من التدرنات على الرئة. لا يمكن إيقافها. لكنه يتعامى عن ذلك. ربما حتى لا يرهق زوجته، وعلى الأخص حتى لا يخوض صراعاً. أعتقد أن هذا لا يحزنني. حزنتُ لأجل أمي. انهرتُ حين ماتتْ. موتٌ ساخط. حدث ذلك العامَ الذي ولد فيه ليون، العامَ الذي راحت ناتالي تخونني فيه من جديد. أصبحتُ فجأة يتيماً من كل شيء. شعرتُ بالاشمئزاز. ليس من روحي وحسب، وإنما في جسدي أيضاً. بدا لي أنني أتعفن. صرتُ غائطاً. هجروني. كل الناس هجروني. لم يعد ليون يحتاجني. لم يعُد يحتاج أباً. كانت والدته تغمره. بروائح الآخر، عطره الرديء، عفونته العجيبة. حاولتُ ألّا أكون غيوراً. لهذا السبب هنالك فائدة من الجبن: يغوص الآخرون فيكم ولا تصرخون. شاهدتُ أبي على هذا النحو دوماً. ما دمتَ تريدني أن أتحدث عنه. (ينهض، يفتح النافذة على مصراعيها بسبب سجائري، لكن دون أن يتذمر من ذلك). أذكر أنني كنتُ أجد أبي وسيماً حين كان يروي لزبوناته أنه سيجد حلاً. كنتُ أنا وأختي نتجسَّس عليه من

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

خلف الواجهة الزجاجية لمتجر لابشان. وكنا فخورين. في تلك اللحظات، كانت تغمرنا سعادة رهيبة؛ لكن لماذا السعادة وأقواس قزح ليست معدَّة لتستمر؟ هنالك حلٌّ لكلّ شيء يا سيدة ميشيل، وحلٌّ لكِ فقط يا سيدة دوريه. كانتا تنظران إليه كأنه يسوع: «اطلب، يُعطى لك»[1] كان يُسْعِدُهما، يُنْقِذُهُما. كان محبوباً بسبب ذلك. لماذا لم ينقذنا نحن؟ لماذا لم تكن لديه حلول إلّا للآخرين؟ لماذا ترك أمنا ترحل؟ (أتنهد تنهيدة مديدة) اعذرني. (أدعكُ سيجارتي) ياه، تباً لهذا الإرث. لذلك أحقدُ عليه. ليس لأنه لم يحبنا بما يكفي لإنقاذنا - على الأقل مثل زبوناته العاهرات - وإنما لأنه جعلني مثله. بعرة صغيرة، جبان صغير. لأنه لم يدفعني، ويصرخ في أذني: لا تكن مثلي يا أنطوان، هل تسمع؟ أبداً ! يجب ألّا تشبهني. اهرب مني! قالت لي أمي ذلك، لكنني لم أفهمه. على الأب أن يقول تلك الأشياء. ذات يوم، بينما كان يركن سيارته، سرق أحدهم مكانه. اضربه يا أبي! اضربه، لا تدَعه يفعل ذلك. لم يقل شيئاً. أقسمتُ عندئذٍ ألّا يحدث لي ذلك عندما أكبر. وحدث لي ذلك. نقل إليّ عدوى المرض. ترعرعتُ في هذا العار. الأسوأ: الخجل من الذات. أعرف أنه يريد المجيء لرؤيتي. لكنني لا أريد الآن. لستُ مستعداً. الأذى الذي أحدثه أنا، هو الأذى الذي أحدثه هو.

---

(1) القديس لوقا 11، 5-13.

71

في الأمسيات التي أعود فيها إلى إيلتويتو، كنتُ ألتقي أرجينالدو لتدريبه. كان جورج كامبو قصيراً، لكنه من أعظم حراس المرمى، يقولُ لي ليشجّع نفسه. كنتُ أركل الكرة حتى يلتوي كاحلي، ومساءً إثر مساء، راحت المصفاة تحلقُ أعلى، تطير لزمن أطول، تغطس بسرعة أكبر، تغضب، ترغي وتزبد، وتصفقُ أحياناً. وخلال ثلاثة أشهر، انتقل من أربعة وتسعين هدفاً من أصل مئة تسديدة إلى سبعين هدفاً. رقم مشجع جداً. طَمْأَنَتُه. صدقني، أتحسنُ في التسديد.

وحين أحرزتُ خمسة وستين هدفاً، أهداني زوج أحذية رياضية ماركة «نايكي». جاء ليجلس جانبي بعد تدريبنا، بينما كنتُ أبصقُ رئتي. وضع يده الصغيرة على كتفي. لدي هدية لكَ. أختي هي من دفعت ثمنها، لكنها فكرتي. لأشكركَ. خُذْ. تكادُ تكون أحذية كاكا نفسها. ثم بصوتٍ أخفض، هامسٍ عملياً: أحب أن أحظى بزوج أحذية مثله. في يومٍ ما.

أخذتُ أضحكُ. وأنتحبُ أيضاً، احتضنتُ الصبي بين ذراعي. بدأتُ أرتعش. انتابتني فجأة رغبة بالوعود. بِلَمِّ الشمل. بذاك الفرح. سأقدِّمه لك عندما تكبر يا أرجينالدو. لن تكونَ هنا عندما

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أصبحُ كبيراً. لماذا تقول هذا؟ إنها أختي. تقولُ إنكَ لن تبقى هنا. سترحل. لأن الأمر يجري على هذا النحو دوماً.

عندئذٍ أخذتُ الحذاء الذي يشبه حذاء ماركة «نايكي» لكاكا، انتعلتهُ. ثم نهضتُ، راوحتُ في مكاني خمس أو ستّ مرات قبل أن أقفز في الهواء بقوة. حين سقطتُ من جديد على الأرض، انغرزَتْ المسامير بكاملها في الأرض الحمراء.

أربعة وعشرون جذراً صغيراً.

سأبقى هنا يا أرجينالدو. أعدُك بذلك. سأبقى، وستصبح أفضل حارس مرمى في العالم.

75

- لنعد إلى والدكَ. قلتَ لي إنه أعرب لك مؤخراً عن أسفه لعدم اصطحابك إلى باتريسيا *V، بعد، بعد، أودُّ مراجعة ملاحظاتي، ها هي، بعد عشائكما معاً، في مقهى المحطة وتساؤُلِكَ لماذا نلتقي أخيراً بأولئك الذين غابوا عنا حين نضيعهم؟

- لا أعرف ماذا أقول لك. كان في الخامسة والسبعين من عمره تقريباً. لا بد أنّ الأدوية خبلته. زوجة تتحدث طوال الوقت، لا تتنفس بين الكلمات. يكتم. لا بد أنه شعر بخوف شديد. أظنّ أنه غاصَ في ذاته للعثور على جزر. على شواطئ الصمت. أشياء يمكن غفرانها. كان في حالة إنكار لكنه يعرف أنه يرحل. لا شك أنّ بعض ذكرياته طفت على السطح، تَخَبَّلَ. لعلَّهُ أراد أن يقول شيئاً ما. لعلَّهُ تذكّرَ ذلك المساء. لعلَّهُ أدرك أن تلك الفتاة كانت مهمة لي.

- لعلّهُ أراد أن يقول لك إنك كنتَ مهماً له.

4 × 4

فجأة، توقفت الشاحنة الصغيرة على الفور. في منتصف الطريق، في حجاب الغبار. في قفص السيارة الخلفي، اصطدم بعضنا بالآخر. صرخات. سقطات. انطرح عامل مياوم أرضاً. ينهضُ ضاحكاً، ثم يرتمي مغمياً عليه حين يرى أن ساعدهُ الأيسر، عند المرفق، قد لا يعودُ ينثني في زاوية قائمة. تهرعُ النسوة. يرفعُ السائق، ووجهه ينزف، ذراعيه إلى السماء، يشوّهه غضبه. ينظر تحت شاحنة 4 × 4 على جانبَي الطريق. لا شيء. ها هو يزعق: روح شريرة! روح شريرة! وبينما يعود العامل المياوم إلى رشده، تنهي النسوة تثبيت ذراعه الملتوية على شبك خشبي صغير. أقتربُ من مقدمة سيارة التويوتا الكبيرة. باسكوال إلى جانبي، يفركُ كتفه الذي ارتطم بصندوق الشاحنة. أدورُ حول البيك آب. يجلسُ السائق الآن، على بعد نحو عشرة أمتار منا، روح شريرة! وهو يسقط ثانية. يعطيه الغبار لون شبح.

أجد نفسي من جديد عائداً خمس سنوات إلى الوراء. حين كانت روحي تسعى إلى تفسير ما لا يفسر. غريزتي آنذاك. وبالضبط نذلاً وضيعاً عليه أن يجد عيباً حتى لا يدفع. أطلبُ فكّ العجلات. أبتسم. عرفتُ ذلك. استبدلوا المكابس وحجرة هيدروليك المكابح

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

على القرص الأمامي بقطع مقلدة صينية أو كورية. ذابَ الفولاذ المقلد. عندئذٍ انحصر المكبس، والتصقت الصفائح على القرص، ما سبَّب توقفاً مفاجئاً للبيك آب، ساعداً بزاوية قائمة للعامل المياوم، سائقاً شبحاً وصيحات نسوة.

فككتُ العجلات الأمامية، أبطلتُ وصول السائل وتحققتُ من حسن سير عمل المكابح الخلفية. وفي النهاية، أعدتُ تركيب العجلتين الضخمتين في مكانهما. ينظر إليّ باسكوال بعينَي طفل، مع أن عمره يكفي ليكون أبي. أيها المختل عقلياً، أنت تقتلني. الذهبُ في يديك وأنتَ تعمل خادماً. استدرنا نصف دورة، واستأنفنا الطريق نحو إيلتويتو بسرعة بطيئة. المركز الصحي. العامل المياوم يئن، وهو ممدَّد بيننا، على الصفيحة التي تحرق ظهره. تداعبُ امرأة جبهته كأمّ. وأخرى تصلي.

يمسكُ باسكوال يدي. يفحصها كحجر نفيس. أنت دكتور في الأشياء.

هذه اليد، هي التي أطلقت النار على ابنتي قبل خمس سنوات.

700

- أما زلتَ تفكر في الموت؟
- لا
- ماذا كنتَ تريد أن تأخذ معك في تلك الليلة؟
- اللعنة.
- هل فكرتَ في معاناة أولئك الذين سيبقون؟
- كانت الحاجة إلى السلام أقوى. كنتُ أظنّ أنهم سيفهمون.
- ما الذي سيفهمونه؟
- الفهم، هو القيام بخطوة عملاقة نحو الآخر. هذه هي بداية المغفرة.
- هل أردتهم أن يغفروا لك ما نويتَ القيام به؟
- لا أردتهم فقط أن يفهموا أنه لم يكن لدي منفذٌ آخر.
- ولم يغفروا لك؟
- كان هذا مستحيلاً. مؤخراً، قتل أبوان طفليهما ثم شنقا نفسيهما. تركا رسالة صغيرة. **هذا ليس قتلاً، إنه فعل حبّ.** مَن يمكنه أن يفهم. الغفران ليس من شيم هؤلاء الناس. الذعر يتملّككم.
- قلتَ إنه لم يكن لديكَ منفذٌ آخر.

- بدا لي كلّ شيء تافهاً إزاء ما كان يعذّبني.
- الوحشُ الذي كنتَ تتحدث عنه؟
- في لحظة، هو مَن تولى التوجيهات. فأنتَ تعرفُ أن مذبحة ستحدث لكنك تعرفُ أيضاً أن الأمر سينتهي بعد ذلك. وأنكَ لن تعود تتألم.
- لماذا جوزفين وليون؟
- كنتُ خائفاً.
- خائفاً؟
- قلتُ في سري إنهما لن يعودا يستيقظان، ولن يسَع أي شيء أن يؤذيهما.
- مثل أختكَ آني؟
- مثل أختي آني.
- ألم تتساءل يوماً إن كانت آني ستفضل العيش لو كان لديها الخيار؟
- هذا النوع من الأسئلة لا يفضي إلى شيء.
- أنا من يقرِّر ذلك.
- أعتقد أنها أحبَّت حياتها. أظنّها كانت سترغب بالعيش. مثل آنا.
- وطفلاك، ألم يخطر ببالك أنهما سيرغبان في العيش؟
- كانا يعانيان بشدّة من الطلاق.
- مثل كثير من الأطفال.
- كان ليون قد عاد للتبوّل في فراشه. فُصِلَتْ جوزفين من المدرسة. كانوا يشتبهون باضطرابات نقص الانتباه. كان كلاهما يراجعان طبيباً نفسياً. اقترحوا على ناتالي واجبات كثيرة في ليون.

كانا سيذهبان للإقامة فيها، مع المدير الفني. سبعمئة كيلو متر بيننا. لن نعود نرى بعضنا. لن نعود متجاورين. لن نعود معاً. لم يكونا يحبان تلك الحياة.

- هل سألتهما؟

- لم أرغب بتلك الحياة لهما.

- بما أنكَ لم تعُد تعمل هنا، ألم تفكّر بالذهاب إلى ليون. وإعادة بناء حياتك هناك. لتكون بقربهما؟

- لن أبني حياتي تبعاً لامرأة تخونني. تهجرني.

- أتحدث عن ولديك.

- لم تكن لديّ القوة لذلك.

- أم لأن ولديك لن يختارانك؟ لأنهما لحقا بأمهما؟ لأنهم تخلوا عنك مرة أخرى؟ أمك أولاً، ثم زوجتك. ربّ عملك منذ بضعة أشهر، وأبوك الآن. لأنّ الرعب بدأ من جديد. قلتَ لي في مرة سابقة إنك تركتَ، عفواً، أنك لم تذهب للبحث عنها في بانيوليه لأنها لم تكن تحبك.

- الحب أيضاً قاتل.

- تريد أن تقول، نقص الحب.

- نقص الحب.

- لماذا تلك الليلة بالتحديد؟

- أمضينا أسبوعاً جميلاً. كانت ناتالي في لوكات مع عشيقها، من أجل صور ألبومهما عن العودة. بقي الطفلان معي. كان اليوم الأخير ناجحاً على نحو خاص. استمعنا إلى الموسيقى، رقصنا في الصالون. وضعنا مخطّطات من أجل مسبح في الحديقة. أكلنا كاتو عند مونتوا. هناك حيث تماسك أبواي بالأيدي لأول مرة، حيث بدأ

العنف. أردتُ أن أغيِّر مجرى الأمور. أردتُ أن أنطلق من المكان الذي أفسدني. أن أمحو الكذبة الأولى. بعد الغداء، كلَّمتني جوزفين عن الدراسة التي ترغب بها. عن الأشياء التي تريد ابتكارها. كان ذلك في غاية الروعة. كنا في أوج السعادة.

- ألم تفكر أن هذه السعادة مع أطفالك يمكن أن تتكرر؟

- كنتُ أفكر أنّ ذلك المساء كان نهاية جميلة.

- ألم تزل تفكر في الموت؟

- لا

17

ننطلق يوم الأحد إلى شاطئ مايتو، جنوب بورتو فالارتا. يقود باسكوال الشاحنة الصغيرة. ترافقنا ثلاث خادمات من الفندق، وزوج إحداهن، وخطيب الأخرى. حضَّرتُ طبقاً كبيراً من سلطة العدس والحمص. أطعمة نباتية. أحضر الرجال بضعة زجاجات نبيذ أحمر. وأحضر أرجينالدو كرته التي خِيْطت مراراً وتكراراً. شاطئ رائع. فسيح. يمتدّ على مسافة سبعة عشر كيلومتراً. طريق وعر للوصول إليه. لتثبيط همّة السياح. فندق صغير وحيد، نصفه فارغ دوماً. ومركزٌ لحماية السلاحف البحرية؛ تلك الأمهات اللاتي تتخلى عن صغارها.

المحيط أكثر صخباً هنا، وتثير قوة الريح فرح المغامرين على زلّاجاتهم. يحلق بعضهم كما يقال، ولا ينزلون ثانية. تبتلع الأمواج الآخرين، ثم تبصقهم ثانية بعد أسابيع، في ميناء تيميكستل الصغير جداً، على بعد كيلومترات من هنا، بدينين، وقد تخلوعت أوصالهم. يُشَوِّه المحيط أولئك الذين يريدون ترويضه ويهدد الآخرين.

وبينما رحنا نلعب كرة القدم على مسافة قصيرة منهم، بقي

باسكوال قرب النساء. يُضْحِكهن. يتسلى أرجينالدو بقلب فرح. يمضي نهاراً رائعاً. مثلنا جميعاً.

بعد تناول الوجبة، سبَّب النبيذ لنا النعاس. يشخر باسكوال، ورأسه على صدر الخادمة الثالثة، دومنيكا؛ أرملة، يحلم أنها ستكون غزوته الثمانمئة والرابعة والسبعين. يريد أن يجعلهن جميعهن سعيدات بسبب خطأ ارتكبه بحق إحداهن ذات يوم. تداعب دومنيكا شعره برفق، كأختٍ بكر. ابتعد الخطيبان نحو خليج صغير، وهما خجلان. يُنَفِّذُ أرجينالدو حركات توفيقية بكرته. صدر- ركبة - رأس. رأس- قدم - ركبة. أغفو.

أراني مع آنا، طفلين، على بحيرة لوفيتيل، في بورغ دوازان، قبل كل هذا.

قبل أن أتوهم أنه لم يعُد بوسع أي شيء جميل أن يحدث. قبل تلك اللحظة المرعبة التي فقدتُ فيها قواي، التي كنتُ أستلقي خلالها على الأرض أحياناً، في أي مكان، لأبكي، لأغضب.

ثم أنهض.

أدخل في المحيط الدافئ. أتقدم في الألوان المذهلة. كل الأزرق هناك. الفيروزي، السماوي. بوندي. مايا. زمرد. تيفاني. أتقدم. يبلغ الماء ركبتي. فجأة، أشعر أنني أغوص وأغوص. تصل موجة عاتية، قوية، تدفعني إلى الوراء بينما يمتصّني ارتدادها نحو العمق. تخدش الحصى الصغيرة جداً ظهري. إنني سجين الماء المضطرب. أحرِّر قدمي من معطف الرمل. يغدو جسدي عندئذٍ خفيفاً ومنفلتاً من السيطرة كريشة طائرة. ينجرف في دوامات. لستُ قادراً على معرفة أين سطح الماء. من أي جهة السماء. وفي لحظة، وجد رأسي نفسه في الهواء الطلق، وسنح له الوقت لرؤية وجه

أرجينالدو. حركاته مخبولة. لا أسمع صرخاته. امْتُصِصْتُ مرة أخرى. ضُرِبتُ. صُدِمتُ بقوة. أصرخ، المحيط يُغرِقني الآن. أجدف بيديّ وقدميّ. إنني سلحفاة صغيرة. يجب أن أنجو. أتجه نحو الضوء. السطح. يلفظني المحيط. يتقيأني. يُشَجُّ جبيني على حافة حجر. يجذب أرجينالدو ذراعي ليُخرجني من الماء. قوته لا تكفي. يصرخ، يبكي، يسيل لعابه. يهرع باسكوال. ها أنذا على الشاطئ أخيراً. الصبي بجانبي على قوائمه الأربعة. يأخذ وجهي بيديه، يرتعش. قلتَ إنكَ ستبقى! قلتَ إنكَ ستبقى! أبتسم له. أداعب وجهه المرعوب. أمسح الدموع الفضية.

إنني هنا يا أرجينالدو. سأبقى معك. قاتلتُ. اخترتُ الحياة.

3

عند عودتنا إلى إيلتويتو، أصرّ أرجينالدو أن آتي إلى منزله. كانت أختي ممرضة مبتدئة. ستعتني بجبينك. خاطت لي ركبتي ذات مرة ولم أتألم.

أجلستني ماتيلدا في المطبخ، حتى تُلَيِّنَ قشور الدم الجاف بالماء الحار، بينما راح لاعب الكرة الصغير يحكي لها عن إنقاذي، معركتي ضد المحيط، انتصاري. مجنون، لو رأيتَ ذلك، لقلتَ إيريك مورال(*) ثم - الآن بعد إنقاذي - راح يقلد غطساته على الرمل، تسديداته البعيدة عن المرمى. توسيعاته للكوة. تصدياته للكرة. أوشكَت الأطباق فوق الطاولة أن ترقص الفالس عدة مرات. أخذَت أخته تبتسم. كانت ابتسامتها جميلة. لاقت عيناها السوداوان عينيّ، دون تركيز. طَهَّرَت الجرح، فحصته. ثلاث قطب إذا أردتَ أن تبقى رجلاً وسيماً. واحدة إذا أردتَ أن تصنعَ خليجاً. انفجر أرجينالدو ضاحكاً. اجعلها ثلاث قطب أيها المجنون، فهي تكره الخليج! الخليج، سوقي، الرجل الوسيم، جميل.

(*) إيريك مورال: ملاكم مكسيكي، بطل العالم لوزن الديك الممتاز (1997-2000)، وزن الريشة (2001-2003) ووزن الريشة الممتاز (2004).

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

لم ترتعش يداها. أنا أيضاً. ولا حتى حين اخترقت الإبرة جلدي، حين شدت الخيط، ولا حين نظرتْ إلي، لزمن طويل هذه المرة، وأعلنت: انتهى الأمر، وأودّ أن أشكرك على كلّ ما فعلته لأجل أخي. استعادَ فرحه معك. يسرني أن تبقى لتناول العشاء معنا. عندئذٍ قفز أرجينالدو هذه القفزة الصغيرة، قفزة ليون ذاتها. وثبة انتصار صغيرة.

عدتُ إلى غرفتي مستفيداً من الوقت الذي كانت تحتاجه للطبخ. حمَّمتُ بشرتي المالحة، المخدوشة. بدلتُ كنزتي بقميصٍ أبيض - سيسخر أرجينالدو مني: كأنك ذاهب إلى الكنيسة.

حين غادرتُ لأشتري هدية لها، وفي لحظة اختيارها من بين مئة، خفق قلبي. مع أنه لم يكن هناك شيء بيننا. ولا أي تعبير ملتبس. لم أرها إلا مرتين. أدهشتني نظرتها السوداء، القاسية والغامضة في آن معاً. في سحنتها اللطيفة والحزينة، ثمة خضوع. مسافة. جمال يأبى أن يطفو، أن يستسلم.

هل كانت لديها حيواناتها المتوحشة، هي أيضاً؟

احتضنني حارس المرمى الصغير بذراعيه. ثم عانقني بهستيرية، حين وصلتُ وألقيتُ له بكرة جديدة. مثل كرة رونالدينيو تقريباً. أطرقتْ ماتيلدا برأسها وصعد الدم إلى وجنتيها عندما أهديتها سواراً من خرز اللؤلؤ المنسوج، الوردي والأسود، اخترْتُه من بين مئة. وبينما كنتُ أساعدها على ربطه في معصمها، ارتعشتْ أصابعي. قالت ضاحكة، لكنتَ أصبحتَ ممرضاً سيئاً. طمأنتني ضحكتها. وانضمت ضحكتي إلى ضحكتها. عندئذٍ بدا لي أنّ شيئاً ما كان يفرّ مني. حتماً. جلدٌ قديم. رائحة قديمة. لم أعرف أية امرأة أخرى بعد ناتالي. فقط الاشمئزاز.

خلال سنواتي الثلاث بين الأحزمة، معلقاً خارج العالم، تشبثتُ بحزن الصحفية الفائق. طوافة الجمال. أتاحت لي البقاء على قيد الحياة، أن أقاوم الأبيض، البرد، الفولاذ، الأسوار الشبكية. السوائل الفضية في الأنابيب. تخيلتُ أنني أصحبها إلى هنا. أو إلى أي مكان آخر. حلمتُ كل يوم، خلال ثلاث سنوات، بحياتنا الجديدة. لأُبْعِدَ حزنها، لأُبْعِدَ كآبتي. كنتُ أسمع أحياناً ضحكاتها عندما أصاب بالحمى. تتلامس أحياناً بشرتانا، تحكّ شفتاها أذني، تتلفظان بكلمات مدوخة وشغوفة، لكن لا بد للآخر أن يرغب بأن يكون موضوع حلم لكي تجري الأمور. أقْفَلَتْ السماعة في وجهي، ولم أكن حزيناً. أيقظني صمتها.

ضحكتكَ جميلة، قالت لي ماتيلدا، تمنحني الرغبة بالضحك معك.

رغبتُ في البكاء. أصبح كل شيء بسيطاً. حقيقياً. أحتفظُ بمعصمها في يدي لبرهة. لا تسحبها على الفور. تتأمل سوارها. إنه جميلٌ جداً. هذه الألوان نادرة هنا، كما تعلم. أرى كثيراً الأحمر، الأصفر، البرتقالي.

أنا.

معصمها يحلقُ خفيفاً، أنيقاً، ليرد خصلة شعر.

أنا.

أنا أعتقد أن علينا الجلوس إلى المائدة، تهمس. تتجنب عيناها السوداوان عيني. لنذهب إلى المائدة أرجوك. أرجينالدو! يرسم فمها برطمة ساحرة. سحرٌ لا تتجاوز مدته العُشْر ثانية، يكفيني أحياناً لأكتشف فيه جمالها الهائل. هذا الضوء الذي ما انفكت تطفئه في العالم منذ أكثر من ثماني سنوات.

46

أصبحت **البوزول بلانكو** جاهزة. يخنة لحم الخنزير والذرة الحمراء، والذرة البيضاء التي تتفتح تويجاتهم في الطبخ وتنغلق أزهارها في الصحن. أضحكنا أرجينالدو وهو يقلِّد جاريد بورجيتي، هداف الدوري الوطني بحصيلة ستة وأربعين هدفاً. أثَّرَت فينا سيرته المدرسية. لم تعد ماتيلدا تردّ خصلة شعرها. راحت تلقي أحياناً نظرة على السوار الذي أهديتها إياه. لم تتلاقَ نظراتنا - بسبب وجود أخيها الصغير، على ما أظن. رَوَت بدورها حكايات عن عملها في المركز الصحي. حكاية عازف موسيقى الماریاتشي(*)، **الثمل** تماماً، الذي غرز قوس كمانه في عينه. حادث مروع. كان أرجينالدو فرحاً. قَلَّدَ السكران، حاكى الزومبي(**) حادث مروع. ليس من المستحبّ أن تضحك يا أرجينالدو، ليس أمراً مستحباً في المسيحية. وتضاعفت ضحكاتنا. لديهما دفء النار. لهبٌ يكوي عيوننا. ثم حان موعد ذهاب أرجينالدو إلى السرير. عندئذٍ أمسكَ يدي،

(*) الماریاتشي: موسيقى شعبية راقصة مكسيكية.

(**) الزومبي: جثة تتحرك بعد إثارتها بوسائل سحرية وجرى تطبيق الزومبي على الموتى الأحياء في أفلام الرعب الخيالية.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

وسحبني إلى غرفته. ارو لي قصة أيها المجنون. من فضلك. تروي أختي دوماً القصص ذاتها.

جلستُ بجانبه على السرير، ورويتُ له قصصاً كنتُ أقرأها لجوزفين وليون. الأطفال الذين تغلبوا على الوحوش. الأشرار. الذين فازوا بالنجوم. قصة طفل أحيا الشمس. قصة المرأة الثعلب. الأشقاء السبعة التائهون. مصائب الخط المستقيم. راحت ماتيلدا تصغي في الظلام. أحببتُ تلك اللحظة الفائقة العذوبة. لم يكن لدينا ماضٍ. ولا مستقبل. نشوة لحظة النعمة فقط. التي لا تتطلب شيئاً. ولا تنتظر شيئاً. رافقتني ماتيلدا إلى عتبة باب منزلها. ستمرّ الشاحنة بعد أقل من ربع ساعة لتقلّني إلى دوسكونوسيدو. نمشي بضع خطى في الخارج، في الليل الدافىء. تلمع حبات الخرز الصغيرة جداً في معصمها. بقينا صامتين. بدا لي أنّ خطانا تتوافق، وهذا ما أضحكنا. ضحكتان خافتتان قصيرتان، تحت جنح الظلام.

لغة اللحظة.

نفترق في نهاية الشارع. أغرز خضرة عينيَّ في ليل عينيها. وما ينبغي أن يُقال قيل.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الساعة 16:30

- هناك مرحلة مكتب التشغيل، الكابوس. كافكا. لا يفهمون شيئاً. لا يصغون. يحتمون بمكاتبهم الصغيرة، شاشاتهم الصغيرة. فخرهم الوحيد أنهم حصلوا على عمل، وظنوا أنفسهم مهمين. أجورهم هي ضرائبنا. تقاعدهم هو خرابنا. ينسون ذلك. بلا رحمة ولا حنان. حساسية معدومة. رأيتهم ينهون مقابلة لأنّ موعد انصرافهم حان. في الساعة السادسة عشرة والنصف العاهرة، السادسة عشرة والنصف، موعد وجبة التحلية. ثمة أناس يبكون حياتهم التي تنهار وهم يذهبون لتناول وجبة التحلية. عودوا غداً، نفتح في الساعة الثامنة والنصف صباحاً. صدمة في الموعد لأنه يجب اصطحاب الأطفال إلى المدارس. وهكذا حين أصل، أحتاج إلى أربع ساعات انتظار في الطابور. حرب أعصاب. يقترحون عليَّ أي شيء. دهان صناديق السيارات. لحام. مهندس صوت. ليس لدينا إلا هذه المهن. قطاع السيارات هو النهاية. ابْتَزْ الناس إلى أقصى حدّ بالسيارات التي يقتنونها الآن. حَاوِلْ بيع الأحذية أو الدراجات. اتبع دورات تأهيل. أبعدْ عنا بؤسك الصغير. هناك أكثر من ألف عاطل عن العمل كل يوم في هذا البلد. إذاً، إما أنت أو الآخر. يمكنكَ أن تصرخ. ماذا تريد أن نفعل. هل تريد مكاني هذا؟

هل تريد عملي؟ هيا، هيا، انصرف أو أنادي الحارس. أنتَ تثير رغبتي بالتقيؤ. هنالك دوماً ورقة ناقصة في ملفي. طلبوا مني عشرين مرة قسائم الدفع لسنة. لخمس سنوات. وتصريحٌ بأنني سبق أن أرسلتها لهم ثلاث مرات. وضاعت ثلاث مرات. غَيَّرُوا البرمجيات، يتأسفون. مؤخرتي. لأثير قرفكم، لأجعلكم تتحرقون غيظاً. هذا يُنقص عاطلاً عن العمل. ينخفض المنحنى البياني. يربح الكذب. كنتُ أنتظر دفع تعويضاتي. ثمانية أشهر سابقة لم تُدفَع. تصوروا، ناتالي تصرخ، راتبها كله يذهب هنا، كل شيء يذهب عبثاً، لكن لا يوجد إلا هذا. لديها شخص ما في باريس في تلك الفترة. تنام في تيرمينوس نورد. كنتُ وحيداً. المربية مع الأطفال. تمر ليالي من دون نوم. النبيذ. سرطان والدي. السباكون المفرطون في البدانة. كل هذه الإهانات. في تلك اللحظة اعترتني رغبة بمعاندة هذا العالم الذي لم أعُد أحبه، الذي لم يعُد يحبني، لكن حتى هذا، لم أقدر عليه. لذلك قررتُ أن يتوقف جبني وخيباتي وضعفي معي. لن أعود أتحول. أردتُ تجفيف النبع.

- هل هذا ما أطلق الزناد برأيك؟

- حين تنتهي حياتك الخاصة، حين تتفكك أسرتك وحين توشك حياتك الاجتماعية على التلاشي، تعرف أنك دلفتَ إلى الظلام. لا يمكن مناقشة ذلك. هذا ما لن تعثروا عليه. لعل هذا ما أطلق الزناد.

150000

كان **المجنون** قد اختفى. وفي أقل من عامين، أصبحتُ **المُعَالِج**. الساحر. عَهَدَ البؤساء والتعساء والمديونون بسياراتهم إلى باسكوال وإلى أصابعي الذهبية، البيك آب والشاحنات الأخرى، من أجل إعادة الفحص الخاص. وفي الأيام التالية، انطلقت البالونات الهوائية لأسباب غامضة. على طريق مستقيم، عند شارة مرور حمراء. أو ببساطة عند التشغيل. أصيب بعض السائقين بخدوش بسيطة في سواعدهم. وسَبَّبَ الانفجار أحياناً أضراراً بسيطة لطبلة الأذن. دفعت شركات التأمين وشركات البناء بلا مناقشة لأنهم أرادوا تجنب الفضيحة بأي ثمن.

حصلت امرأة من ماسكوتا على أكثر من مئة وخمسين ألف بيزو: كانت قد جُرِحَتْ في وجنتها، تحت نظارتها. القذر غيَّرَ الميدان. عَدَّلتُ بخفة تركيب البركلورات، الغاز الذي ينفخ بالون الهواء، وجعلتُ الضباع تدفع. كنتُ أثأر للنساء الحوامل المهجورات. لمن يُسَمُّون غرزيسكوياك العاشقين لفيديت. حروف العالم الصغيرة جداً. رحتُ أغسل أنفي من جرائمي. السباكون اللصوص. سائقو سيارات الأجرة المحتالون. النساء الحبيبات اللواتي يخدعونكم. الأب الذي يتخلى عنكم في محنته ليطمئن إلى

آخر؛ كل شيء فانٍ أيضاً. هذا جانب منكم لن تشفوا منه.

يدفع الضحايا لنا، لي ولباسكوال، نسبة مئوية صغيرة من تعويضات التأمين لكنني أستمر في عملي كخادم في دوسكونوسيدو، فهو يربطني بيدي أمي، تلك الأيدي التي لم تلمسني بما يكفي.

اشتريتُ سيارة كوكسينال موديل عام 1986 (دون بالونات هوائية)، في حالة ممتازة. ورحتُ أصطحب ماتيلدا يوم الأحد في نزهة، على طول الطريق 200. نسير دون هدف. تتدلى ذراعها خارجاً. تداعب أصابعها الريح الدافئة. أحياناً تضحك دون سبب. وأحياناً تبكي.

عندئذٍ أشعر بالبرد.

أولاً

جاءت آنا. التقينا في قاعة الزيارة، بحضور حارس. زاغت عيناها حين رأت شحوبي، هزالي، الازرقاق حول عينيّ، مثل كدمات بسبب لكمات قبضة شريرة. **أوه، الله، ما هي فعلوا**: أوه، يا إلهي، ماذا فعلوا بك؟ داعبتُ وجهها. اخترقتْ عذوبته وحرارته يدي. إنها المرة الأولى التي ألمس فيها كائناً إنسانياً منذ عام تقريباً. بشرة امرأة. تَعَقَّبَتْ أصابعي وجنتيها، انزلقت إلى خدها، وتوقفت عند فمها وفتحتْ شفتيها. كانتا رطبتين. أغمضت آنا عينيها، وأمالت وجهها. هَمَسَتْ بشذرات كلماتها. بدتْ جميلة وبائسة في الهدية التي قدّمتها لي فجأة. أعادتني حركتي الفجة والفاحشة إلى الحياة. غاصت أصابعي. شرعتُ أبكي.

حدثتني بعد ذلك عن أحوالهم. كان والدي يعاني ألماً فظيعاً. يبقى ممدداً معظم الوقت. مورفين. إقياء. كيس ملتصق بالورك للغائط. العار. يغذونه عن طريق الحَقن المتواصل. لا تكف دموعه تنذرف. تدلّكه زوجته لتجنب التقرحات. حركات صغيرة بائسة، لا عزاء فيها. لفتات حنان أخيرة. لم يعد يتكلم تقريباً، فرَّتْ الكلمات أمام ضجيج رصاصتي المصم. تَأَمَّلَ في تلك الليلة، وهو عاجز وأبكم، رعبَ ابنه الصغير. يحتاج المرء إلى الشجاعة والكثير من

الحب لإنقاذ الآخر. لم يتصدق عليَّ ولا على ليون ببعض تلك الجمل التي تُساق عن التعافي. انتشرت رعشة فم زوجة أبي في بقية جسدها الآن. أصبحت تشبه ورقة في مهب الريح، جرفتها النسمة الأخيرة. لم يتحدثوا بعد ذلك أبداً عن لحظة جنوني، عن ظلمتي البهيمية. يلفّ الصمت الأشياء، يجهد لإخفائها. تزورهم آنا بانتظام. يمضي الزمن ويتعفن. دعاها الموت الفظيع.

ذهبت ناتالي مع أطفالها لتعيش في ليون. مع الموشوم. شكّلوا أسرة جديدة. رحبوا بهم في الحي. وجدوهم وسيمين، رغم هذا الخد القبيح. لم يعرفوا شيئاً عنهم، لا شيء عن ذعرهم. سكنوا شقة واسعة قرب منتزه لاتيت دور. تبوأتْ ناتالي مركزاً مرموقاً وحصلت على سيارة من عملها. ثم ليون. تباعدت كوابيسه، وصار ينسى نفسه في السرير أقل. كان أول تطعيم للجلد على وجه جوزفين مشجعاً. ويتأهبون لإجراء تطعيمين آخرين على الأقل. إعادة التأهيل مستمرة؛ استغرقت زمناً طويلاً، لكن اللغة عادت. لم تعد الكلمات تبقى محصورة في الجرح. لم تعد تسقط في هاوية حفرها حزني الغامر؛ وبصرف النظر عن كلمة بابا التي اختفت تماماً، لم يعُد أبنائي يرغبون برؤيتي. أبداً. طلبوا التخلص من اسمي، وتبرؤوا مني. أحرقوا الصور الفوتوغرافية، الذكريات. محوني. قتلوني.

بعد ذلك، في نهاية العصر، حين اقتربت آنا من الباب الذي يتأهب الحارس لفتحه، توقفتْ والتفتت نحوي.

جوزفين تكف سؤالاً اختار الإطلاق أولاً لا تكف جوزفين عن سؤالي يا أنطوان، لماذا اختار أن يطلق النار عليّ أولاً؟

1000

أذكر أول مرة أرسلنا فيها والدي، أنا وآنا، إلى مخيم صيفي. تَكَفَّلَ بتوضيب حقائبنا ونسي أن يضع بنطالاً للتبديل في حقيبتي.

في صبيحة اليوم التالي، عند الإفطار، وقعتُ دون قصد. انقلب كأس الشوكولاتة الساخن، وانسكب على بنطالي، راسماً بقعة مظلمة، في مكان عضوي التناسلي. مثل بول أبي اليوم. سخر الأطفال. كلماتهم قاسية، لاذعة. شجعتْ دموعي ضراوتهم. وإزاء محاولات آنا اليائسة من هذا! من هذا! (لتقول «دعك من هذا! دعك من هذا!») تضاعف ضحكهم.

أذكر حين أرسلني أبي لشراء سراويل داخلية لأختي. لم يكن يتجرأ على فعل ذلك بنفسه. كان يشيح بوجهه دوماً حين يمر أمام واجهة متجر ملابس داخلية. خاصة متجر السيدة كريستيان، شارع ألزاس - لورين.

لم يمسك قط أيدينا في الشارع.

لم يتكلم قط عن آني.

لم يستلق قط على سريرنا مساءً ليحكي لنا قصصاً. لم يختلق قط حكايا. كان يشتري كتاباً أحياناً، لكنه لم يقرأه قط لنا. أتذكر قصة هانزيل وغريتل. قرأتها لآنا ألف مرة. ثلمت حموضة لعابي

زوايا الصفحات. كانت تتعفن. لكنها كانت حكايتنا، وكان كتابنا. وفي كل مرة، كانت أختي تسحب الغطاء حتى أنفها. وفي كل مرة كانت ترتعش.

لم ينظر قط إلى صور أمنا وهو يبكي. كان يشرب البيرة في المساء حتى يسقط رأسه في صحنه.

لم يكن يعرف أسماء الأشجار والأزهار والعصافير. فقط أسماء الصبغ الكيميائية. أسماء لا ترتبط بالناس، ولا تثير جدلاً

لم يكن يستمع إطلاقاً إلى الموسيقى. لم يعلمنا قط أن نبكي عندما نصغي لماهلر. لم يعلمنا قط أن نبكي بلا زيادة. أن نعبر عن آلامنا بعفوية.

عن أفراحنا.

عن غضبنا.

لم يستلق قط على العشب لينظر إلى السماء.

لم يأكل قط دودة أرض. لم يلسعه قط دبور.

لم يضرب أحداً قط.

لم يصحبنا لنمشي تحت المطر قط.

لم نتضارب بكُرات الثلج قط.

لم يرافقنا إلى المسبح قط، ولم يغطس غطسة القنبلة في الماء قط، ولم يلعب لعبة البقاء أطول فترة ممكنة تحت الماء دون تنفس.

لم يرسل لنا رسائل قط حين كنا في المخيم الصيفي. لم يرفع سماعة الهاتف إطلاقاً حين تركتني ناتالي فيما بعد.

كان ينسى دوماً عيد المدرسة.

لم يركض وراء كرة معي قط. كرة تنس، كرة طاولة.

وراء حلم.

ريشة طائرة.

كان يذهب دوماً لشراء رأس العبد من محل مونتوا يوم الأحد.

كان يخطىء دوماً في تاريخ أعياد ميلادنا. وقدَّم مرتين الهدية ذاتها لآنا.

لم يقدِّم لأبنائي شيئاً قط. زوجته هي مَن كانت تقدم.

لم يكلمنا عن أبويه قط. عن الحرب في الجزائر. عن مخاوفه كرجل. عن أحلامه. عن حياته قبل ولادتنا. قبل كل هذا.

اصطحبني ذات يوم لمشاهدة فيلم **الفراشة في صالة بالاس**، وحين قطعوا رأس سجين بالمقصلة، ضغط بيديه على عيني. ولم نذهب بعد ذلك أبداً إلى السينما سوية.

لم يعلِّمني قط كيف أحلق ذقني.

لم يحدِّثني قط عن بطن وقلب وفرج الفتيات.

عن عنف الرجال.

لم يقُل لي قط إنني كنت وسيماً. قبيحاً. طويلاً. قصيراً. بديناً. نحيلاً.

لم يروِ قصة مضحكة قط.

كان يعتقد أن الجنة قد تكون موجودة.

كان يقول إنه يحب أغاني سيرج ريغجياني. لكنه لم يذهب قط لرؤيته في حفلة. ومات سيرج ريغجياني.

2

طلبتُ منه ذات يوم أن يعلِّمني صيد السمك. ثمة أحواض سمكية في ماينير على بُعد كيلومترات. الترويت، الشبوط، الفجوم. أطلق تنهيدة. قال لي إنه توجد مسمكتان في المدينة. فأصريتُ، لكن يا أبي، سنذهب لصيد السمك مع المدرسة بعد أسبوعين ولم أصطد سمكاً من قبل، سأشعر بالعار.

ليس هذا هو العار يا أنطوان.

انفجرتُ. صرختُ. العار، هو أنت، هو أنت! لم أزل أسمع صوتي الخافت، المتهدِّج، عصفور دوري، **هو أنت! هو أنت!** يخدش جدران مطبخنا. صرختُ أقوى أيضاً. كم تمنيتُ لو أنك أنتَ من رحلتَ!

عندئذٍ أخفى وجهه بيديه. تهدَّلت كتفاه ببطء. خاصيته. شعرتُ آنذاك بعارٍ فظيعٍ منه، وأقسمتُ ألا أصبح أباً مثله أبداً.

وأصبحتُ أسوأ.

1-10

كانت تسديدة فائقة القوة. مزقتْ الكرة الهواء وهي تصفر. صَمَتَ الجمهور. تسَمَّرَ حارس المرمى الصغير في مكانه، كالمذهول. انتفض متأخراً ربع ثانية. حطمتْ الكرة وجهه بقوة قذيفة مدفع. سقط جسده الهش إلى الخلف. تعالتْ صيحات. انفجرتْ بعض صيحات الفرح من الجهة الأخرى للملعب، حين دخلت الكرة وجسد الطفل في المرمى. صفَّر الحكم بكلّ قوته. كأن صفيره يستطيع أن يوقف الجسد ويمنعه عن السقوط.

ثم هرع الناس. ومن بينهم، ممرضة من المركز الصحي. انكسر أنف الطفل وتخلوع تماماً. بقي على الأرض لبضع لحظات يترنح. حين أرادوا نقله، رفض، أبدى حرصه على النهوض ثانية والمشي. ها هو يقف من جديد، وجهه مدمى، رفع يديه عالياً ليشكل حرف V كبير. صفق له الجميع.

هذا الهدف المحرز قاد النتيجة إلى المجهول. بقيت ثلاثون دقيقة من مدة المباراة. ساد الهرج والمرج لأن الفريق ليس لديه حارس مرمى احتياطي ولأن القانون يقول أن تستمر المباراة.

احتدّ النقاش في وسط الفريق المشوّه. لم يتبرع أحد لحراسة المرمى. اقترح عليهم الحكم، العبوا دون حارس. حافظوا على

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

هيبتكم. سأمنحكم أيضاً دقيقتين وأستأنفُ المباراة. وإلا، هذا انسحاب. وذنبكم على جنبكم.

عندئذٍ تركتُ مقعدي بين الجمهور واقتربتُ من اللاعبين الصغار لأدلي باقتراحي. هَزُّوا أكتافهم وضحك اثنان منهم هازئين.

ليس هو. ليس المصفاة. سنخسر 10-1.

سأل الحكم: وإذاً؟

حسناً، نوافق. لكننا إذا خسرنا، أَقسِمْ أنكَ ستشتري لنا أحذية جديدة.

للجميع، هذا وعد.

دخل أرجينالدو إلى الملعب وسط صيحات السخرية. استؤنفت المباراة. حدّقت عينا ماريا في عيني، ثم في شفتي. لمست أصابعها أصابعي. كانت عذوبتهم تشكرني. وخِفَّتهم كفراشة تُعَبِّرُ عن مخاوفها وارتياحها.

في الملعب، ضاعف فريق أخيها جهوده ليمنع الخصوم من الاقتراب من مرمى كولادور، المصفاة. تكتيكٌ هجومي تبين أنه ناجح. وحتى الدقائق الستّ المتبقية على النهاية - لم يلمس أرجينالدو الكرة إطلاقاً - وسجلوا هدفاً ثانياً، لكن ذلك لم يثبط من عزيمتهم. فقط هذا: لاعب من الفريق الآخر، ثعبان، مارادونا في سنوات تألقه، استولى على الكرة وانسلّ كالشيطان متجهاً إلى المرمى الذي يحرسه أرجينالدو. لم يعُد أمامه إلا مدافع واحد والمصفاة. عندئذٍ عرقله المدافع. على مسافة 18 متراً.

ضربة جزاء.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

1-2

احتفلوا حتى وقت متأخر من الليل. أفرط الرجال في شرب الريسيلا والصبار المخمّر. تَسَبَّبَ الكحول في انهيار حتى أمتَنِهم. أعدوا الموائد بارتجال، جلبوا السلطة. شووا الدجاج، حضَّروا الفاهيتا. خَبَّلَ الموسيقيون أوتار قيثاراتهم وغيتاراتهم. رقصت النساء وشقت الأغاني عنان الليل وارتفعت حرارة الأجساد. ماتيلدا تضحك، تلتمع عيناها السوداوان. ضوء باهت. غامض. دعاها رجل إلى رقصة كيبراديتا. انطفأت ضحكتها على الفور، انكمش جسدها، كما أمام حريق. رفضتْ عندما تلاقت عيوننا. طأطأت رأسها. اقتربتُ منها. تجرأتُ. أخيراً. لا تقلقي، لا أعرف الرقص. انفجرت ضاحكة. رائع ما تفعله مع أرجينالدو، انظر إليه، كم هو سعيد، كم هو حيوي.

أبعد من ذلك، على مسافة عشرين متراً، يحيط بالصبي فريق كرة القدم الصغير، الهستيري، يصفق له، يحتفل به، بينما هو يعيد للمرة الألف في هذه الليلة الوثبة التي صدت الكرة، وأنقذت المرمى، وانتزعت النصر. فعلتُ كما علمني المدرب، كان يقول. انظر. النظرة هي اتجاه الكرة. نظرَ إلى اليمين فوثبتُ إلى اليسار.

بعد هذه الوثبة المظفرة، هرع الصبية نحو المصفاة، انتزعوه من

مرماه، حملوه على أذرعهم، كما يحملون كأساً، وأطلق الحكم صافرة نهاية المباراة. بعد ثلاث سنوات على بداية تدريباتنا في زقاق، أوشك أرجينالدو أن يصبح واحداً من أفضل حراس المرمى في العالم.

حين صد أخوها الكرة، اعتصرتْ يَدُ ماتيلدا يدي. لم تراودها الرغبة بالبكاء. السعادة مثل النشوة، مثل العنف الذي يجرف كل شيء. الحياء والمخاوف. لعلها مؤلمة جداً، وقد تؤدي إلى الترنح والانهيار. تماماً كالتعاسة. إلا أن أحداً لا يتحدث عن السعادة إطلاقاً خشية أن يحذرها الناس. لأن كل شيء سينهار عندئذٍ. لأننا سنصبح جميعاً وحوشاً يلتهم بعضنا الآخر.

فيما بعد، انضم إلينا أرجينالدو، منهكاً مغبراً، متشنجاً، قفز فوقنا. جمعتنا ذراعاه الصغيرتان، جعلت منا جسداً واحداً لبرهة.

وفهمتُ أخيراً، ما فاتني منذ البداية.

انبلج الفجر. أضاء الزوايا المظلمة التي نام فيها الرجال المتشابكين، وقد خبلهم الكحول والضحك. وجهٌ مخدوش أحياناً بسبب رفض النساء. أجساد مترنحة، حتى تحت قناطر روزيتا. لأول مرة منذ ستة عشر عاماً، يفوز فريق نينيو في إيلتويتو على فريق لاس جينتاس، فانخرطوا في البكاء عقب المباراة مباشرة. سيترعرع المهزومون، الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثانية عشرة، مع شبح هذه الهزيمة. قبل أن يصعدوا إلى متن الحافلة، صاح الصبي الذي نظر إلى اليمين عند تسديده ركلة الجزاء: سيقتلني أبي، سيقتلني أبي! عندئذٍ قدم له أرجينالدو كرته، تلك التي أهديته إياها والتي جلبَتْ له الحظ. وشعرتُ بالفخر. كأب.

طلع النهار، ومثل باسكوال ومثل دومنيكا التي لم تستسلم له

البتة، فاتتني الشاحنة الصغيرة المتجهة إلى دوسكونوسيدو. رافقتُ ماتيلدا وأخيها إلى منزلهم. ناداني أرجينالدو لأول مرة باسمي. أنطونيو. اقترحتْ عليّ ماتيلدا الدخول. نمتُ على الأريكة مدفوناً بالريش. غريقاً. مغتبطاً.

حين طفوتُ على السطح ما بعد الظهر، كانت ماتيلدا جالسة، تنظر إليّ.

ولم نعُد نشعر بالخوف.

9

بعد بضعة أسابيع، اقترح عليّ أرجينالدو وأخته المجيء للإقامة في منزلهما. وافِقْ يا أنطونيو. قلْ نعم. اقترَحوا عليّ حجرة صغيرة جداً أيضاً، لكن مع مطبخ جانبي، وذلك مقابل الإيجار ذاته (عشرة بيزو) الذي أدفعه إلى حجرتي السابقة. صالون (مع تلفاز) على بعد خطوات. شرفة (في الحقيقة، كرسي مزود بوسادة صغيرة أمام المنزل). وجبات مشتركة. ضحكات. وافِقْ يا أنطوان. قلْ نعم. حكايات كل مساء. تدريبات كرة قدم في الطريق. ستعلمنا اللغة الفرنسية يا أنطوان وأنا سأعلمك الطبخ. في الشتاء، الطقس بارد، سنشعل ناراً. ثم إذا أصابك جرح، سأخيطه لك. وأدركتُ أنها بخياطتها لجراح قلبي، كانت تخيط قلبها وقلب أخيها. أرادت ماتيلدا أن تربط بيننا. أن توطد عرى علاقتنا. أن تجعلها أوثق.

ذات صباح، وبينما نحن في طريقنا إلى **دوسكونوسيدو**، سألتُ باسكوال لماذا لم تتزوج ماتيلدا من قبل؟ رفع عينيه إلى السماء وقذف كلمة واحدة، كبصقة: فييراس.

الوحوش.

في إحدى الليالي. منذ ما ينوف على التسع سنوات. كانت **الفتاة** تدرس لتصبح ممرضة. كانت تأتي أحياناً في المساء للمساعدة

في المركز الصحي. جاء اثنان. جريحان في الرأس بسبب ضربات زجاج قوارير. مشاجرة صيف. رقص سكارى. في صالة العناية، اغتصبها الأول. ثم الثاني. لم يسمع أحد صراخها لأنها لم تصرخ. عندما انتهيا منها، كانت مضرّجة بدماء جراحهم. قشَّرت بشرتها، فركتْ سُمَّ لعابهم. المني المالح. المفردات الدبقة. دهون أصابعهم. عادت إلى منزلها. توقفت رغبتها بمساعدة الآخرين، وهمد أملها بإنقاذهم. تركت نضارتها تطير وضحكتها ترحل. كانت ضحكتها جميلة يا أنطونيو، ضحكة جميلة جداً. ثم عادت لفترة من الزمن إلى أسرتها في بورتو فالاتا. عندما رجعت إلى هنا مع الصغير، زعمت أنه أخوها وأنّ أمهم ماتت. صدّقها الناس. هذا كل شيء. وكيف عرفتَ هذه القصة يا باسكوال؟ كنتُ موجوداً هناك، في تلك الليلة. لكنني خفتُ. اختبأتُ. لا تحاكمني يا أنطونيو. اختبأتَ، أنتَ أيضاً. أنتَ أيضاً، خفتَ. الخوفُ، رأيته في عينيك. حاولتُ غسلهما ألف مرة منذ وجودك هنا، ولم أزل أرى أثره. شعرتُ بهلعكَ ذاته. أردتُ أن أختبئ، أن أدفن نفسي في جوف النساء. أردتُ جعلهنَّ سعيدات. جميعهن. لأعثر على واحدة كنتُ قد تخليتُ عنها. أنتَ، سِرُّكَ، هو الصمت، لكن الصمت يا أنطونيو يؤثر مثل رصاصات مسدس. لا يسكت، لا يتوقف أبداً.

عندئذٍ، حكيتُ له بدوري كل شيء؛ شياطيني، حماقاتي. وانتهت يديَّ إلى ملاقاة يده، ببشرتها الدافئة، السميكة، المتشققة، التي كانت تجعل النساء مجنونات. يدُ رجل، أب، عريضة. تواردت الكلمات بعضها إثر الأخرى: أسماء أبنائي، جبنُ أبي، هربُ أمي، سعالها المرعب، ليلة آني الأبدية، صخبُ ضرباتي على الجدران في طفولتي، ضحكُ ناتالي عندما كانت تعود عند الفجر، مشبعة بروائح

الآخر، ضجيج موظفي مكتب التشغيل عند وجبة التحلية... وكلّ الكلمات حلّقت لتختفي في الغبار، كريح مشؤومة، وتنضم إلى ميكتلان(*)، مملكة الموتى.

ضمّني باسكوال إليه. شعرتُ بأنفاسه الحمضية. تفاحة مُخَمرة. لا بد من جرحين للتلاقي، تمتم، لا بد من تائهين اثنين، نفسين ضائعتين. إن كانت إحداها قوية، تسحق الأخرى، وتنتهي إلى الإجهاز عليها.

أنتما الاثنان ستنجوان.

(*) ميكتلان: في الميثيولوجيا الأزتيكية مكان الموت.

150000 (يتبع)

أقبلَ شتاءٌ جديد. سبع سنوات مضت، منذ ليلة الوحش. شبَّ أطفالي من دوني. كما شببْتُ من دون أمي. منحرفاً. ربما هجرت ناتالي موشومها. ربما أنجبت منه طفلاً. ربما تخلصت من رجال آخرين، من طفل آخر - كما فعلت أثناء مرحلتنا معاً. لا يبقى من أولئك الذين نشتاق إليهم إلا الإخفاق الذي نالنا منهم. تَشوَّشَ في ذاكرتي وجها جوزفين وليون، كما خبا وجه آني. بقيتْ الصور فقط، كاذبة أحياناً، خلقها رعبي من فكرة أن أغدو مهجوراً تماماً، وحيداً تماماً، بلا ذكريات. مثلاً ضحكة لم تكن موجودة، ولكنني لم أزل أسمعها، في حديقة. اللون الأحمر لمعطف صغير أزرق. بريق ضوء من السعادة، ذات نهار غير مشمس. لون عيني أبي. هذه اللمسات الانطباعية الخفيفة التي تصنع ألبوماً من أحزاننا.

حاولتُ ذات مرة أن أطلب من أختي إرسال بعض الصور الفوتوغرافية. بعض الصور. الأخبار. ومن ثم، لا

لم أتكلم عنهم هنا قط. إلا لباسكوال.

تعلمتُ هنا أن أتحرر ببطء من أمواتي. رمَّمني الزمن هنا.

ذات صباح، توقفت سيارة شيفروليه أسترا مغبرة، مبعوجة، أمام ورشتنا. عندما تعرف باسكوال إلى السائقة، خشي على الفور

من الإزعاجات، لكن سرعان ما طمأنتنا الابتسامة العريضة لهذه السيدة التي تخرج من السيارة الصغيرة. إيبيفانيا فلوريه ألونزو. وصلتْ من ميسكاتو. احتفظت بندبة صغيرة جداً على وجنتها اليسرى، هناك حيث انكسر زجاج نظارتها بسبب البالون الهوائي. وبعد أن دفع لها التأمين مئة وخمسين ألف بيزو، صار زوجها يحلم بنقودها، لكن من دونها. لذلك أودّ أن أعرف إنْ كان بوسع أصابعك الذهبية، يا سنيور أنطونيو، أن تفعل شيئاً لآلة حلاقته الكهربائية، أن تقطع له حنجرته وهو يحلق ذقنه، وريد رقبته الرئيس، هناك، وأن ينزف دمه دفعة واحدة مثل شانشو. خنزير. سأعطيكَ النقود. عندئذٍ، ضمّها باسكوال الذي سبق أن راقص ثمانمئة وثلاثة وسبعين امرأة - دون احتساب دومنيكا التي تثير شهوته. همس في أذنها بكلمات يغنيها الناس عادة، أغنية مارياشي قديمة راقصة، تتحدث عن رجل مجنون، غاضب، قتل حسناءه بثلاث رصاصات وقَلْبُ الحسناء ينزف ويبكي وسألها القلب: لماذا لم تهربي، لماذا، لماذا يا إيبيفانيا، ليس ثمة حب حيث يوجد الغضب. وشعرت إيبيفانيا فلوريه ألونزو بقلبها يبعث من جديد، ومسحت الدمعة التي تسيل بعذوبة على امتداد ندبتها قالت وهي تشهق، فهمتُ يا باسكوال، أنت فتحتَ لي عيوني. غراسيا. غراسيا. وأنتَ يا سنيور أنطونيو، احتفظ بأصابعك الجميلة للأشياء الجميلة.

3

- أود لو نتحدث في أمر كلمتني عنه منذ بضعة أسابيع، ويبدو لي في غاية الأهمية. (يفتش في ملاحظاته. أُشعل سيجارة. السحبة الأولى تُسَبِّبُ دوماً دواراً خفيفاً لذيذاً) آه، ها هي. ذهبتَ لرؤية أبيك، شاهدتما فيلماً، **أغانٍ تحت المطر**، أمضيتَ وقتاً ممتعاً معه، طريقتك حين قلت له إلى اللقاء. ثم ذهبتَ إلى منزل أختك وزوجها، هناك أيضاً للمرة الأخيرة، قبل أن تطلق النار على أطفالك، وعلى نفسك؛ كانت هذه نيتك على أية حال. وعندما غادرتَ، قالتْ لك آنا: اخترْ اليوم. أودّ لو تعودَ إلى هذه الجملة.

- أمر مضحك أن تحدّثني عن هذا. تسلطتْ عليَّ هاتان الكلمتان لفترة طويلة. أنتَ تعلم أنه منذ موت آني أصبحت علاقتي وطيدة جداً بأختي. قبل مجيء توماس إلى حياتنا. كنتُ الوحيد الذي يفهم نصف جملها. تشابكت أيدينا لنجتاز الطفولة، ليحمي أحدنا الآخر من العنف ومن كل هذا الهجران. وانتهيتُ إلى الاعتقاد أنها كانت تعرفني أكثر ممّا أعرف نفسي. لقد رأتْ الوحش حتماً، كانت تعرف أنه سيخرج، وأنه بخروجه سيحررني، سيحررنا جميعاً، وأنه لم يعد لدي منفذ آخر. سبق أن خسرتُ كل شيء. زوجتي، عملي، احترام أبنائي. ظننتُ أنها بهذه الكلمات - اخترْ اليوم -

تباركني، وتقول لي: هيا، هيا، اختر التاريخ، افعل ما ينبغي فعله، أنا أفهمك وأبرر لك، أنتَ أخي، سأظلّ أحبك مهما فعلت.

- و؟

- لم يكن هذا. (أبقى صامتاً لبرهة مديدة. لا أريد البكاء. أجعل تنفسي منخفضاً، منخفضاً جداً من البطن) لم يكن هذا. اختر **النهار**. اختر الضوء، وليس ظلام الوحوش. هذا ما أرادت قوله. اختر شيئاً آخر. اذهب نحو المجهول. الحياة. (لفافة تبغ جديدة، ترتعش يداي) إلى هناك أريد الذهاب بعد الآن؛ نحو المجهول.

85

بعد ذلك، في هذا الشتاء، عدنا إلى مايتو. ثمة ريحٌ. أمواجٌ هائجة، عنيفة. لم يتجرّأ متزلجو الأمواج على الخروج. الشاطئ خالٍ تقريباً. بضعة صبية هناك. يلعبون لعبة الهراوات والكلاب. أمشي بجانب ماتيلدا. على الطرف الآخر للعالم. خدَّدَت السنون وجهي. غضَّنَت عيناي وجبهتي. سَمَّرَت الشمس بشرتي. ابيضَّ شعري. تمسده ماتيلدا أحياناً في المساء. تنظر إليّ وتبتسم وهذا كل شيء؛ إنها طريقة أخرى مثل ممارسة الحب. أمامنا الوقت كله. لم يعد لدينا شيء مستعجل. أعرف أنها ستكون الأخيرة.

أمامنا أرجينالدو يتسلل بالكرة. تقذفها الريح أحياناً بعيداً فيركض المراهق الجديد خلفها ضاحكاً كما كان ليون يركض ضاحكاً خلف الحمامات للإمساك بها. هؤلاء القَذِرات يتركنه دوماً يقترب. وحين تمتدّ ذراعاه الصغيرتان، تقفز الطيور خطوة. في المرة العاشرة، بدأ ابني يكرههن، ويركض خلفهن، وهو يركلهن بقدمه ثم يضربهن بالعصا، ملقياً عليهن الحصى.

تلامست أصابعنا منذ بضعة لحظات. لم تحاول التشابك. وابتسمت ماتيلدا. إنها برطمة نادرة، تكشف عن جمالها الهائل. تتهاوى الأشياء على نحو مذهل. لم تعُد لديها اندفاعة اللقاءات في

المقصورات. لديها لطف اللقاءات الأولى. الأخيرة.

لم أمارس الحب منذ أكثر من سبع سنوات، لم أشرد في رائحة امرأة، لم ينتصب قضيبي. وحدها أصابعي شردت في فم أختي الرطب ذات مرة في المشفى. فَتَّشَتْ حنكها، بفظاظة، فلَعَقَ لسانُها وعضَّتْ أسنانُها. خنقت آنا صرخة. نزف إصبعي. بكيتُ. لذتي وعاري. سبع سنوات لم أمارس الحب. يبدو لي جسدي جديداً، لم يعُد لديه ماضٍ.

أقمتُ عند ماتيلدا وأرجينالدو، في الغرفة الصغيرة جداً بعشرة بيزو، قبل أكثر من عام من الآن. حين أغادر المنزل بخطى لص مثيرة للسخرية عند الفجر، مثل مالك الحزين الأحمق، لألحق بالشاحنة الصغيرة التي تقلنا إلى دوسكونوسيدو، يكونان لا يزالان نائمين. نجتمع عصراً. أذهب للبحث عن أرجينالدو في المدرسة. أدربه على كرة القدم. ينضم أطفال آخرون إلينا. يصد الآن خمسة وثمانين بالمئة من التسديدات. تبقى نقطتا ضعفه هما التسديدة العالية والنظّارة، بسبب قامته القصيرة. يريد أن يكبر بسرعة وأنصحه أن يأخذ وقته، أذكّره أن الطفولة هي فرصة، بلدٌ بلا حرب. أريد أن أصدق ذلك من أجله، كما أردتُ تصديقه من أجل جوزفين ومن أجل ليون، حتى بعد أن عرفتُ أن الطفولة قد تكون ميداناً فسيحاً للخراب. حين كنتُ صغيراً، كانت النجوم أبعد والأحلام أكبر. عليكَ أن تقفز لتقطف تفاحة من شجرة، ولتلتقط بضع كرزات. لديكَ ألف انتصار.

جلسنا نحن الثلاثة مقابل المحيط. تتلامس أكتافنا. تشعث الريح شعرنا، ويسوط شعر ماتيلدا خدي. يمسك ابنها الكرة في حضنه مثل كنز. قلبٌ يخفق. تداعبُ أمه وجهه. يبتسم. لا يعرف

أنها أمه. لا يعرف شيئاً عن العواصف، لا يعرف حكايته التي تُكتَبُ الهوينا، بحذر. أتعلَّم منه إيماءاتٍ لم أعرفها زمن طفولتي. التسديد بالكرة. التمدد على الرمل للنظر إلى السماء. تشبيك اليدين. أتعلم أسماء الفاكهة. تنظر ماتيلدا إلي، عيناها السوداوان لطيفتان. تولد أسرتنا في الصمت. في الوداعة. في السلام أخيراً. حملتْ الريحُ الغيوم. إنها رمادية وثقيلة. تطفو هناك، بين السماء والماء. ويلتفتُ أرجينالدو نحوي.

لماذا تمطر يا أنطونيو؟

الزمن مضى، إذاً الزمن أتى[1]

(1) كليمانس بولوك، لا آخذ شيئاً من العالم.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

القسم الثالث

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

02 /23

لا أستطيع حتى الصراخ. كنتُ سأصرخ بالشتائم، وإلا أبله. غبي. مجنون. أستيقظ من الألم. إنه رهيب، الألم. إنه أذى لا طائل منه. بدأ منذ شهرين، الكلب. أحبهُ حباً جماً، الكلب. يفوحُ برائحة كريهة، الكلب، حتى الكلمة نتنة. مع ذلك، من الصعب إيجاد اسم لأبٍ أراد قتلي.

04 /18

نجحتُ في قول أون-ور هذا الصباح. هذا الأمر لا بأس به لفتاة في سن الحادية عشرة رغم كل شيء. ها ها. صفقتْ جينيفييف. تهتم بتدريبي في المشفى. سابقاً، كنتُ أقول واو أو ألف فقط، كان هذا يبكيني. إنها فائقة اللطف. تعلمني الكلام من جديد لأن الكلمات، حين أريد التفوه بها، تنزلق إلى الخلف، تسقط في الجرح، كما في فجّ عميق. حين وصلتُ، قالت لي إن قطعة من

فكي ذهبت. تناولتُ مرآة. قالت لي لا ما زال الوقت مبكراً يا جوزفين. لا بد أن وجهي مرعب. لذلك كتبتُ اقتلوني على دفتري. اقتلوني! أضفتُ على الأقل ثلاثين علامة تعجب حتى ترى الممرضات رسالتي جيداً. أعتقد أنهن لا يعرفن القراءة.

05 /5

شاهدتُ فيلماً مع جينيفييف. **قناع الغوص والفراشة**. ماتيو آمالريك هو من يمثله. إنه قصة حقيقية عن سيد سُجِنَ في ذاته. لم يعد يستطيع أن يحرك أي عضو في جسده، ولم يعُد يتواصل مع الآخرين. لا يمكن لرأسه أن يحرك إلا جفنيه. أَلَّفَ كتاباً كاملاً، مستخدماً رف جفنيه فقط. تعرضُ الممرضة عليه الحروف. غمزة عين تعني نعم، اثنتان تعني لا ظننتُ أنني محظوظة رغم كل شيء. رغم براز الكلب.

جاء الدكتور (الذي لا أحبه). رفعَ العُصابات التي تخفي رأسي الوحش. رشتْ ممرضة وجهي لتنزع الشاش. بدا مسروراً من الطُعْم. سبق أن زرع نهايات عظم. الآن جلد. مقطوع من جلد وركيَّ. لا بد أنه أصبح كقطعة فخذ خنزير على خدي. كتبتُ على المفكرة: رهيب؟ ندتْ عنه ابتسامة واهية. إنه ينمو جيداً، إنني مسرور، مع الزمن، سيترمم، ولن يعود أحد يرى شيئاً تقريباً، قال. خسارة أنني لا أستطيع الضحك. أطلق أحدهم رصاصة على رأس هذا الطفل، سيمكن للناس تكذيب ذلك تماماً.

الكتابة، إنها فكرة جينيفييف. قالت إن الألم مثل جسد غريب. ينتهي إلى أن يصنع شرنقة، حتى لا يعود المرء يشعر به. لكنه لا يستطيع أن يُشفى ممّا لا يشعر به.

لم أكتب كل شيء، لكن لا تقلق. سأملأ الفراغات.

*

وصل ليون إلى مرحلة بلادته بالتأكيد. سيد بال. بداية المراهقة. فاتكِ كل هذا، لكن قبله، سنة الكلب الأولى، عندما بقيتُ فترة مديدة في المشفى، كان يأتي كل يوم بعد المدرسة. يساعدني في تناول الطعام لأن يديَّ ترتعشان أحياناً. يمسح وهو يبكي الحساء الذي يسيل على ذقني. هل أحرقتكِ؟ يسألُ مذعوراً. لكنني لم أكن أشعر بشيء. كانت بشرتي باردة. بدا لي أنها ميتة، وهذا صحيح بلا شك. عندئذٍ كان ليون يصعد إلى سريري، يجلس بجانبي، يضع رأسي على كتفه، يقبله حتى يدفئه. كلانا خجل على حدٍّ سواء. لم نتحدث قط عنكَ. قال لي ذات يوم إنه سيقتلكَ وهذا ما أسعدني، تلك الكلمات. مجرمي الصغير ذي السنوات التسع. كان يجلب لي كتباً. يقرؤها لي. لم أزل أتذكر الكلمات التي يتعثر

بها كأنها حجار: تعجل، وخز، هز، قذف. أدركتُ فيما بعد أنه يصطدم بكلمات الحب، كلمات تؤلم لأنها تثير الضعف.

كان يحكي لي عن الخارج. يحكي لي عن المنزل، عن أوليف. يحاول أن يكبر بسرعة. أن يصبح قاتلاً بيدٍ واثقة. يريد أن يسجل في رياضة الجودو، أن يتعلم الدفاع عن نفسه، أن يحميني. يُسَرِّح شعري أحياناً، ويشعر بالفخر. طلبتُ منه يوماً أن يكحل عينيَّ فلم يتجرأ. لن أفقأ عينيكِ فوق ذلك! وكنا على ما يرام. كان يحلم لأجل كلينا. حين تكبرين، إذا لم تحظي بخطيب، سأبقى معكِ، سنسكن معاً. وهبط المساء. وجاءت ممرضة، قالت إن موعد المغادرة حان. ذات ليلة، اختبأ ليون في مرحاض الممر، وجاء بعد ذلك ليتمدّد بجانبي وبكى. بالتأكيد، فاجأتنا ممرضة خلال إحدى جولاتها. نظرت إلينا بضع لحظات ثم قالت، في الصمت المعدني للآلات، في الظلام، إننا نشبه الملائكة، وقال ليون لا، الملائكة هم أطفال أموات، وجوزفين حية، أختي أقوى من رصاصة مسدس.

بعد بضعة أشهر، بينما كنتُ في المنزل من جديد، دُعِينا إلى العيد السنوي للتنكُّر، قال لي ليون ضاحكاً: لستِ بحاجة إلى التنكر طالما لديك هذا الرأس. وعرفتُ أن مرحلة لامبالاة الطفولة واللطف انتهت.

في ذلك الصيف، انضم أوليف إلى رفاق في لوبيرون، منهم زوجان مع ثلاثة أطفال، أصغرهم في الحادية عشرة من عمره ويكبر ليون بعام. لذلك ذهب ليون معه. شعرتُ (إلى حدٍّ ما) بالغيرة. عرض أوليف الصور، مسابح كبيرة، ملعب تنس، ساونا، مليون شجرة زيتون، نهر لصيد السمك وللزوارق. وهذا منزل معلم سابق في وكالة إعلان، على ما أعتقد. إذاً بقيتُ وحيدة مع أمي في ليون.

صارت تحاول العودة باكراً في المساء، بدل أن تمضي السهرات بين الفتيات، كما تقول. راحت تقضيها عوضاً عن ذلك على الهاتف. أحياناً، تذهب إلى غرفتها لتتكلم. كنتُ مشوهة، لكنني لستُ صماء، وأسمع الكلمات، والمقاطع الصوتية، والأشواك. جعلني هذا حزينة. طفقتُ أفكر في الكلب الأجرب. لا بد أنه خدش نفسه بالأشواك ذاتها. لا بد أنه أصبح قذارة بشرية بسببهن. قلتُ في سري سأحدِّث الطبيب النفسي عن ذلك. ذات مساء، خرجَتْ أمي من غرفتها، هاتفها في يدها، ولآلئ عرق تنضح من شفتها العليا. فهمتُ فيما بعد: المتعة، اللذة، الشعور بالإثم. أكلنا البطيخ. قالت أمي إنه ليس من المُجْدي شمّه، فالبطيخ يفوح برائحة بطيخ، ولمعرفة إنْ كان ناضجاً بحق لا بد من الضغط على الذنب، الذيل الصغير: إذا انفصل بيسر، فالبطيخ مثالي. علَّمتني أشياء من هذا القبيل. في المشفى، قالت لي جينيفييف أن أدير قطع البطيخ في فمي، مثلما حين يصنع المرء اللعاب، وأن هذا تمرين جانبي جيد. سألتها وأنا أحمر خجلاً هل سيفيدني هذا التمرين الجانبي الجيد في تقبيل صبي يوماً. ابتسمتْ. هل ستعلمينني؟ أجل. حين ستتمكنين من كسر جوزة، يا جوزفين. ليس غداً مساءً يا عزيزتي.

بعد البطيخ، شاهدنا فيلماً تافهاً فيما راجعت أمي بريدها الإلكتروني وهي تشرب النبيذ الوردي. لم نتكلم بحق. أمضينا سهرة ترهات وليس فتيات. قلتُ لها إنها ليست مجبرة على العودة باكراً. عندئذٍ أمسكت يديَّ. لوهلة، ظننتُ أنني موجودة، وأنها توشك أن تكلمني. ولكنها أخذت تبكي فقط.

في الخامس من مايو من بداية عام الكلب، الـ «س.هـ» (السؤال الرهيب) عاد من جديد. لماذا اخترتَ إطلاق النار عليَّ أولاً؟

05 /21

عدتُ إلى المنزل هذه الظهيرة في سيارة إسعاف. مهترئة. ليست السيارة الجميلة التي أقلتني من باريس، في الليل، ذات الأضواء الزرقاء الدوارة، كالبرق. علقتْ أمي وأوليف لافتة في مدخل شقتنا. **أهلاً وسهلاً بأميرتنا**. شعث أوليف شعري وغادر. كان ليون في المدرسة. رتبتُ في حجرتي ذكريات الممرضات. فتحتُ الحقيبة مع أمي. بعدها، أعطتني هدية. وشاحٌ برتقالي، نموذج كبير. أعرف حق المعرفة لماذا. أكرههما، هي والوشاح.

05 /24

الحال على ما يرام عند الطبيب النفسي اليوم. إنه عجوز يفوح برائحة الكلب إلى حدّ ما، لكنه كلب طيب. عيناه عينا كلب صيد إنكليزي، نظرة مُغرِقَة في الحزن، مع كريات صغيرة في العين. حين ينظر إليّ، كان يثير شجوني أحياناً. لأنني أنا أيضاً، أثير أشجانه

بقطع اللحم المقدّدة على خدي. عملنا على الكلمات التي يمكن أن تفسر الأمور، تفسِّر ما لا يوصف (إنها الكلمة رقم 1 التي علَّمني إياها). جنون. اكتئاب. حزن. شجن. مرض. لكنني وجدتها كلمات طبيعية جداً. ما فعله بي، وما كان يتأهب لفعله بأخي الصغير وبعد ذلك بنفسه، ليس له اسم في رأي الدكتور. لو أنه بدأ بنفسه. تساءَلتُ إن كان بوسعنا أن نسمي شيئاً غير موجود. وجد ملاحظتي مهمة. اقترحَ علي (الكلمة رقم 2؛ أخيراً، فعل) أن أواظب البحث. الكلمة هي المفتاح، ونحن بحاجة إلى المفاتيح، قال.

في البداية، كنتُ حزينة. حين استيقظتُ في المشفى، كان رأسي ملتهباً. أمي تبكي، عيناها حمراوان تماماً، اقترح عليها الأطباء أن تخرج من غرفتي. كان كلّ شيء ضبابياً. شعرتُ بألم فظيع في رأسي. سألني شخص عمّا حدث. لم أتذكر شيئاً. كنتُ نائمة، هذا كل ما في الأمر. عندما استيقظتُ، شعرتُ أنّ نصف وجهي مفقود. ثمة شيء يشبه الريح مكان فمي. لم يعُد بمقدوري أن أتكلم. هناك الكثير من الدم، الأغطية مبللة، لزجة. نهضتُ. رأيتُ الكلب منحنياً فوق ليون، بيده مسدس. هذا كل شيء.

جاء الغضب فيما بعد.

06 /28

رائع! استطعتُ أن أبتلع فطيرة الراعي. أن أتناول الحساء، المثلجات، العصير. كل الأشياء التي يقدمونها للعجائز. الذين فقدوا أسنانهم أو المريضين بالوهم، مثل جدي. لم أزل أعاني عند

البلع. أحلم أحياناً أنني أعضّ شريحة لحم، أو أمضغ فطيرة لحم خنزير وجبن. كان اللحم المفروم جيداً. أعدَّه أوليف. منذ أنْ كنا في ليون، هو مَن يطبخ، فالسيدة ليس لديها وقت، بسبب عملها العظيم. هو، يمارس عملاً حراً الآن. ازداد الوشم على جسده. صور رموز يابانية. بالأمس، أراني وشماً جديداً، على أعلى كتفه، موديري، يعني العودة، الارتداد على الأعقاب. قال لي إن هذا الوشم لكي لا ينسى أن المرء لا يصفي أبداً كل حساباته مع ماضيه. أظن أنه يدخن الكثير من الصواريخ، لكنه بارد أحياناً. أمي لم تعُد كذلك.

إنه الصيف الأول من عام الكلب. بقيتُ منزوية في المنزل. ثمة قطعة لحم لم تَنْمُ جيداً في عنقي. رفضٌ. كازيمودو، إنها محقنة بجانبي. أعطوني كورتيزون، وبدأتُ أنتفخ. رحتُ أفقأ عيون عارضات الأزياء على مجلات أمي، وأُسَوِّدُ أسنانهن بقلم الحبر، وأُشَطِّبُ خدودهن. كنتُ أكرههن. أنتَ لا تتخيلْ. يدي، كانت هي يدكَ التي دمَّرَتْ كل شيء. في الخارج، وبالضبط في المنتزه الواقع أسفل شقتنا، تتمدد الفتيات على العشب. يُدخنَّ. يخرجن مع الصبية. يضحكن. جميعهن جميلات. كنتُ في سن الثانية عشرة والنصف ومشوهة الآن تشوهاً مزمناً لن أشفى منه أبداً. قلتُ للطبيب النفسي إنني أرغب بقتل الكلب، بِلْدِغِكَ لأنكَ أخطأتني. أخطأتَ موتي فصرتُ أخطىء حياتي. دوَّنَ جملتي على دفتره، فشعرتُ عندئذٍ أنني مهمة، لكن ما الفائدة؟ سيحين موعد العطلة الصيفية خلال شهر. لن يسعني الذهاب إلى الشمس. لن يسعني السباحة. لن يسعني مرافقة الصِّبية. وأصبح لكل واحدة من صديقاتي الجميلات الآن صديقة قبيحة، مثل الخازوق. إنها نهاية طفولة تافهة، تفتُّحٌ يدعو للرثاء. كنتُ أنمو كملتوية. أخذوني ذات ليلة في حالة إسعاف إلى المشفى، إلى قسم الحروق الخطيرة. كان فمي يتقيح. سأروي لكَ التفاصيل.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

لكن هذه المرة، تجري الأمور على ما يرام. نما الطُعْم. أصبحت لدي أرداف من جلد حمار الوحش رغم كل ما اقتطعوه.

كنتُ ألتقي جينيفييف ثلاث مرات في الأسبوع في المشفى. كنتُ لا أزال أتكلم ببطء شديد، وبدأتُ بنطق جمل دون أخطاء. قال لي ليون يوماً بمنتهى الجدية، أنتِ تتقدمين. أثارت هيئته فائقة الجدية رغبتي بالضحك. الضحك. لم أعُد أضحك منذ زمن طويل. لم أعُد أشعر بذلك الدوار؛ كنتُ أخشى الضحك كثيراً في تلك الفترة. خوفٌ فظيع من أن يسقط فكي، كما في الرسوم المتحركة. ما عدا ذئب تيكس إيفري، كان فكّه يتدلى لأن فتاة جميلة مرَّت. لستُ أنا، تلك الفتاة الجميلة. أنا، المرأة الفيل.

كما ترى، هذا هو الأذى الذي ألْحَقْتَه بي.

ذهب الطبيب النفسي في عطلة سنوية. صار الوضع محزناً بدونه. أصبح بارداً. دونتُ كلمات أخرى. جلاد. متوحش. غ ب (غائط بشري). غائط كلب. وغدوتُ أكرِّرها دوماً.

ذات مساء، أضحكني. كنتُ في سن السادسة أو السابعة، ولم تكن أمي موجودة، كنا نتعشى نحن الثلاثة، لحم خنزير ومعكرونة شريطية. لم يُقطِّع لحم الخنزير جيداً، وفجأة، لم أتمكن من التهام إحدى القطع بكاملها، فتدلّت من فمي، وردية تماماً، نحو عشرة سنتيمترات. نظر إليّ أبي وقال: جوزفين، أدخلي لسانكِ. استغرقتُ بضع ثوانٍ لأفهم وانفجرتُ بالضحك. كان رائعاً. ذاك المساء.

08 /14

وصَلَت العمة آنا من مدينة «ليل» اليوم. أمضت النهار معي. كان رائعاً. ولأنها تتلفظ كلمة من اثنتين ولأنني أتكلم ببطء شديد، فقد تفاهَمْنا على أكمل وجه في نهاية المطاف. حدثتني عن الكلب إبان طفولتهم. كيف حماها. يوم أرادوا الذهاب إلى بانيوليه لرؤية أمهم. جدتي. حدثتني عنها، حكاية مغرقة في الحزن. إنها ميتة الآن، في البؤس، يمكن قول ذلك. لكنني أظن أنه كان بؤس الحب على الأخص. أرتني العمة آنا صورة لها. كانت فائقة الجمال في تلك الفترة. من المؤكد أن تسريحة شعرها باتت قديمة اليوم. كانت تمسك لفافة تبغ مثل ممثلة. هنالك صور قديمة لكاترين دونوف هكذا، تمسك لفافة تبغ وهي فائقة الإغراء. أظنها لم تكن تجد جدي، المصاب بالسرطان الآن، مغرياً بما فيه الكفاية، ولم تكن تجده ماسترواني(*) كفاية. هذا ما جعل كلتينا نضحك. تنبهتُ إلى

(*) ماسترواني: ممثل إيطالي من أفلامه **الحياة الجميلة، الطلاق على الطريقة الإيطالية، مدينة النساء.**

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

ضحكة الفم المغلق. أحبُّ العمة آنا حباً جماً. خسارة أنه ليس لديها ابن وإلا لأضحَتْ أماً لطيفة. تشرح الأمور بطريقة سلسة (حسناً موافقة، تأخذ وقتها)، على النقيض من أمي. أمي، يجب فهمها، تقول دوماً إن أحداً لا يفهمها، وأننا لم نعرها الاهتمام الكافي. قالت لي العمة آنا أنها شاهدته في مشفى السجن. غ ب (الغائط البشري الكلب)، لكن بما أنني لم أسألها شيئاً، لم تضف شيئاً. اصطحبتني مساءً إلى حديقة روزير، للمشاركة في موكب مشاعل يصعد نحو الكنيسة القديمة؛ ليس لأنها تؤمن بالله أو بأشياء من هذا القبيل، وإنما لأن هذا في غاية الجمال فقط. قبل الخروج، حين أردتُ أخذ وشاحي البرتقالي الرهيب، اعترضتْ حركتي. لذلك خرجتُ حاسرة لأول مرة. أمسكتْ العمة آنا بيدي. نظر إليّ الناس في الحشد بشكلٍ طبيعي، راحوا يبتسمون، وطفقتُ أبادلهم الابتسامات أيضاً. لم يعُد يؤلمني الابتسام. غمزني صبيّ بعينيه. حسن، هذا صحيح، كان ينظر إلى جانبي السليم، لكن لا بأس.

اليوم يصادف 14 أغسطس، أجمل نهار منذ ليل الكلب.

08 /18

خرجتُ اليوم وحدي من دون وشاح، ومن دون ضمادات. مشيتُ محاولةً أن يوجد دوماً جدار أو شيء ما من جهتي اليسرى. في الحقيقة، لا يدقق الناس النظر فيكم. في الحقيقة، بلى. الرجال أحياناً، الكهول في سن الأربعين، لأنني أرتدي سروال جينز قصير وساقاي طويلتان، أطول مما ينبغي، قالت أمي. ليس ثمة ما يدعو

للغيرة عندها، لأنها هي من نوع القنبلة. روت لي يوماً حين اصطادت الكلب. تمنيتُ لو رأيتُ ذلك. أمي بحمالة صدرها مع نهديها الكبيرين، والآخر ببنطاله الطويل أكثر مما ينبغي، في مقصورة القياس. مع ذلك، لعلها لم تكن مضطرة للتذاكي إن نظرنا إلى النتيجة اليوم. لكنها قالت لي إنهما كانا يتحابان، إنهما تحابا، وأنها اكتشفت مع مرور الوقت أنه كان يحب الهدوء أكثر وهي العاصفة أكثر. لم أرَ أيّ هادىء يطلق النار على ابنته. سأرى الطبيب النفسي غداً. إنني مفعمة بالسعادة.

08 /19

بالعادة؛ كان أبيض مثل مؤخرة. هناك، أصبح أسمرَ تماماً. ما عدا الفرجات الصغيرة بين أصابعه، ظلّت بيضاء. إنه في غاية اللطف. تحدثنا عن كلمات لتعريف الوحش. أصبح لديّ كلمات جديدة. سادي. بربري. ق ك (قذارة كبيرة). وفي كلّ مرة يطلب مني أن أُعرِّفها. بربري على سبيل المثال. قلتُ: مَن ليس لديه أخلاق، مَن لا ينتمي إلى الحضارة. كان يومئ إيجاباً بحركات من رأسه، يشجعني. تابعتُ: مَن عاد إلى الحالة الهمجية، إلى الحالة الحيوانية، مثل أولئك الذين يأكلون صغارهم. ثمة سلاحف بحرية تفعل هذا، سلاحف بحرية. إناث الخنازير تلتهم أيضاً صغارها. التروي، أنثى الخنزير(*)، كنتُ أحبها حباً جماً أيضاً ككلمة. من

(*) تروي: أنثى الخنزير وهو أيضاً اسم عائلتها السابق.

المهم استخدام الكلمات المناسبة. ثم تحدثنا عن المظهر. سألني كيف أرى نفسي. سأعود في غضون ثلاثة أسابيع إلى المدرسة. أراد أن يعرف كيف أشعر بنفسي. وصفتُ نفسي، كان هذا قاسياً جداً لأنني قبل التروي كنتُ جميلة على جانبَي وجهي. أصبح الأمر مختلفاً الآن. من الصعب إيجاد كلمات للحديث عن نفسي. من قبل، كانت أمي وحتى أوليف يقولان إنني كنتُ جميلة، وأن الصِّبية كانوا يتعاركون من أجلي. لم يعودا يتحدثان عن ذلك في المنزل. يقولان إنني أتقدم، أن الأمر يتحسن، وأنه يكاد لا يُلحظ. مؤخرتي. كأنّ لديّ قطعة فخذ خنزير على خدي الأيسر، ينبسط حتى العنق؛ لديّ حفرة في فكي، كأن الملاكم ذا الوجه الموشوم، لم أعد أذكر اسمه، ذاك الذي مثَّل في فيلم **صداع الكحول**، لكمني بكلّ قوته. لذلك لا أرى التحسن كما يرونه. ناولني مرآةً. لم أزل مرعبة. اقترحَ عليَّ أن أبتسم، وأن أتمعن في ابتسامتي وأصف ما أراه. أجبتُ، ابتسامة. هل أنتِ متأكدة؟ أمعنتُ النظر من جديد، ابتسمتُ ابتسامة عريضة، قبيحة تماماً. أجل، أنا متأكدة. أنتِ واثقة أنها ليست تكشيرة؟ عندئذٍ، نظرتُ مباشرة في عينيه؛ عادة، لا أبالغ في جرأتي. وقلتُ له شكراً، شكراً دكتور. لأنه حتى لو لم يزل لدي نصف وجه مثير للاشمئزاز، إلا أن ابتسامتي عادتْ. لم تعُد ملتوية تماماً كما في البداية، واستعادتْ مسحة اللطف التي تظهر في صوري الفوتوغرافية السابقة، ابتسامة جميلة تتبدى، جميلة كسماء زرقاء صافية، أو ليلٍ صافٍ. بلا كلب.

ذهبتُ اليوم للتسوق مع أمي. وجدنا محفظة جميلة عند جيرار داريل من أجل أدواتي المدرسية. أهداني أوليف ريشة حبر ساحرة. لن أستخدمها، لم يعد أحد يكتب بالريشة، لكن هذا لطف فائق منه. آنذاك، دُعِيَ إلى عمل حرّ كبير لإطلاق سيارة. سيغادر إلى باريس لمدة خمسة عشر يوماً؛ وربما لثلاثة أسابيع. أراهن أنه سيعود بوشم جديد. وربما سيارة جديدة، قال ضاحكاً. تمنى لي حظاً موفقاً في عودتي إلى المدرسة، ونصحني أن أبتسم كثيراً. أشعر بالإحباط. لم يكن لديّ دروس عملياً هذا العام. قليل من الدروس بالمراسلة، والقليل منها في المشفى في البداية. لذلك سأعيد الصف. وهذا لا قيمة له. سأغير المدرسة. وإذا لم أحظَ بصديقات، فهذا سيان. جربنا الكثير من عقاقير تجميل الوجه أحدها ناسبني بقوة. هذا ما أنعش روحي المعنوية.

أتذكر الإجابة رقم 1 التي وجدتها في س. م (السؤال المرعب): أطلق النار على الوجه أم القفا.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

09 /13

لا بأس بها، المدرسة الإعدادية. جلستُ قرب النوافذ، الموجودة إلى اليسار. الأساتذة هادئون. أستاذ الفن التشكيلي في غاية اللطف. وطبعاً، لديه صديقة خارقة تأتي للبحث عنه على دراجة فيزبا. تدعى ساشا. تكره اسمها، لأنّ جارها الخبيث الذي يضع قبعة ريكارد على رأسه سمى كلبه ساشا، كلبٌ ألماني ضخم بقامة حمار صغير. ولأنها ترى أن هذا الاسم يناسب صبياً. قلتُ لها إن اسم جوزفين لا يناسب أحداً بصراحة، فهو نمط برجوازي متخمٌ بالغرور. لم توافق. قالت، إنه أنيق جداً. مثلكِ. بسبب هذه الـ«مثلكِ» أصبحنا صديقتين. شقراء ضخمة، نمش برتقالي ينتشر على وجهها وذراعيها وكتفيها وصدرها. يحسب المرء أنه إنْ هزها بقوة، فسيتطاير النمش، ويحلّق. سيكون هذا جميلاً. لكنه بالنسبة لها في غاية القبح. انظري إلى يديّ، كأن أحدهم غرز فيهما آلاف المسامير الصدئة. أحبها حباً جماً لأنها مثلي. لا يحب أحدنا الآخر كما هو عليه. ومع الوقت، نتعلم احترام بعضنا البعض. هذا ما يقوله لي الطبيب النفسي. جاءت اليوم إلى المنزل. رتبتُ حجرتي

إلى حدٍّ ما. استمعنا بشكل خاص إلى ماردي بوم بواسطة السماعات. أعددنا لائحة بأسماء الفتيان في الصف. سبعة منهم قبيحون جداً. اثنان تباً تباً، واحد معقول، أربعة لا بأس بهم وواحد رائع للغاية. لكننا لم ننسَقْ وراء الأوهام، هي بمساميرها، وأنا بلحم فخذ الخنزير.

09 /14

مات باتريك سويزي(*)، لماذا لم يحدث هذا لميل غيبسون؟

04 /10

طرحتْ عليّ السؤال. بشكل بديهي. لم أتجرأ على مصارحتها بالحقيقة. إنها أيضاً قاسية، الحقيقة. فهي تعني الكثير من الأشياء المرعبة: أن التروّي (أنثى الخنزير) التهمتكِ، أنّ الغائط البشري خنقكِ. يعني أنكِ ربما التروي (أنثى الخنزير) ذاتها، أو غائطاً بشرياً، أنكِ لا تستحقين الحب أو هذا المحيط من الحنان الذي يجعل الحياة برمّتها سامية. قلتُ لها إنني أُصبتُ في حادث سيارة، وبلا حزام أمان. وأنّ الصدمة قذفتني من الزجاج الأمامي. ندت عن ساشا برطمة صغيرة مرتابة.

بعد أسبوعين موعد عطلة عيد جميع القديسين. دعتني إلى

(*) باتريك سويزي: ممثل ومغني أميركي توفي متأثراً بسرطان البنكرياس.

منزلها. لدى أبويها منزل عائلة في إيرباج لي بين، قرب غرونوبل. سنستحم في مياه الحمّة المعدنية. رائع جداً.

10/10

حصلتُ على الدرجة 17 في الرسم هذا الصباح. كان علينا أن نرسم شخصية بأسلوب رسام. اخترتُ باكون.

10/29

جنون جنون جنون. قدمتْ لنا أم ساشا عرض **الاسترخاء التام**. ثلاثة أيام. حمامات تدليك مائية. (أعشقها) لصاقات الطين (أوه). مدفع مائي. حوض سباحة حراري. عناية باليدين. تدليك تحت المياه المعدنية. اخترتُ الظَهْرَ، لا أحب أن يلمس أحد وجهي. مسبح مياه معدنية. حمام شمسي. حمام. صالة استراحة. كنّا الأكثر فتوة والأجمل. كانت النساء المسنّات ينظرن إلينا بحسد في البداية، مشوبٍ بشيء من الازدراء أيضاً، وبعد ذلك بشيء من التعاطف، بسبب وجهينا الغريبين. المسامير. لحم الخنزير.

أم ساشا عبقرية، نتحدث مطولاً سوية، حتى وقت متأخر من الليل. شعرتُ أنني كبرت، وأنني بلغت سن الرشد معها، أنني مهمة، أنني موجودة كما أنا. سأتمنى ذات يوم لو أستطيع التحدث عمّا جرى لي. دون خوف أو وجل. لأنني أخال أيضاً أنّ ما وراء هذا الرعب، وخلف الذعر، يوجد الحب.

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

الإجابة رقم 2 على «س م» (السؤال المرعب): خشيَ أن أستيقظ بسبب الضجة إن أطلق على ليون أولاً خشيَ أن أراه يفعل ذلك. خشي ألّا أعود أحبه.

أنا أملأ الفراغات (يتبع).

*

يوم أتممتُ أعوامي الخمسة عشر، طُرِدَ ليون من المدرسة لثلاثة أيام. ذهب أوليف يبحث عنه. تمشيا لفترة مديدة في المنتزه. رأيتهما من النافذة؛ كان ليون يرفض بإيماءات من رأسه. في لحظة، أراد أن يهرب، لكن أوليف أمسك به؛ بدا الأمر كأنه توبيخ أب، إيماءات مبالغة، صوت جهوري. لا أذكر أنكَ وبختنا قط. أو صرختَ علينا. أو ضربتنا. كنتَ هادئاً بالأحرى، كما تقول أمي، مكبوتاً. شخصٌ يستبطن. آه، كلمة مهمة، يستبطن. أتحدث عن هذه الكلمة إلى الطبيب النفسي، الاستبطان، رفض إطلاق العنان للمشاعر، الخوف من فقدان السيطرة. لأنه بعدما فَعَلْتَه بي، استغرق غضبي زمناً ليخرج. كان في البداية شعوراً بالخجل. كنتُ أنا الغائط. عندما لا يعود الأب يرغب بكم، فهذا حتماً خطؤكم. اعتقدتُ هذا لزمن طويل: لم أجعله مسروراً، كنتُ قبيحة، لم يكن لديّ حسّ الدعابة ولا الامتنان، لم أكن جميلة. لم تكن عيناي مائيتان. مع ذلك، لهما لون عينيه ذاته. لم أفكر قط أنه هو

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

المشكلة، لأنه بالضبط أبي. ذهبتُ للبحث في شبكة الإنترنت، كنتُ أرغب أن أصادف فتيات في مثل حالتي، لكن آباءهم (وأحياناً أمهاتهم) يصوبون ظاهرياً أفضل من أبي. ليس ثمة أية ناجية. بالعكس، وجدتُ قضايا سفاح القربى بالمجرفة، آباء عنيفون، كذابون قهريون، منكرو الحمل، لكن فتاة قتلها أبوها، صفر.

أمر مضحك أن أكتب «ناجية»؛ هذه أول مرة. إنها كلمة لم أفلح في تخيلها سابقاً. لم نتحدث عنها في أية جلسة. ناجية: مَن ظلّت على قيد الحياة بعد حادث تسبَّب بوقوع ضحايا، يقول اللاروس.

بقيتُ على قيد الحياة.

لكن من الصعب معرفة السبب.

إذاً. طُرِدَ ليون يوم أتممتُ سن الخامسة عشرة لأنه ضرب صبياً آخر على وجهه، والسبب أن الصبي المذكور قال له عند الخروج من المدرسة «أبوك، هو دواسة قذرة». وعندما أخبرتُ أخي في المساء أن أبونا كان أسوأ من ذلك بكثير، هز رأسه. قال: أبي الحقيقي، هو الآخر.

بعد ذلك اشترى أوليف دراجة نارية. تريومف ضخمة. تُصدر ضجيجاً رهيباً. الفتيات يلتفتن في الشارع، والرجال أيضاً. كان يصطحب ليون إلى المدرسة، وليون يخال نفسه باتمان. حين يفترقان، يضرب كلّ واحد منهما قبضته بقبضة الآخر، كالزعران. في عيد الميلاد، أراد ليون أن يدقّ وشماً. سبق أن اختار وشمه. 不羈独立 كَبَّرَهُ وألصقه على جدار حجرته. فيكي دوكيريتسي. حرية واستقلال. رفعت أمي عينيها إلى السماء. أنت تحلم يا صغيري المسكين، لا يَشِمُ المرء نفسه في سن الثانية عشرة. ردّ

ليون، ثلاثة عشر تقريباً. نظر إليها مواربة. لاحظتُ جيداً ما لم يتجرأ أن يقوله لها وجهاً لوجه: اخرسي، أنا أفعل ما يحلو لي. السيد فوكس كول. ظننتُ أنه يكره ماما بسببك. لم نعد نتكلم إطلاقاً عن هذا الأمر فيما بيننا. إطلاقاً. بعد المشفى، طلبتُ أنا وليون تغيير الكنية، لم نعُد نريد أن نكون جوزفين تروي، أو ليون تروي(*)

أحرقنا كل صورها، المتوحشة تروي. كسرنا كل الأشياء التي أهدتها لنا، حتى تلك التي لمستها. أردنا مسحها. قتلها. ولم نعد نقول إطلاقاً بابا. ولم نعد نذكر اسمكَ البتة. حين لا يعود المرء يتكلم عن أشياء، فإنها تكفّ عن الوجود أحياناً.

لكن لا بد لي من التحدث عنها الآن، إذا أردتُ أن أوجد.

(*) تروي: تعني أيضاً أنثى الخنزير. وسيلعب المؤلف على معنى هذه اللفظة في الصفحات التالية.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

أخذت أمي وأوليف يتبادلان الشتائم بشكلٍ متزايد أغلب الأحيان. بسبب الدراجة النارية. لأنه صار يعود متأخراً أكثر فأكثر. لأنّ كنزته تفوح أحياناً برائحة العطر، أو شعره برائحة دخان التبغ الأشقر. كان يردّ عليها بأنها غير مؤهلة لإعطائه دروساً في هذا الجانب. إن فهمتِ ما أعنيه، يقول بابتسامة فظّة. وذات يوم، أضاف أيضاً: أعرفها، مقصورات القياس. صفَعَته يومئذٍ. وغادرت إلى حجرتها. انصفق الباب. هرع ليون إلى أوليف ليلاطفه. داعب أوليف شعره. ارتدِ خوذتك يا رفيق الدراجة، قال، وانطلقا.

في هذا اليوم ذاته أنجز ليون وشمه. فيكي دوكيريتسي. على الكتف، على مستوى العضلة الدالية. أراني إياه بعد أن جعلني أقسم ألا أخبر أمي بشيء. وإلا سأقتلكِ. أجبتُ، سبق أن حاول أحدهم، ولم يفلح، إنني خالدة. أحببتها حباً جماً؛ فكرة أنني خالدة. حدَّثتُ الطبيب النفسي عنها. حاولتُ التعمق فيها. الخلود. سأموتُ يوماً بالتأكيد، مثل كلّ الناس، لكن ليس هذه المرة. وبما أنني ناجية، إذاً على قيد الحياة، وهو ما يعني أن لديّ شيء ما ليحيا ربما. حياةٌ لي، مع حكاية تخصني، وأناس من حولي قد أختارهم. قد أحبهم. قد يحبونني، حتى برأسي المُطَعَّم بفخذ الخنزير. وابتسامتي

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الجميلة، ابتسامتي التي تقتل. أعرف حقّ المعرفة أنه لا توجد بين أمي وأوليف حكاية ذات شأن. تكلّمنا في ذلك مع ساشا وأمها ذات ليلة. تكلمنا عن الشهوة. كل تلك الأمور، الهيجانات (كلمة لم يسبق لي أن عرفتها). الأذى الذي قد تسبّبه الشهوة أحياناً. الخسارة التي تعقبها. لأنه لا يمكن لأحد أن يظلّ في شهوة دائمة. هذا ثقيل جداً، إنه أكل للحوم البشر. قالت ساشا إنها لن تتزوج أبداً، وسيكون لها عشاق فقط. ضحكت أمها هازئة. وأنا اعترفتُ لهم بأن رغبتي الحقيقية الوحيدة الآن هي أن تأتيني الدورة الشهرية. في سن الخامسة عشرة، لم أكن قد عرفتها بعد، لأن أحداً جفّف قلبي وأفرغني من دمي. كلبٌ مصاص دماء.

12 /25

عيد ميلاد مجيد. حاولت أمي وأوليف أن يكونا لطيفين. جاءت العمة آنا والعم توماس من مدينة ليل بالقطار. اقتنيتُ أحذية من متجر زاديك وفولتير. ديزي، من مارك جاكوب. هدية شراء من متجر H&M (300 أورو). إيمي وينهاوس (سبق أن اقتنيته، شكراً يا أمي). علبة مكياج. وساعة يد قديمة جميلة (تعمل)، روفيرسو. في الداخل، ثمة حروف أولى لا علاقة لها بحروف اسمي. لم أنظر إلى الهدايا التي تلقاها ليون. لا يهمني. لم نعُد نتبادل الحديث كثيراً منذ تهديده بالموت. أناديه دوماً السيد بال. **بال في السرير**. هذا ما يجعله هستيرياً. أعشق ذلك. نقلتْ العمة آنا أخباراً عن جدي. قالت ننتظر. أخيراً، قالت نحن وزوجها ننتظر. العم توماس هو الوحيد الذي فهمها، تقصد مع «ق ب» (القذارة البشرية)، وأنا إلى حدٍّ ما. قد يحدث هذا غداً، بعد عام، بعد عامين، ننتظر. قالت إن كوليت تزداد شبهاً بشخص مصاب بمرض باركنسون. مع أن الأمر ليس على هذا النحو، لكنه فقط خوفٌ من أن تُهْجَر، أن تجد نفسها وحيدة ذات صباح، وذلك ما يجعلها تتشنج. إنه أمرٌ مرهق. حين تطعم

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

جدي، تنثر الطعام في كل مكان، تعتذر، تخجل، وتفرط في البكاء بسبب ذلك.

عندئذٍ، دفعت العمة آنا أجراً لسيدة لا ترتعش، تأتي في أوقات الوجبات، تخوض معهم نقاشات ودية قصيرة، بشأن أشياء بسيطة: الترميمات في شارع بلفور، وفاة مصفِّفة الشعر في شارع دو شودرونييه، كلب مدهوس. أعطتني هدية من كوليت. خاتم صغير. فصّ ألماس صغير جداً. علاقة تربط بيننا جميعاً. ومع أنها زوجة الأب الوحش، إلا أن هذه العلاقة أمتعتني، فكرة وجود عائلة. فأنا لستُ وحيدة تماماً، منبوذة، مقتولة. ظلّ الراشدون في الصالون. آويتُ إلى غرفتي لأكتب هذا، قبل أن أتصل بساشا.

01 /8

تحدثتُ أمي هذا الصباح عن وضع ليون في مدرسة داخلية، لكن أوليف لم يوافق. قالت إنني أمه، رغم كل شيء. وقال ليون: أوليف هو أبي، بل إنه صرخ وهو يقول ذلك. وضعَتْ أمي يدها على فمها، كأنها أرادت أن تخنق صيحة، أن تمنع نفسها عن التقيؤ. غمرها الحزن فجأة. قلتُ بدوري إن المدرسة الداخلية ستفيد السيد بال، ستخفف خبثه. وقال لي أوليف أن أخرس.

أكرههم جميعاً. أكرههم جميعاً. أكرههم جميعاً.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

8/ 01 (الليل)

الإجابة رقم 3 على «س إ» (السؤال الإنساني): لأن الفتيات، هن من يخشاهن.

21/ 01

لعبتُ لعبة مع الطبيب النفسي اليوم. طلب مني أن أصفَ له الشخص الذي أودّ أن أكونه فيما بعد. لم أدرِ بما أجيبه. انتظرَ.

ثم قلتُ: طبيعية. فقال لي: لكنكِ كذلك الآن؛ أنتِ طبيعية.

قلتُ لا طبيعية، عندما أغدو محبوبة.

في نهاية الربيع، اكتشفتْ أمي الوشم على كتف السيد بال. أصبحتْ مجنونة. طلبتْ من أوليف الرحيل. أن يغادر المنزل. قالتْ إنه غير مسؤول، وأنها ستتصل بالشرطة. ترسمُ وشماً لطفل! غادر أوليف على دراجته النارية ولم يعد ليون يهتم بالمدرسة. أصبح مقيتاً وشريراً. راحت أمي تبكي أحياناً في الليل. وأحياناً لا تنام في المنزل ليلاً - كما في السابق، في مرحلة التروي. صارت تعود في الصباح، حاملة الكروسان، لتقلد نموذج «إنني أم جيدة». لكنني أرى بوضوح عينيها الحمراوين، بشرتها المتسخة، عدم استخدام مساحيق التجميل، الدهن. العُقَد في شعرها، وخدوش على عنقها ويديها. في قلبها. أرى بوضوح معاناتها. وقلتُ للطبيب النفسي أن «ق ب» (القذراة البشرية) رأتها أيضاً ولا بد. لا يفلتُ المرء من معاناة الآخرين، فهي تقفز في وجوهكم. تجتاحكم. رغماً عنكم. وأسهبنا في الحديث عن ذلك. المعاناة، الحزن، الجرح، العذاب. وضعنا لها سلماً من الواحد إلى العشرة، وحاولتُ ترتيبها كمياً، والتآلف معها.

صفا لون فخذ الخنزير على خدي. صار يشبه وحمة الولادة. أمر مقبول. لم تزل الحفرة في فكي موجودة. أصبحتُ أمضغ اللبان.

أدخن. أوازن. أفرطُ في الابتسام. وجد لي مصفِّف شعر تسريحة أنيقة جداً، تمحو فضيحة براز الكلب. أخذ صبي يطلب من حين إلى آخر أن أقابله في ستاربكس بعد المدرسة، ليس خارقاً، وليس أيضاً واحداً من درجة «لا بأس به» في الصف، لكنه ليس قبيحاً للغاية أيضاً. حسن، يا جوزفين، لعله أفضل الممكن.

تابعتُ رؤية جينيفييف مرتين أسبوعياً، وصار نطقي بعد أربع سنوات من العمل مثالياً. . قالتْ، «فصيحة». عرفتُ أنني لن أغدو أبداً ممثلة أو مذيعة (وهذا أفضل)، لكنني أحببتُ تشجيع جينيفييف لي. لا، معاناتي الحقيقية في الداخل. هائلة، سحيقة، تنخر بطني وقلبي وعظامي. جعلتني في غاية الإرهاق. إن لم تختفِ هي، فإنني أنا مَن سأختفي.

بالتأكيد فكرتُ في ذلك. ماذا فكرتِ؟ أن أنهي مهمة الكلب. وحتى ترددتُ. بلطف، أم بالأقراص مثلاً؛ أم بالقوة. اخترتُ القوة، العنف. جوزفين، ابنة وحش. لا يتغير المرء أبداً. كانت شقتنا في الطابق السابع. سقوط من ارتفاع 21 متراً. سأطير. لفترة 2,069 ثانية. سأُسْحَق بسرعة 73,1 كم/سا. تَخيَّلْ وجهي على الرصيف في الأسفل، كأنني تلقيتُ كرة بولينغ زنة 800 غ بسرعة 580 كم/سا. أَفْضَلُ من رصاصة مسدسك القذرة. انسحاق تام. لا فخذ خنزير. حتماً.

أنتَ لم تكن تعرف أنني متفوقة في مادة الفيزياء.

عندما رويتُ له هذا، قال لي الطبيب النفسي: أنتِ تشبهينه من ناحية ما. من ناحية المبالغة. الشغف. نهضتُ كالملسوعة، غادرتُ عيادته القذرة، صفقتُ الباب. كانت السماء تمطر في الخارج. وفكرتُ أنني لم أسأله قط لماذا تمطر السماء. لم أسأل أبي.

خرجت ساشا مع صبي. صبي في المرحلة النهائية قبل البكالوريا. قالتْ، إنه ليس كميل لاكور حقاً، لكنني لستُ أيضاً فاليري بيغ حقاً. سن الثامنة عشرة، ثوب قوطي. رزانة خلال الأسبوع. فلكلور في عطلة نهاية الأسبوع: إغراءات في غير محلها، نظارة لحَّام. هذا يناسب مساميرها الصدئة تماماً. ضحكنا مثل حوتين. استمر ذلك شهراً. ستة وعشرون يوماً بالضبط. تَرَكَتْه، لأنه إلى حدّ ما أراد المضاجعة، لكن على الأخص لأنه مكتئب. إلا أنه كان يُقَبِّلُ بشكل ممتاز. لديه لسان طويل للغاية، يستطيع أن يلمس به ذقنه. بيدَ أنه يثير الاشمئزاز حين يفعل ذلك، مثل قضيب رخو. ما الذي يضحكني مع ساشا. أحبها. إنها أختي. حدثتها عن القذارة البشرية. عمّا فعله بي. بكينا. كان هذا مريحاً.

بعد ذلك عاد أوليف. طلبتُ منه أمي أن يرجع. أعتقد أننا كنا نسبب لها الخوف، أنا وليون، طفلا الـ«ق ب» (القذارة البشرية). لم يكن لديها ما يكفي من الرغبة لتظلّ أماً وتبقى وحدها معنا. صارت تهيم حباً بأدوات زينتها. الإغراء، الغزو. وَجَدْتُها فائقة الجمال، أمي. وما جعلها أكثر جمالاً أيضاً، هو أنها خطيرة. لطالما تمنيتُ أن أكون مثلها وفي الوقت ذاته ألا أكون. لدي جانب

هادئ أحبه حباً جماً. أعرف يا سيدي الطبيب النفسي، أعرف. هادئ جانبه هو. هذا ما يربطني به. هذا ما يقربني منه.

وإلى حين، أصبح ليون أخاً صغيراً لطيفاً من جديد، بعد عودة أوليف. صار يكتب وظائفه. يستحم (لأن رائحة نتنة تفوح منه حقاً في بعض الأحيان). ينظف أسنانه، يضع مزيل رائحة العرق من وقت إلى آخر، ويسكب الماء في المرحاض. وأيضاً قال لي إنني لستُ سيئة. لستُ إيفا ميندس ولا سلمى حايك، لكنني لستُ سيئة على أية حال. أصبحت الحياة في المنزل حلماً. يا سلام. تتبادل أمي وأوليف قُبَلَ الفم في حضورنا. يضع يده على مؤخرتها، فتتلوى ضاحكة، يمثلان دور الحبيبين ودور أولئك الذين يشتهي أحدهما الآخر. اصطحبها ذات مرة لركوب الدراجة، فعادت مصابة بالهستيريا، وهي تتحدث مثل التسجيلات الصوتية للأفلام الإباحية. أخذ ليون يبكي، بينما قال له أوليف لا تقلق يا صديقي، ليس لي إلا رفيق واحد في ركوب الدراجة، هو أنتَ. وانطلقا لاجتياز نفق فورفيير حتى نهايته. ما عدا ذلك، ساد البرود في المدرسة. كنتُ أحصل على علامات ممتازة. سأنتقل إلى المرحلة الثانوية، مع ساشا. وحصلَ ذلك أخيراً. نزفتُ.

09 /19

خرجتُ برفقة صبي هذا الصيف. لكنني لم أدَعْهُ يقبِّلني. مع ذلك، لا بد أنني ملكة القبلة، بفضل كل ما علمتني إياه جينيفييف في المشفى. تحدثنا سوية في الكثير من أمور الفتيات. أهيم به. الصبي، تركته يداعبني، يدغدغني بإصبع، وحتى إصبعين. أما الفم فلا. حدثتُ الطبيب النفسي عن ذلك، قال، إن هذا فرويدي جداً، مسلٍّ. قلتُ له إن فمي مقدس. خيمة ألمي، مكان موتي، ندبة ولادتي الجديدة. كنتُ وقورة قليلاً، أعرف، وحتى فائقة الجدية.

تراودني الكثير من الأسئلة. في هذه اللحظة، تملؤني الـ«لماذا». لماذا لا نتكلم عنه إطلاقاً يا أمي، لماذا فعل هذا، لما أنجبتم أطفالاً إن كنتم لا تحبونهم. لماذا أنا. لماذا تبدأ الرغبة دوماً بالنار وتنتهي إلى رماد. لماذا أبكي هكذا من أجل لا شيء. لماذا أخجل. لماذا هذا الشعور الهائل بالريح. بالبرد؟

كليمان. هو اسم الصبي. لطيف. أصابعه نزقة إلى حدٍّ ما. **إصبع شريرة**. هكذا سمَّته ساشا. وانفجرنا بالضحك. ليس لديه خبرة. رغم كل شيء. كليمان. مع ذلك، هذا جيد. لا صداع. لا

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلمات حب بلهاء. فقط كلمات واقعية. مهبل. قضيب. نهدين. رحلة استكشافية. ثم غادر إلى منزل جدته، في مزرعة قديمة في ريستولا، على بعد خمسة كيلومترات من إيكوي. قرية صغيرة في جبال الألب. مع الحيوانات. هذا ما قاله لي. أبقار، ماعز. تخيلتُ عندئذٍ أنه سيحلبها بحسب الطريقة التي داعبني فيها خلال خمسة عشر يوماً. سرني أنني لم أقبله. إنها شيء فائق الجدية، القبلة، لكن هذه الفكرة تجعلني أخال نفسي أحياناً كبقرة بين يدي رجل، وهو ما يثير اشمئزازي.

09 /20

سافرتْ أمي وأوليف سوية لمدة أسبوع. بالتأكيد سأهتم بالسيد بال (يحلق الآن شاربه ليجعله ينمو)، سأعدّ له الطعام، وأنظف فضلاته، وأتحقق من حقيبته المدرسية صباحاً. أو من وظائفه مساءً. قال أوليف، لستِ خادمته. ولا أمه. لستِ مربيته. أضفتُ، ولستُ أباه أيضاً. كان هذا محرجاً. سافرا ليعطيا نفسيهما فرصة جديدة، هذا ما جعلني أضحك: أن يمنحا نفسيهما فرصة جديدة. سألني الطبيب النفسي لماذا يُضحكني هذا. لأنه وهمٌ ما دمنا لم نغفر. فرصة، هي هدية الغفران. تحدثنا عندئذٍ عن الغفران وكان الأمر شاقاً لأنه يثير أموراً في غاية الثقل. تطحن الأصابع. أشعر أنها لن تنتهي أبداً، هذه الرصاصة، وأن الدَوي لن يتوقف أبداً. كل هذا الألم. ثمة بعض الكلمات تسبب لي ألماً جسدياً حين أحاول التلفظ بها. مثل المغفرة، بالضبط.

غفر. مداعبة. طفولة. حنان. وافق. بابا.

10 /24

الإجابات 4 و5 و6 على الـ «س ب» (السؤال البشري): لأنه غيَّرَ رأيه في اللحظة الأخيرة، فَضَّل الإبقاء على ليون بجانبه. لأنه فكر أنني عشتُ زمناً أطول من أخي وأنه يحقّ لأخي حصة إضافية صغيرة. لأنه كان يهيم حباً بي.

10 /25

تغيَّبنا اليوم عن المدرسة للاحتفال بعيد ميلاد ساشا. أهديتها معطفاً جميلاً، من عند «زارا». أحمر، أزراره سوداء، تفصيلة سنوات الخمسينيات، لأودري هيبورن(*) بشعرها الناري، تشعل ساشا كل شيء. ثمة نماذج تَصْفُرُ لها في الشارع. رجال. رجال متزوجون. جياع. جعلنا هذا نضحك. في مقهى ستاربكس، أراد عجوزٌ أن يقدِّم لنا قهوتنا وكعك التوت. رفضنا قذارته فعاملنا كعاهرتين. أخبرني، لا يمكن للرجال أن يشفوا. ثم ذهبنا لمشاهدة فيلم ذا بيبربوي، بطولة زاك إيفيرون، ماثيو ماكونهي، نيكول كيدمان في دور الإغراء. لا بأس بمشهد السجن وهي تداعب نفسها. نهاية

(*) أودري هيبورن: ممثلة بريطانية وعارضة أزياء وناشطة في المجال الإنساني.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

عنيفة جداً. أكلنا طنين من البوشار ونحن نضحك (لكنني حاذرتُ ألا يسقط فكي) كلما درَّب ماكونهي عضلات بطنه. حين خرجنا من السينما، كان الجو في غاية اللطف. تنزّهنا على ضفة الساون، رصيف جوزيف جيليه. رصيف سان فانسان. أمضينا نهاراً مدهشاً. أنا وساشا فقط. المسامير وفخذ الخنزير. خارج الزمن. كنا نَعُوم.

11 /2

مساء أمس، وجدتُ، وأنا أرتب أشيائي، رسالة من صحفية، يعود تاريخها إلى عامين خلت. أرادت مقابلتي لتأليف كتاب معي، بشأن ما حصل. هذا ما جعلني أشعر بالكرب. لانا دلري في القاع. أغنية **بنطال جينز أزرق** تتكرر.

آمل أن الندم يقتل.

*

بالطبع، كنت أراجع الأطباء في المشفى بانتظام. فحوصات أشعة، اختبارات. كان جميع الناس مرتاحين. سألتُ، بخصوص شريحة لحم الخنزير. لم يفهموا على الفور. ليس للرعب حسّ السخرية. ثم أرادوا أن يطمئنوا، لكن سيظلّ ما يشبه الوحمة الصغيرة يا جوزفين. وبناء عليه، مع مرور الزمن، سيقترب لونها من لون بشرتك. مع مرور الزمن. كان هذا يجعلني جميلة. بالأحرى قبيحة.

علمتني جينيفييف الغناء. علمتني الترنم. كان هذا مرعباً. وصوتي مروعاً. أنتَ دمرتَ هذا أيضاً. ساعَدَتني على اكتشاف مغنيات محترفات على اليوتيوب. لسن مسليات. وجَعَلْتُها تصغي إلى أغنية مقبولة في الثمانين. رومانسية بالية. دعتني إلى كافتيريا المشفى. اعتراني شعور غريب من استعادة طعم الأشياء التي سبق أن أكلتها كل يوم لمدة ستة أشهر. اشمئزاز منكَ. لذلك رحتُ أقيس

مع الطبيب النفسي كل الطريق التي اجتزْتُها، كل الحزن. في عيادته، نظرتُ ذات يوم إلى نفسي مطولاً في المرآة. قال، تَقَبَّلِي الأمر، اعترفي أنك جميلة رغم كل شيء. اعترفتُ بذلك: إنني جميلة رغم كل شيء. تنهَّدَ. كبرتِ أخيراً. ابتسمتُ. على الخد الأيسر، المرعب، راحت حفرتي الصغيرة تتراجع، بمنتهى الهدوء. استعادتْ مكانها. شعرتُ بسعادة غامرة. عيناي أيضاً، بخضرة الماء، مثل عيني براز الكلب. وكذلك مثل عيني جدي على ما أظن، الذي ترك جدتي تموت من بؤس الحب. ظل الناس ينظرون دوماً في عيني. فأنا محظوظة لأنني فتاة مكتملة. شكراً أمي. ما خلا أن ساقيَّ أطول من ساقيها. كانت ساشا تقول (ولم تزل تقول) تجنننننان. قررتُ ألا أعود أتذمر من وجهي على أية حال. وحين غادرتُ الطبيب النفسي في ذلك اليوم، شعرتُ بالارتياح.

مساءً، بالعكس، شتائمُ مقذعة أيضاً بين أمي وأوليف. أعلن ليون أنه في حال الانفصال سيذهب للعيش مع أوليف. رفيق الدراجة. ثارت ثائرة أمي بمجرد أن تفوّه بذلك، زعقت بأشياء من قبيل ستفعل ما أقوله لك، إنني أمك، وأنا مَن يقرِّر. وحين أجاب السيد بال، الأمرد، لا يهمني، سأهرب، سأختفي، قذفت أمي الجدار بشيء ما. تناثرت شظايا زجاجية مرتدة، وأصيب ليون في وجهه. نزف على الفور من مكانين. عندما لمس خده، أصبح كفه أحمر، كما لو أنه دَهَنَ يده. أُغميَ عليَّ فوراً.

العار، جاء بعد ذلك بقليل. سخر ليون مني. تبولتِ على نفسكِ! تبولتِ على نفسكِ! صارت لديه ضمادتين قذرتين صغيرتين. واحدة على الجبين والأخرى على الخد. لا شيء خطير، لكن الوجه ينزف كثيراً. أعطاني طبيب من أطباء الإسعاف عقاراً منوماً.

أصبحَ كل شيء رخواً فجأة. الفراش، اللحاف. صرتُ حجراً في القطن. سمعتُ صوت التروي. بعيداً جداً. بعيداً جداً جداً. أجل، أجل، صوتُكَ. راح يقرأ علي قصة هانسل وغريتيل. واستغرقتُ في النوم.

12 /2

خلال هذه الجلسات الأخيرة، أسهبتُ في الحديث عن الذكريات. قبل ولادة ليون على سبيل المثال. تذكرتُ تلك المرحلة بوضوح. كنتُ أعدُّ حجرته مع أمي. كان بطنها كبيراً، وثدياها ضخمين. ثمة صورة يظهر فيها ثدياها. اشترتْ دمى. تركتني أختارها. رسمتُ الكثير من الرسومات لأجل غرفته. علَّقناها بكلَّابات صغيرة على أسلاكٍ ملونة. زرعت أمي أزهاراً أرجوانية ووردية في حديقتنا. التقط الـ «ق ب» (القذارة البشرية) صوراً لنا. كان يقول إننا جميلتين، وإننا نجلب له السرور، وإنه يشكرنا.

و؟

أعرف أنني لا أريد الاعتراف بذلك، لكنها كانت مرحلة رائعة من حياتي. أبواي على وفاقٍ آنذاك. أعني مرة أخرى. وأنا بينهما. أحبهما كلاهما. لا بد أننا عشنا جميعاً حياة جميلة. ثم حدث هذا.

ثم ماذا؟

تعرفُ ذلك حق المعرفة.

يريدني أنا أن أقوله. التحليل النفسي، حتماً، بحرف بداية

كبير. يجب على الكلمات أن تخرج. يجب أن يتقيأها المرء إن أراد الشفاء. لذلك تكلمتُ. تكلمتُ عن النهار، عن النهار الذي سبق ليلة الكلب تماماً.

2/ 12 (في الليل، ينام جميع الناس)

تمر نهارات مثالية أحياناً. يحذر المرء منها. يحسبها طبيعية. منذ أن استيقظتُ، شعرتُ بشيء مختلف. في البداية الضياء في الخارج. السماء زرقاء صافية. كل شيء في غاية الوضوح، كما في صورة فوتوغرافية. بدا الهواء نقياً، إن فهمتم ما أعنيه. ذهبَ للبحث عن كروسان وخبز بالحليب. خبز بالحليب من أجل ليون؛ كان يحبه مع شوكولا النوتيلا. تناولنا إفطارنا نحن الثلاثة. ضحكنا. تكلمنا عمّا نريد القيام به ذاك اليوم. كان يقول: كل ما تريدانه. سنفعل كل ما تريدانه. لم أكن أريد أنا وليون شيئاً ذا أهمية. أعني، لا الذهاب إلى المتحف ولا إلى النادي الرياضي. لا أردنا فقط الاستمتاع بالنهار سوية. البقاء هناك، في المنزل. الاستماع إلى الموسيقى. الرقص. وهذا ما فعلناه. لم أشاهده من قبل يرقص. كان مضحكاً. عَلَّمْتُه شيئاً من رقص الروك، لكن لم يكن لديه بحق إحساسٌ بالإيقاع. بعد ذلك، كما لو أننا في مسبح، رشنا بالماء في الحديقة، بخرطوم سقاية، رغم البرد. قلنا، أنا وليون، إنه من الجميل أن نحظى بحوض سباحة ذات يوم، فأجاب أجل، موافق، سنركبُ حوض سباحة. سأل ليون، حقيقي؟ وليس حوضاً بلاستيكياً تافهاً. حقيقي. مع لوح للغطس. قال ليون، وماءٍ دافئ. وضحكنا. مددنا

أسلاكاً لتحديد مكان بناء الحوض ووعد بالاتصال في اليوم التالي بشركة وأننا خلال ثلاثة أشهر، في الربيع، سنسبح جميعاً فيه. حدث هذا في ذلك النهار. أشياء من هذا القبيل. أشياء عائلية، أحلامٌ صغيرة تُبنى. تتحقق. بعدها أعددنا سوية الطعام. حضَّرْتُ السلطة، كنتُ ماهرة في تحضير السلطة. فرش ليون المائدة. فتح هو زجاجة نبيذ. صبَّ قليلاً لكلٍّ واحد منا وشربنا نخب حوض السباحة. نخب السماء الزرقاء. نخب صحة جدنا، حتى يشفى من السرطان. نخب كوليت حتى لا تعود ترتعش. نخب أمي، حتى تعود يوماً. طلبَ منا المغفرة على كلّ المرات التي لم يكن فيها أباً عظيماً. نهض ليون وعانقه قائلاً له إنه أب عبقري.

الإجابة رقم 7 على «س ب» (السؤال البشري): لأنني لم أقُل له إنه أب عبقري.

تأثر كثيراً بعناق ليون. فرك عينيه. قال إنه يحبنا، وأنه سيجد عملاً عمّا قريب، وأن الأمور ستعود إلى نصابها. أكلنا بلذة - ولا بد لي من الاعتراف أن السلطة كانت ممتازة. سأله ليون إن كان بوسعه أن يُسَجِّلَ في الجودو. لم يتحمس للأمر، لكنه وافق فنهض ليون عن المائدة مباشرة ليقلد حركات قتال مثيرة للسخرية، مثل محبوبه جيسون بورن. حدَّثْتُه عن المدرسة، عمّا أودّ عمله فيما بعد. مصممة أزياء. أو عطّارة. سبق أن قرأتُ كتاباً عن شخص يصنع كل عطور هيرمس تقريباً. تولهتُ به. أحببتُ هذه اللغة، هذه الكلمات الفواحة، هذه العبارات الصامتة والمتميزة التي تخلفها وراءها. أصغى إليَّ مطولاً وشعرتُ أنني على ما يرام. عظيمة. فخورة أيضاً، لأنه خصَّص لي كل هذا الزمن. جلس ليون أمام الفيديو. وبقينا نحن على المائدة. طلب مني أن أصف له العطر الذي سأبتكره. كان

سؤالاً صعباً. نوغا. مالبار. قليل من العرق سوس. قليل من الزنبق (إنها أزهار زرعتها أمي في حديقة منزلنا). مع شيء من الطفولة في داخله، قلتُ. وجد ذلك في غاية الجمال. أغمض عينيه كأنه يحاول أن يشمّ، أن يستنشق العطر الذي ابتكرته للتو. داعب خدي. ابتسم لي. قال سيكبر جانبك الطفولي الرائع دوماً يا جوزفين، صدقيني. وصدقته. أحببتُ تصديق أبي في تلك اللحظة. أعرف. علق الطبيب النفسي: هذه أول مرة تقولين فيها أبي منذ أن التقينا.

أبي. مقاطع لفظية غريبة فجأة، تحرق فمي، تثقب جلدي، كالإبر. وفي الوقت ذاته، دافئة، هذه المقاطع اللفظية. مريحة.

غسلنا الأطباق سوية ثم اصْطَحَبَنا إلى محل مونتوا، من أجل الحلوى. شرح لنا لماذا أصبح رأس العبد عطيلاً، مع أن تبديل اسم الكعكة لم يكن من شأنه أن يجعل الناس أكثر تسامحاً وأكثر لطفاً وأكثر كرماً. قال لنا إن المواعيد في مكتب البطالة قاسية، وأن الكلمات تُحَلِّقُ أحياناً وأنها تجرح الناس حين تسقط من جديد. حكى لنا عن امرأة انهارت عندما أخبروها أنه لم يعُد لها الحق بأي شيء. كانت هذه كلمات قاتلة: الحق بأي شيء. راح يحدثنا كأننا شخصين بالغين. شعرتُ أنا وليون بأننا مهمين. كان هذا رائعاً. طرحنا عليه الكثير من الأسئلة وأجاب. فجأة، قال إن هناك سؤالاً لم أطرحه عليه قط وأنه يتمنى لو أطرحه. أي سؤال يا أبي؟ لماذا تمطر؟ فأجاب ليون: لأنهم أعلنوا عن ذلك في النشرة الجوية؛ وضحكنا. لكنني شاهدتُ بوضوح التماعة حزن تعبر في عيني أبي. حين عدنا، لعبنا المونوبولي. لعبة مجنونة. كنتُ أخسر. حين يدير المصرف، يمرِّر لي أوراقاً نقدية من فئة الخمسمئة من تحت الطاولة. كنا نخشى أن يرانا ليون. كان هذا سرّنا في ذاك العصر، تلك

الأوراق الصفراء المائلة إلى الخضرة تحت الطاولة. سرّنا الكبير الأخير.

بيتزا في المساء. فيلم **دي هارد 1** من أجل ليون. للمرة المئة. لعبة فيديو من أجلي. للمرة الألف. ثلاثتنا على الأريكة. أكلنا شوكولاتة إم إم س. بعدها طلب منا أن نذهب إلى الحمام. أن ننظف أسناننا. إنها مهمة، الأسنان، فهي لا تنمو مرة أخرى. الوجه. اليدين. الأذنين. انتبهوا، سآتي للتحقق من أسِرَّتكم. صرخنا. ضحكنا. كنا أشخاصاً راشدين وأطفالاً، في النهار ذاته. حظينا بأبينا لنا وحدنا. أوشكنا على بناء حوض سباحة في الحديقة. أوشكنا أن نجد عملاً. ولعلّ سرطان جدي أوشك أن يشفى. كان أنجح نهار في حياتنا. ثمة نهار قبله، لكن أمي كانت معنا أيضاً. بيْد أن ذاك النهار مع أبي هو الأنجح في حياتنا. تباً. كتبتُ ذلك، لكن هذا صحيح. كان ألطف أب في العالم. قرأ علينا **قصة هانسل وغريتل** في فراشنا. إنه الكتاب الذي كان يقرأه دوماً على العمة آنا إبان طفولتهما، والعمة آنا تسحب الغطاء حتى أنفها وتهمس: **تكلَّمْ بلطف، فالكلمات تخيفني.**

تعانقنا. تعانقنا بحميمية. ثم كرَّر أنه يحبنا، أنه يحبنا أكثر من أي شيء، وأن وقت النوم حان الآن، وأن هناك مدرسة في الغد، وأنه سيكون يوماً حافلاً.

وأقبل الليل.

نجحنا، أنا وساشا. رفعنا أيدينا. هي (16,2) وأنا (15,8) بدرجة متوسط. انتقام فخذ الخنزير والمسامير. نحن الأقوى. نحن الأجمل. أصيبت أمهاتنا بالهستيريا. اصطحبتانا للتسوق. **تسوق فتيات غير محدود.**

بلا نشوة. **تسوق غير محدود.** هذا يعني أربعمئة أورو. حدّ أقصى، لكن لا بأس.

وبعد ذلك أخبروا أمي أنكَ خرجتَ. مكثتْ مذهولة لبضعة ثوانٍ. اضطروا إلى إجلاسها وطمأنتها. لن يعود يا سيدتي. لن يطلب شيئاً. ولا حتى رؤيتنا؟ لا تقلقي. كانوا لطيفين معها. أعطتها امرأة قرصاً مهدئاً. سيريحك هذا. سألتْ أمي، ليس ثمة ما يدعو للخشية إذاً؟ لا شيء. قال إنه سيختفي وأنكم لن تسمعوا عنه شيئاً أبداً. طلب المغفرة، لكنه يعرف أنه لن يحصل عليها. قالت أمي، لذلك هو الآن في حكم الميت. وتفاخر ليون قائلاً إنكَ إن عدتَ، فسيقتلك، وأضاف أوليف، وأنا سأساعدك، يا رفيق الدراجة. وقاما بحركتهما التافهة، ضرب القبضتين.

في ذلك اليوم، بعد مرور ثلاث سنوات على ليلة الكلب، الموافق يوم الاثنين السابع من يونيو عام 2010، قلتُ، دون أن يؤلمني فكي، دون أن تتعثر الكلمات في فمي، دون حزن، دون أيّ ألم، قلتُ بابا رحل، كما لو أنني قلتُ العاصفة انتهت، النار انطفأت أو، استعداد، يمكننا الجلوس إلى المائدة.

وبدا لي أنّ ألف طن من العفن والدم انزاحتْ فجأة عن كتفيّ، عن وركيّ، وانزلقتْ على امتداد فخذيّ. وتركتُ حيضي يتدفق، غزيراً، دافئاً، لزجاً. جذبتني أمي، احتضنتني بين ذراعيها. كانت

ترتعش. بَلَّلَ دمُ جوفي قدميها قبل أن تشربه سجادة الصالون. راحتْ تبكي. كنتُ أبتسم. حفرتي ابتسمتْ. شعرتُ بنفسي خفيفة. مغسولة. حية.

*

إنكَ في حكم الميت.

05 /21

هذا الصباح، بلغتُ سن السابعة عشرة. هذا الصباح، مات جدي. قالت ساشا، هدية عظيمة. أغادرُ إلى مدينة ليل بعد قليل. ثلاث ساعات بالقطار. مباشر. قالت أمي، أنتِ لستِ مضطرة للذهاب. إلا إن رغبتِ بذلك. هي، لن تأتي، ليون أيضاً، أعلن أن ذلك لا يهمه، وأنه لم يكن جده، وأن جده الحقيقي هو أبو أوليف. وأن أبا قاتلٍ لا يستحق أن يُسافر من أجله.

05 /22

إنني في منزل العمة آنا. في غرفة جميلة جداً، تطلّ على حديقة. منزل صغير في مدينة ليل القديمة. ذهبنا إلى كامبري مبكراً هذا الصباح. إلى منزل كوليت. كانت جالسة، لم تعُد ترتعش. في لحظة موت جدي، سقطت يداها على ركبتيها، مثل ثمرتي فاكهة متعفنتين. توقفت شفتاها عن الاجترار وأصبحتا مزمومتين. مال

رأسها بلطف إلى الجانب، وكفَّت عن التذمر. وفي غضون ساعة، أنهى شعرها ابيضاضه. مثل وشاح زفافٍ قصير. خِلْتُ عندئذٍ أنّ ما كان يجعلها ترتعش هي حياة جدي التي تَنْفُخُ فيها؛ وبعد الآن، لم يعد هنالك نفخ، فقط همود. حزن مستقر. ثقيل كالصخور. احتضنتني بين ذراعيها الهامدتين. وبقيتُ لفترة مديدة. وبعد برهة، قالت لنا إن الأسابيع الأخيرة كانت رهيبة، فهو لم يفلح حتى في أكل شرائح الكرمنتينا؛ لذلك كانت تضغطها على فمه، فيسيل العصير على شفتيه، على ذقنه، ولم يعُد لسانه يقوى على لعقها. لم يعُد يزن شيئاً. أثقال هائلة من الحسرات. هل يتحسر المرء لأنه لم يحب بما فيه الكفاية، عندما يرحل؟ لم يعُد يعرفها. لم تعُد عيناه تتفتحان، لكنهما تواصلان البكاء. هل كان يبكي ما فعله أبي؟ خلال هذه الأسابيع الأخيرة، ظلّت كوليت ترتعش كما هو دأبها. بعنف، وبحركات إعصار أهوج، كأنها أرادت أن تغذي مولّداً سيحافظ على شعلة الحياة عند جدي. تسببتْ حركاتها المفرطة بالكثير من الأذى في المنزل. أمضيتُ مع العمة آنا الصباح في ترتيبه، في تنظيف قذارة الموتى الهامدين، في التقاط حطام حياة، الذكريات. وفي خضم الفوضى، وجدتُ بطاقة بريدية من أبي، تعود إلى صيف عام 1982. كان مع العمة آنا في مخيم ألب دويز الصيفي. عمره ثلاثة عشر عاماً. كتب إلى كوليت «أسألكِ المعذرة لأنني كنتُ شريراً معكِ، سأبذل ما بوسعي، لكن إياكِ أن تصدقي بأنكِ أمي، أو أم أختي». لم أتخيل قط أن أبي مرَّ في سن الثالثة عشرة، وأنه أمضى تلك الطفولة، أختٌ صغيرة ميتة، أخرى تتحدث بنصف الكلمات، أمٌّ رحلتْ، اختفت. وكوليت، في صميم غضبها، في معاناتها الآن، ليست إلا في وسط الأشياء.

اصطحبتنا العمة آنا جميعاً إلى المطعم هذا المساء. انضم إلينا العم توماس. لم تبتلع كوليت شيئاً يُذكر، راحت تبكي بغزارة، تخفي وجهها في منديل. شعرتُ بالكآبة، لأنها لطيفة. حضرت من أجل ليون، كأم. حضرتْ على الفور في الليلة المرعبة. حين نقلوني في سيارة الإسعاف إلى المشفى، حين كانت أمي تضاجع رجلاً في نيس أو باريس، حين انقلبت حياتنا رأساً على عقب.

الوقت متأخر، لكنني سأتصل بساشا رغم ذلك. لأنني عندئذٍ، أشعر بنفسي قوية على الفور.

05 /23

عبرتُ أمام منزلنا القديم منذ قليل. وضعَ السكان الجدد ورداً على نوافذ الطابق الأول. لن تصدقي يا ساشا، إنها زنابق. تدفقتْ الذكريات. أبي. أمي. نحن جميعاً. شذرات طفولة. كما قِطَع البازل الصغيرة. لا يعرف المرء أية صورة ستتشكل في النهاية، لكنه يرغب برؤيتها. نكبرُ من أجل هذا، نريد أن نكبر بسرعة. قلتُ في سري إننا لا نعرف السعادة إلا فيما بعد؛ لا نشعر بها إطلاقاً ونحن نعيشها، على العكس من الألم. منذ أن أصبحتُ هنا في منزل العمة آنا، أرغب بالسعادة في داخلي. بالسلام. هذا محبط. اتصلتُ بالطبيب النفسي هذا العصر لأحدثه عن ذلك. هذه الحاجة المفاجئة لاستعادة أسرتي، مكاني. قال، هذا حسن، تريدين أن توجدي لأجل ما أنتِ عليه، وليس لأجل ما عِشتهِ. أخيراً. ما عِشْتُه، كما يقول، يفضي دوماً إلى الشفقة، الاكتئاب، الاشمئزاز، الاحتقار.

أتذكر ذلك الأبله في الصف، العام الماضي، الذي سماني فوتوشوب. لم أتفوّه بشيء. الخطأ. لا يُعالج في النسخة الأصلية. فضلاً عن أنه لا يُعالَج. سألتُ العمة آنا إن كانت تعرف أين أبي. بدتْ متفاجئة. لماذا؟

لتخبريه أنّ أباه مات.

05 /23 (الساعة 23:20)

أتساءل إن كان سيحزن. لا أدري إن كنتُ سأحزن. غداً الجنازة.

05 /24

الطقس رائع. ربما حضر الناس لهذا السبب. كثير من الأرامل، العوانس، قالت لي العمة آنا. زبونات من رانس، من جنلان، من سان أوبير، من زمنٍ كان فيه جدي كيميائياً ماهراً، سيد هؤلاء السيدات. لا أتخيل، بعد أن رأيته ميتاً، متآكلاً تماماً ومهترئاً من الداخل، أنه استطاع أن يمتلك ذاك السحر، أن يثير هذا القدر من التنهدات. لماذا كانت جدتي في غاية الحزن إلى درجة أنها هجرته؟ إلى درجة التخلي عن أطفالها؟ قال بعض الرجال أشياء لطيفة عنه. أرادت كوليت أن تقرأ مقطعاً من الأمير الصغير، لكنها كانت تبكي بغزارة. أغرقت الدموع كلماتها. بعد ذلك جاء دور نبيذ الاستقبال في

مقهى قرب متجر العقاقير حيث كان يعمل، وهو مقهى كان يحبّ أن يرتاده من حين إلى آخر. كوكتيل بالنبيذ، خبز سيربريز، حلوى ماكرون. تُسَبِّب الجنازات الجوع. تعرَّفْتُ إلى بضعة أشخاص. صورٌ ظلية مشوهة. وفجأة، صورته الظلية. صدمة. ازداد عشرين كيلوغراماً. ف ف ف صديق طفولة أبي، وحتى أعزّ أصدقائه. سبق أن قدّم لنا بعض الهدايا. سبق أن قال إنه سيكون موجوداً دوماً لأجلنا. كان يكذب مثل جميع الراشدين. حدَّقْتُ فيه حتى تلاقت نظراتنا. لم يهرع نحوي. وإنما حاول أن يتجنّبني، وأعرف السبب حقّ المعرفة. ذهبتُ لرؤيته رغم كل شيء. ثمة نبيذ أبيض. شرب قدحَي كوكتيل نبيذ بالتتابع. جرعة واحدة. نظرتْ إليه زوجته بهيئة ممتعضة. ثم سألني المغفرة. تسألني أنا. أسألكِ المغفرة، يا جوزفين، المغفرة لأنني لم أحاول تَسَقُّطَ أخبارك. قال إنه يشعر بالخجل. سبع سنوات من الخجل، سبع سنوات من العار. شعرتُ بالخوف. أشعر بالاشمئزاز كل صباح. أتغوط دماً. تتشنج أصابعي، لم يعُد بمقدوري أن أصافح. تقتلني خيانتي، يا صغيرتي، الصداقة، يجب أن تفيد أيام الغضب وأيام الجنون. أيام السكتات الدماغية. أيام تغدو الحياة عاصفة. أشتاق إليه، أباكِ القذر. أشتاق إلى جبنه. لم يكن جبنه إلا حباً هائلاً ووجلاً للحياة. إنني أُفرِطُ في الشرب منذ تلك الليلة الفظيعة. يخطر ببالي منذ الصباح وأحاول أن أغرقه. أسمِّم نفسي. أقتلها ببطء. لا أغفر لها، يا جوزفين، ويحق لكِ احتقاري، البصاق في وجهي. لستُ رجلاً نبيلاً. الأصح خسيس.

تلمع عيناه. الانفعال، كوكتيل النبيذ، العار. مزيجُ السوء.

أنتَ خسيس يا ف ف ف، وبصقتُ عليه. أمسكتْ زوجتهُ ذراعه. جذبتها إلى أعلى، مثل رسن كلب. وأثناء عبوره، التقط

كأساً أخرى عن الطاولة، رفعها إلى شفتيه. ضربته. انكسر الكأس، وتناثر كوكتيل النبيذ. بقعة دم صغيرة شفافة تقريباً على الأرض. نظر إليّ ف ف ف. عيناه تائهتان، فيما تدفعه زوجته خارجاً، إلى الرصيف حيث انهار. كان الندم يلتهمه. إنه سرطانه الخاص. وفكرتُ: هذا أفضل، أن يموت.

أنا مجنونة لأنني رغبتُ بموت رجل.

الساعة الثامنة وعشر دقائق مساءً. تأخر الوقت للاتصال بالطبيب النفسي.

24/ 05 (فيما بعد)

وجدنا أنفسنا أنا والعمة آنا في المطبخ. نام العم توماس. نحن لم نفلح في ذلك. فتحتْ زجاجة نبيذ، وضعتْ جبناً، حَمَّصنا الخبز الباقي من الصباح. تحدثنا في أمور كثيرة. شاقة بعض الشيء، لكن أمامنا متسع من الوقت. ثم إنني أهيم بذلك. لم أعد أتكلم على هذا النحو مع أمي منذ سنوات. كما أنها لم تعد تحدثنا، فهي تسافر في أغلب الأحيان بسبب عملها، وتبقى أحياناً عدة أيام في الخارج. أوليف هو من يهتم بليون. علَّمَه قيادة الدراجة. حتى قيادتها على العجلة الخلفية فقط. تفاهة. إنها مهارة تؤدي إلى حادث وينتهي على كرسي. يقولان لي أن أهتم بشؤوني وينتهي الأمر دوماً إلى مشادة كلامية. مغفلان. أتطلع إلى الحصول على الشهادة الثانوية العام القادم وأن أنقلع من هنا. تحدثتُ في أمور كثيرة مع العمة آنا. لديها ذكريات جميلة مع أخيها. يصعب عليّ أن أصدق أنها تتحدث عن

أبي. وأنه كان على تلك الحال: أخاً هادئاً، فائق الحضور، ودوداً معها. روت لي كيف اشترى لها يوماً الكثير من اللبان معتقداً أنها إذا مضغتهم، ستقوى عضلات فمها وستحصل الكلمات الناقصة على القوة لتعود. في المخيم الصيفي، طلب البقاء معها ليلاً، لأنها تشعر بالخوف وكان يمكنه أن يقرأ لها هانسل وغريتل دون أن يسخر أحد منهما. عندما ذهبنا لنعيش في ليون. حين أَخْبَرَتْهُ بـ«س م» (سؤالي المرعب) بكى. قالت له أيضاً إنني أحرقتُ أنا وليون كلّ ما يمتّ له بِصِلَة، حتى اسمه. بعد ذلك، رفض رؤية أحد، وساد الصمت بينهما.

انبلج الصبح في الخارج، كنا نتثائب. عندئذٍ أعطتني مغلفاً. بمناسبة عيد ميلادي. يحتوي على الشيئين الوحيدين اللذين بقيا في منزل أمهما وأبي وهي.

هدية تقول إن السعادة موجودة يا جوزفين، أنها وُجِدَت حتماً في مكان ما. ثمة صورتان في المغلف. على الأولى تظهر فتاتان صغيرتان توأم بثوبين ورديين، شاحبتان، جميلتان. تضحكان في حديقة. تبدوان خالدتين. خلفهما، هنالك زنابق بلون ثوبيهما. على الثانية، صورة شخصية، صبي صغير في سن السادسة، شعرهُ مسرَّح بعناية، يرتدي قميصاً أبيض، ياقته مزررة. شرحت لي العمة آنا، إنها من أجل ملف التسجيل في نادي الجودو، لكنه لم يبقَ فيه. قال لي إن يوم التقاط هذه الصورة هو الأجمل في حياته.

بعدها، ذهب مع أمهما إلى السينما، وتناولا المثلجات.

يومذاك، أمسكت أمه يده خلال الفيلم. أجمل يوم في حياة أبي.

سأعود غداً.

إننا في إسبانيا منذ أربعة أسابيع، أنا وساشا. نحتفل بحصولنا على شهادة الدراسة الثانوية الفرنسية (هي 16,1 ، أنا 15,9، فرق طفيف). بعد المرحلة النهائية، قررت ساشا أن تدرس الرياضيات وأنا الكيمياء. مثل جدي، لكن على العكس منه، أريد أن أترك آثاراً لا أن أزيلها. أودّ أن أبتكر عطوراً ذات يوم.

هنا، نرقص أحياناً طوال الليل. تخرج ساشا مع فتيان كثر. لا تهتم. قالت لي يوماً إنها لن تحظى إلا بعشاق. الأمر بالنسبة لي أكثر تعقيداً. لا يفهم الفتيان أنني لا أريد التقبيل. عندما يصرون، أقول إنني مصابة برهاب القبل. يتخيلونه مرضاً جنسياً معدياً. هذا يجعلهم يفرون، أحبائي المساكين، لكن بالأمس، فتى، لم يكن يعرف الكلمة فحسب، بل وحدّد بدقة: هذا لأن كلمات طفولتك لم تخرج. قتلني هذا. وفوق ذلك. شاب وسيم.مكتبة الرمحي أحمد

وفي أحد صباحات الشتاء السابع، اتصلت بي العمة آنا. كانت قد تلقت رسالة منكَ. كنتَ في المكسيك. على الساحل الغربي كما يبدو. لم تقل الكلمات شيئاً يذكر، ما عدا أنك لم تمُت بعد. حياة جديدة. صديق جديد. لم أستطع التفكير بشيء آخر في النهار. وجدني الطبيب النفسي مساءً عصبية، شاحبة. خاف. قلت له إنني أشعر بالغثيان. سألني إن كان السبب هو معرفتي بأنك حي في مكان ما. أجبتُ لا ألـعَّ. لا، لا، لا، كررتُ. لماذا إذاً؟ لماذا؟ وانهرتُ. أطنان من الدموع. نياغارا جوزفين. لم يعد يسعني التوقف. التهمتُ علبة المناديل الورقية في دقيقتين. مدَّ لي طرف قميصه، وهذا ما جعلني أبكي من جديد. مطر مدرار. الفتاة المتلاشية.

عندئذٍ، قال لي هذا الشيء الرائع، الذي لن يُمحى أبداً. الولادة، تعني دوماً الكثير من الماء، الكثير من الدموع. أهلاً بكِ جوزفين. أهلاً بك.

12 /22

الطائرة بعد ساعتين. جلستُ بين الناس الذاهبين لقضاء عطلتهم السنوية، في الشمس. أناس شاحبون مثل المؤخرات. يتحدثون بلا توقف. كأن الصمت يرعبهم. أنا، أريد الصمت، أريد الريح، هدير الموج، الدفء. بالطبع فقدتْ أمي صوابها حين قلتُ لها إنني سأغادر. كانت قد خططت لشيء ما مع أوليف. شيء ما عائلي. أنتِ تتكلمين. لعلكِ كنتِ تتوقعين ألّا أنفصل عنكم في عيد الميلاد، أن أنتظر العام الجديد على الأقل. لسنا عائلة يا أمي، ليون هو مَن لديه هذا الوهم فقط. وأيضاً. من دونكِ. عائلته هي أوليف. صديق الدراجة. **كَفُّكَ**. سيتقاسمان ذات يوم، بعد الوشم، الفتيات. **توریاکري** (اقتسام، منفعة متبادلة). يتغيب عن المدرسة، وأنت لا ترين ذلك. يفقدُ لطف الطفولة، لديه رأس عجوز صغير، ابنكِ. لم تنظري إلا إلى نفسك العام المنصرم. إلى التغضنات الصغيرة حول عينيك، في كل ثانية. الانتفاخ الطفيف أسفل البطن. القياس المتوسط لخصر البنطال، ثم المقاس الأكبر. الزمن يثير جنونك. الزمن الذي يمضي ويخرب. أردتُ أن أحدثكِ عن نفسي، عن الزمن

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

الذي يمضي ويرمّم، لكن هذا لا يهمكِ. فأنتِ لم تشاهدي تحسُّني. لم تشاهدي أن لحم الخنزير يتلاشى، وأن اللون تحول إلى لون سكالوب الحبش المقلي وصار يقترب من لون بشرتي الجميل، وأن حفرة فمي رُدِمت. لم تقولي لي إنني استعدتُ جمالي (تقريباً) من جديد. كنتِ تسألينني كيف أجدكِ، أنتِ، وتسألين ليون كيف يجدكِ، أنتِ. فأقول لكِ إن مثل هذه الأسئلة ستنتهي بك إلى أن تصبحي من النساء اللاتي يغزوهن الرجال بمجرد نظرة، ثم يهجرونهن عند الفجر. كنتُ أقول لك إن جمالكِ سينتهي إلى الذوبان في السهولة. وجدتكِ دوماً في غاية الجمال، يا أمي، حين لم تكوني تُعيري ذلك أي اهتمام. حين كان جمالكِ هدية. حدثتني العمة آنا عنكِ، عن أبي، حين كنتما معاً. بداياتكما الملتهبة. ولادتي. ثم شكوككِ. أردتِ الرحيل من قبل، لم تكوني دوماً متأكدة من حبه. من حبكِ لنا دوماً. هل تعرفين أنه يمكن للمرء أن يرحل في البقاء؟ أنتِ بطلة العالم في هذا. أشعر بالحزن. يترعرع المرء باعوجاج دون حبّ أم. يكبر ملتوياً.

22/ 12 (فيما بعد)

أقطع المخابرة الهاتفية مع ساشا. إنها في إيرياج مع أبويها. ينصبون شجرة عيد الميلاد. يُركبونَ الزينة. تشعرُ بالرعب من هذا. قالت، أُعلِّق كرياتي. ضحكنا. أهيم بضحكاتها. ينادوننا في المطار.

22/ 12 (في الطائرة)

أفلام بوف. طعام بوف بوف. على أية حال لم تجلس امرأة بدينة بجانبي، أو أحمق. زوجان عجوزان. يمسك كل منهما بيد الآخر. لا يتبادلان الحديث. أعتقد أنهما يصليان. قَطَّعَتْ له صدر الدجاجة منذ قليل، وفرزت البازلاء والثوم المفروم. يمضغ ببطء. تمسحُ شفتيه أحياناً. تعطيه أقراصاً كل ساعتين، يعاني دوماً من صعوبة في بلعها. تساعدهُ بإمالة رأسه إلى الخلف، بسكب الماء، فتنزلق الأقراص المضغوطة. لا يشاهدان أفلاماً. لا يقرآن. لا يتبادلان الأحاديث. فقط يمسك كل منهما بيد الآخر. ذات يوم، سأمسك يد شخص بهذه الطريقة، ولن أعود أشعر بالخوف أبداً. ذات يوم. تحدثتُ بإسهاب إلى الطبيب النفسي عن هذه الرحلة. يعتقد أنني مستعدة. مع ذلك أشعر بالخوف. وفي الوقت ذاته، تعتريني سعادة غامرة لأنني امتلكتُ الجرأة على مقابلته. وإذاً؟ قال لي إنه لا يطرح عليّ أسئلة، وأنني سبق أن اخترتُ الإجابة وأن أقوم بالرحلة. الرحلة أهم من الوجهة. لكنني أظن أنّ الأسوأ، هو أنني لن أكون معروفة. سأكون مجهولة. هذا يسمى ديسكونوسيدو بالإسبانية. ندتْ عنه عندئذٍ حركة لا تصدَّق. داعب وجهي. الجانب الأيسر. قال: لن يحدث هذا يا جوزفين.

لا أدري لماذا، لكنني صدقته.

22/ 12 (في الطائرة، بعد قيلولة)

تسع ساعات طيران حتى الآن. ما زال أمامنا أقل من أربع

ساعات. هذا مديد. لم نتوقف عن الطعام. شاهدتُ جيمس بوند. مع إيفا غرين. تشبه ساشا (أو بالعكس). ثمة شيء ما في ابتسامتها، ضارٌّ ورقيق. مثيرة جنسياً. إلى جانبي، لم يزل كل منهما يمسك بيد الآخر. هو نام، رأسه على كتفها. لا تتجرأ أن تحرك ساكناً. خشية أن توقظه. منذ قليل، استمعتُ إلى برنامج أغاني. ثمة عجوز بينهن لم أكن أعرفها. مغنية. تقول الكلمات شيئاً من قبيل: **حَدِّثْني عنه/ كيف يمضي حياته؟/ هل وجد السعادة أخيراً؟**[1] نياغارا جوزفين مرة أخرى. الرعب. ناولتني السيدة منديلاً قطنياً، بتؤدة، لأنه كان لا يزال نائماً. ابتسمتْ لي وكانت ابتسامتها إنسانية على نحو لا يصدَّق.

12 /23

نمتُ عشر ساعات متواصلة عند الوصول إلى الفندق. ليلٌ عميق، عذب. دون أحلام. دون أشباح. ينبغي على المرء أن يمضي دوماً ليالي كهذه. غداً، أول عيد ميلاد لوحدي. ثمة موسيقى. تماثيل للسيدة العذراء في كل مكان. شموعٌ في كؤوس ترسم دروب النفوس.

---

(1) **حدثني عنه**؛ كلمات: جان-بيير لانج، موسيقى: هوبير جيرو، جان-بيير لانج، 1973.

telegram @ktabpdf
مكتبة الرمحي أحمد

في رسالته، كتبَ إلى العمة آنا أنه حصل على صديق هنا. باسكوال. اتصلتُ به في الفندق الذي يعملان فيه سوية. ديسكونوسيدو. لكنه اليوم غير موجود. قال لي باسكوال إنكَ على الشاطئ بالتأكيد، في ماتيو، رغم الريح، لأن الطقس رائع. درجة الحرارة عشرون. نهار مثالي من شهر ديسمبر. هدية عيد الميلاد.

يُقيم دوماً قريباً من الفندق، حدَّد باسكوال. الفندق الوحيد في المنطقة، لا يمكن أن تخطئيه يا سنيوريتا.

إنني في الحافلة. أُمسكُ دفتري بيدي؛ أوديسا حياتي المقتولة. ترتعشُ يداي، مثل يدي كوليت. بسبب الطريق المزود بصفائح متماوجة ولا شك، لكن على الأخص بسبب خوفي، أظن. لا، ليس خوفي. إنما فرحي.

أظن أنني أرتعش من الفرح. تتوقف الحافلة من أجلي. يدلني السائق على الشاطئ، في الأسفل. ثمة ريح. الأمواج عاتية. عنيفة. لا يوجد متزلجو أمواج. المكان شبه مهجور. أمشي ببطء. تغوص قدماي العاريتان في دفء الرمل. بضع صبية هناك، يلعبون لعبة الهراوات والكلاب. أرى الفندق على اليسار. يبدو مغلقاً، شبه مهجور. يتمشى زوجان، على شاطئ المحيط المغطى بالطحلب.

يثبان جانبياً أحياناً، حين يهدهدهما الموج الهادر. أنظر إليهما. لا سيما هو. لكن لا لستَ أنتَ. هناك، إنهم ثلاثة، يجلسون مقابل الموج الهائج، رجلٌ، امرأةٌ، طفلٌ. سالتْ دموعي على الفور. كنتُ أعرف هذا العنق. هذا الظهر. هذا الظلّ الجالس. كان لديه الظل ذاته حين يجلس فوق سريري، كل مساء. حين كان يجلس متربعاً، ليقرأ لي قصة **هانسل وغريتل**. وددتُ لو أركض، لكن يدي تخنق فمي. لا تطاوعني قدماي. تتابعان مشيتهما الهادئة، تقوداننني نحوهم، نحوه.

لا يتحدثون. يضم الطفل كرة القدم إلى صدره. يسوط شعر المرأة خديّ أبي. وأنا على بعد أقل من خمس خطوات خلفهم. تُخرِسُ الريحُ حضوري. خطوتان أيضاً. ينظر الطفل إلى الغيوم، ثم إلى أبي.

لماذا تمطر يا أنطوان؟

وأنا هناك. بالقرب منهم. أتقدم وأجلس بجانب أبي. لم يجفل. يلتفتُ برأسه نحوي. إنه وسيم. يبتسم لي. مرَّ الزمن. تمتد يده لتستقر على كتفي. تضغطه أصابعه برفق. يبكي. لن يدعني أحلق بعيداً مرة أخرى.

ثم يحكي رانجيني. يحكي باباتيانيكي. يحكي الأم الأرض. يحكي الأب السماء. يحكي دموعنا.

إذاً، استحقت حياتنا في نهاية المطاف عناءنا.

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

غريغوار دولاكور

لم أكن أرى إلا السعادة

هل يمكن لنا تقييم ثمن حياة؟ مكتبة 194

يقضي خبير التأمين أنطوان وقته في تقدير واحتساب قيمة حياة الآخرين، إلى أن وصل به الحال إلى تثمين حياته ذاتها، فيصحبنا إلى مناطق حميمية منها: طفولته، أبواه، أختاه التوأم، زواجه... ذكريات تكشف لنا أن تلك الابتسامات التي تبدو حقيقية في صور العائلة قد تكون واجهة زائفة في الواقع.

لم أكن أرى إلا السعادة هي رواية تتحدث عن حياتنا، عن مآسينا السرية، عن جانب من طفولةٍ جريحة يسكن في كل واحد منا، إلا أنها بالنتيجة نشيد للحياة بكل ما تحتويه من لحظات مميزة بأفراحها وأتراحها.

تقودنا هذه الرواية الساحرة، بحنان وذكاء فائقين، إلى طرح أسئلة عن الآخر، عن الحب، عن الحياة، عن معنى السعادة... وتذكرنا أن كل حياة تتألف من عناء وفرح وسعادة، وأنه في لحظة الموازنة الختامية، يبقى أمام كل واحد منا الاختيار بين الاحتفاظ بلحظاتها الصعبة أو ألا يرى فيها إلا السعادة...